موسوعة الاغتيالات
ومحاولات الاغتيال في العالم

الجزء الثامن

د. سليم الياس

موسوعة
الاغتيالات ومحاولات الاغتيال
في العالم

تنويه

أولاً: إن عرض هذه الموسوعة من حوادث الاغتيال قد تم سرد مواضيعها حسب التسلسل الزمني لوقوع حادث الاغتيال، حيث أنها لا تتدرج بأيّ شكلٍ من أشكال التصنيف أو الترقيم.

ثانياً: إن المواضيع التي وردت في موسوعة الاغتيالات ومحاولات الاغتيال في العالم لا تعبِّر بالضرورة عن رأي مركز الشرق الأوسط الثقافي أو عن رأي المؤلف، وإنما هي مستقاة من المراجع والمستندات والمواقع الإلكترونية والتي تم ذكرها في هوامش كل موضوع، وبذلك فهي لا ترتب أية مسؤولية قانونية لا على الناشر ولا على المؤلف.

الناشر

سليم الياس

موسوعة

الاغتيالات ومحاولات الاغتيال

في العالم

الجزء الثامن

مركز الشرق الأوسط الثقافي

الطبعة الأولى

1427 هـ 2006 م

مركز الشرق الأوسط الثقافي
للطباعة والنشر والترجمة والتوزيع

The Middle East Cultural Centerr
For Printing, Publishing, Translation & Distribution

الإدارة العامة:
بيروت - الحدث، هاتف: ٤٦١٨٨٨ - ٥ - ٩٦١
فاكس: ٤٦١٧٧٧-٥-٩٦١- خليوي: ٦٤٠٤٩٠-٣-٩٦١
Web site: www.lccpublishers.tk

General Management:
Beirut - Hadath, Tel: 961 -5 -461888
Fax: 961 - 5 - 461777, Mobile: 961 - 3 - 640490
E-mail: lcc_pub@Yahoo.com

المقدمة

نحن نشاهد الاغتيالات على شاشات التلفزة ونقرأ عنها في الجرائد ونسمع أخبارها في الإذاعات.

تغطي الاغتيالات كل كرتنا الأرضية، وهي تمس حياة الناس العاديين والكوادر والزعماء، كما تتقاذف رياح الكراهية وموجات الأحقاد وممارسات العنف اليومي بين الجماهير والمجموعات المختلفة حسب طوائفها وأعراقها وانتماءاتها السياسية والدينية. كما لا تخلو ساحة السلطات وأجهزتها القمعية العلنية والسرية من تهمة ارتكاب فعل الاغتيال السياسي بفنون ووسائل متعددة.

فلقد شهد تاريخ البشرية سلسلة لا نهاية لها من عمليات الاغتيال السياسي، أشهرها تلك التي أشعلت شرارة الحرب الكونية الأولى عندما اغتال شاب صربي ولي عهد النمسا. ألمانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا دول شهد تاريخ كل منها أسوأ الاغتيالات خاصة في عهدي هتلر وستالين.

والتاريخ العربي القديم والمعاصر لم يخلُ من أبشع الاغتيالات السياسية أشهرها محاولة والدة الخليفة المهدي في العصر العباسي

اغتيال ابنها المهدي معاوية بن أبي سفيان حين كان والياً على الشام، الذي كان قبل خلافته قد اشتهر بتصفية خصومه بالاغتيالات السياسية وغالباً ما كان السم وسيلته المفضلة.

بلادنا كان لها رصيد حافل بالضحايا تخلله اغتيال ملوك وحكام، وعلماء وفلاسفة، وناشطين سياسيين، عسكريين ومدنيين، رجالاً ونساء، وعلى الرغم من اختلاف مكانة الضحايا وأهمية مكانتهم في الدولة والمجتمع.

إلا أن الاغتيال السياسي يبقى هو الجامع بينهم وإن اختلفت طرقه، وبالعودة لقراءة تاريخ سلسلة الاغتيالات السياسية يجد المتتبع أن هذه الأنواع من الاغتيالات غالباً ما كانت تأتي مغطاة بأساليب تبعد أي شبهة لنظرية المؤامرة، ومنها على سبيل المثال عملية دس السم للضحية بواسطة المأكل أو المشرب أو الحقنة، أو زجه من على مرتفع شاهق، أو هدم حائط عليه أثناء نومه، أو إغراقه في نهر، أو خنقه في حمام وما إلى ذلك.

ومع تطور الزمان تطورت عمليات الاغتيال لتصل إلى الدهس بالسيارات أو إسقاط طائرة لتظهر الحادث وكأنه قضاء وقدراً، وإلى ما ذلك من طرق الاغتيالات التي تبعد الشك عن من له مصلحة في عملية إزاحة الضحية دون إثارة الشكوك وجلب السخط على الفاعلين.

ومع تنامي الفكر وازدياد الوعي عند الشعوب فقد أصبحت مثل هذه الطرق بدائية ومكشوفة، ولم تعد تنطلي على الناس. لذا فقد أخذ القتلة يبحثون عن وسائل جديدة للتخلص من ضحاياهم

محاولين عدم ترك أي أثر يدل على الجاني. ولهذا طورت العقلية المخابراتية من أسلوب عملها، فأصبح كاتم الصوت، وتفخيخ السيارات أو المكاتب، أو تلغيم الظروف البريدية، كلها من ضمن الوسائل المبتكرة للتخلص من الخصوم.

سليم اللوزي

(1923 - 1980)

حتى لحظة اختطاف سليم اللوزي، ظهر يوم الأحد 24/ 2/ 1980، على بعد أمتار من مطار بيروت، وقبل سفره وزوجته إلى لندن ليشرف على العدد الجديد من مجلة «الحوادث» التي انتقل بها إلى العاصمة البريطانية بعد تعرض مبناها في عمق عين الرمانة للتدمير، حتى هذه اللحظة لم يكن سليم اللوزي قد اقتنع بأن المقاتل بسلاح الكلمة لا يمكنه، خصوصاً في هذه الظروف وضمن هذه الأجواء، مواجهة المقاتل بسلاح «الكلاشنكوف».

فلقد كان الرجل يردّد دائماً أمام تحذير أصدقائه ورفاقه العاملين في مكتب مجلته «الحوادث» في بيروت، بأنه أقوى من الخطف، وأقوى من القتل. لأنّ هيبة الكلمة في رأيه، هي أقوى من هيبة المسدس. لذلك بقي يشحن كلمته حتى أصبحت فوق الاحتمال. دليل على ذلك، ما قام به سليم اللوزي نفسه وعشية سفره، وبصورة فجائية إلى مدير تحرير مجلته السيد ريمون عطا الله، مرافقته في نزهة على الأقدام عبر شارع الحمراء في رأس بيروت. هناك، كان اللوزي ورفيقه، الذي لبّى الدعوة بتردّد، يمران أمام

مكاتب حزبية لبنانية معينة سبق لقلم اللوزي أن تهجم على رؤسائها بشكلٍ لاذعٍ وساخرٍ أحياناً.

«كم هو جريء سليم اللوزي»!

هذه العبارة ردّدها آلاف من قراء مجلة «الحوادث» وهم يعلقون على مقال له، أو رأي أبداه، أو حتى خبر منشور في مجلته.

ولكن أهي جرأة بالفعل أن يتعرض الصحافي وفي عدد واحد إلى ثلاثة رؤساء عرب، ويتناول بالسخرية تصرفات البعض منهم، وأسلوب تعاطيهم المسؤولية!؟

أهي جرأة، أم زيادة مفرطة في الثقة بالنفس أم تحدٍّ أم تهور!؟ أم ابتزاز؟! العارفون بسيرة الأستاذ اللوزي يجيبون بأن الرجل في طبعه يعشق المغامرة ومواجهة المستحيل.

سليم اللوزي من مواليد طرابلس ـ لبنان عام 1923. كان رفيقاً للرئيس رشيد كرامي في كلية التربية والتعليم الإسلامية. من هناك تدرج، لكن ظروفه لم تسمح له بمتابعة الدراسة، فقام بذلك على كِبر. وبين الفترتين نزل إلى ميدان الحياة بكلِّ رغبة في الكفاح واقتحام المعالي.

تأسس كتابياً في مكتب نقيب محامي الشمال مصطفى الذوق. كان يقرأ الجريدة الواحدة خمس مرات لأنه ـ على حدِّ قوله ـ كان يكتشف في كلِّ مرة يقرأها شيئاً جديداً وكلمة جديدة. وبقي يعمل على هذا المنوال في طرابلس حتى اصطدم «بالسقف». وأيقن أنَّ طموحه أصبح أكبر من مساحة المدينة. فركب القطار إلى فلسطين،

يوم كان هناك قطار إلى فلسطين، وتعذب وتشرد حتى تعرفت إلى مواهبه «محطة الشرق الأدنى»، وأثبت أن عنده عدة مواهب في وقت واحد، فهو مذيع من الدرجة الأولى، وكاتب تعليق ذو أسلوب متميز، ثم ذهب بالموهبة بعيداً، ومثّل مع الفنان المرحوم أنور وجدي دور طبيب في مسلسل إذاعي في المحطة الإذاعية ذاتها.

وفي القطار أيضاً مضى إلى غزة، يوم كان هناك قطار إلى غزة، ومنها إلى القاهرة حيث جمعته المصادفة بالفنانة والصحافية الكبيرة روز اليوسف.

كانت روز اليوسف مثل سليم اللوزي، متعدِّدة المواهب. فقد أطلق عليها نُقاد المسرح اسم «سارة برنار الشرق». وفي الوقت نفسه كانت تصدر مجلة تحمل اسمها، لا أي اسم آخر، وهي ظاهرة في عالم الصحافة.

لم يبقَ سليم اللوزي في القاهرة طويلاً. فقد صدرت إرادة ملكية بطرده من مصر لأنه اكتشف قضية الأسلحة الفاسدة التي تزود بها الجيش المصري في حرب فلسطين عام 1948 بحيث كانت القنابل تنفجر بيد أصحابها قبل أن يقذف بها إلى العدو.

من القاهرة، حيث دفع ثمن الكلمة بالطرد إلى بيروت حيث عرض عليه الصحفي سعيد فريحة منصب سكرتير تحرير «الصياد».

وفي تلك الأيام، وحين قام انقلاب محمد نجيب في مصر عام 1952 كان سليم اللوزي أول صحافي عربي يقابل قائد الانقلاب المتعارف عليه في ذلك الحين. ويظهر في صورة يقوم فيها اللواء

محمد نجيب بإشعال سيجارة لسليم اللوزي. وفي العادة أن الصحافيين هم الذين يشعلون سجائر الرؤساء لا العكس.

ومن دار «الصياد» عبر سليم اللوزي إلى مجلة «الجمهور» واختير رئيساً لتحريرها، لكن مكوثه فيها لم يطل. وقَبِل عرضاً من الأخوين إميل وشكري زيدان بإدارة مكتب مجلة «الهلال» في بناية اللعازارية في بيروت.

ـ حكاية طريفة:

ذات يوم كان هناك احتفال بعيد تأسيس «الجامعة العربية» ـ في سنة 1954 ـ وقد أقيم في مدينة طرابلس ـ لبنان. وكان بين الخطباء الرئيس تقي الدين الصلح الذي كان من وجوه الجامعة في أيام رياض الصلح. وكان الخطيب الآخر هو سليم اللوزي، بينما عريف الحفلة كان المرحوم نورالدين الخطيب. يومئذ وقعت مساجلة مثيرة بين الرجلين. فتقي الدين الصلح راح يمتدح الجامعة على سلبيتها، بينما ركز سليم اللوزي على كشف الفضائح التي جرت بين جدرانها توصّلاً إلى تصحيح مسارها. ومما قاله اللوزي آنذاك: «إن وزراء الخارجية العرب، في ذلك الحين، اختلفوا فيما بينهم على حفلة يقيمونها باسم الجامعة. وسبب هذا الخلاف أن فريقاً كان يريد أن ترقص تحية كاريوكا في الحفلة. بينما الفريق الآخر يطالب بسامية جمال راقصة للحفلة، عندها قام تقي الدين الصلح يداري ما حصل في الجامعة، في وقت راح سليم اللوزي يدافع عن معلوماته من موقع المؤمن بأن الحقيقة يجب أن تقال مهما كان الثمن. لكن عريف الحفلة تدخّل ليقول ـ بلباقته المعهودة ـ كلاكما أيها السيدان

يريد صالح الجامعة وأظن أنكما قد اتفقتما».

طموح سليم اللوزي كان هاجساً. فهو يريد أن يحرق كل المراحل ولا يتوقف عند مرحلة واحدة. وقد كان يردد دائماً في تلك الفترة: «ما نفع الكاتب إذا كان كبيراً وليس عنده مجلة أو صحيفة». ومن هذا المنطلق ذهب إلى طرابلس ليبحث عن إمتياز فوجده عند المرحوم لطف الله خلاط وكان اسمه «الحوادث».

يومئذ دفع سليم اللوزي ثمن الإمتياز خمسة آلاف ليرة لبنانية. وقبل أن يغيب في حادث الاختطاف جرى تثمين «الحوادث» فإذا هي بسعر عشرين مليون دولارا بين السعرين، حتى لا نقول المرحلتين، عاش سليم اللوزي أعنف مدٍّ وجزر في حياته الصحفية.. حتى جرى اختطافه بتاريخ 24/ 2/ 1980. بعد عشرة أيام وجد ممزّقاً؛ مشوهاً؛ معذّباً؛ مقتولاً وقد قطعت أصابعه عقوبة لها على مسك القلم.

- من اللوزي إلى طه:

في 7 حزيران/ يونيو استقال رئيس الحكومة سليم الحص. فبادر سركيس إلى القيام بجولة على المرجعيات الروحية، محاولاً اغتنام الفرصة لتشكيل حكومة إتحاد وطني، تجسد المسلّمات الـ 14. قامت العراقيل ولم يتمكن رئيس الجمهورية من قبول استقالة الحص إلا في 16 تموز/ يوليو عام 1980، ليكلف في 22 منه تقي الدين الصلح تشكيل الحكومة المنشودة. في اليوم التالي اغتيل نقيب الصحافة رياض طه.

ونامت المشاريع الحوارية الداخلية مرة جديدة نحو عامين، لتنبثق تحت وطأة الاجتياح الإسرائيلي منتصف العام 1982. في 14 حزيران/يونيو من ذلك العام، وبعد 8 أيام على بدء الاجتياح، أصدرت المديرية العامة لرئاسة الجمهورية بياناً أعلنت فيه عن تشكيل «هيئة إنقاذ وطني» برئاسة سركيس وعضوية كل من: شفيق الوزان، فؤاد بطرس، نصري المعلوف، نبيه بري، بشير الجميل ووليد جنبلاط. وأعلن البيان عن تحديد موعد أول إجتماعاتها بعد ظهر اليوم نفسه، الأمر الذي عرقله جنبلاط، حتى يوم 21 حزيران/يونيو 1982، تاريخ انعقادها للمرة الأولى في قصر بعبدا. خرج بعد الإجتماع رئيس الحكومة الوزان ليعلن أن الهيئة ستعود إلى الإجتماع بعدما أخذت على عاتقها تنفيذ بعض المهمات.

ـ عملية الاغتيال:

في الرابع من آذار/مارس عام 1980 ظهرت جثه الكاتب الصحفي اللبناني سليم اللوزي 58 عاماً صاحب مجله «الحوادث» التي صارت تصدر من لندن بعد تفجير مقرها في بيروت. قبلها بنحو أسبوعين كان اختفاء اللوزي لغزاً غامضاً وقيل أن المسألة ليست محاوله قتل عادية فحينها كان القتل أسهل ما يكون بإطلاق الرصاص في وضح النهار لكنهم أرادوا تأديبه أو قل تعذيبه أولاً.

وقد أثبتت التحقيقات أن اللوزي قتل برصاصتين أطلقتا على رأسه وأشارت إلى وجود تعذيب نال كثيراً من يده اليمني التي كتب بها معارضاً سياسة الردع.

كان اللوزي في طريقه إلى مطار بيروت الدولي متجهاً إلى لندن

عندما اختطفه مسلحون هو وزوجته وحارسه الخاص، ثم أفرجوا عن الزوجة والحارس وأنهوا حياة الصحفي الذي حاور كثيراً من الرؤساء والملوك العرب. المخابرات السورية نفت بدورها علاقتها بالحادث، كما نفته جهات أخرى.

ـ لماذا اغتيل سليم اللوزي؟

الذنب الذي اقترفه سليم اللوزي الذي اغتيل بإطلاق الرصاص على رأسه وبقطع لسانه وبوضع يده اليمنى في الأسيد الحارق إنه أصدر مجلة «الحوادث» بغلاف عنوانه: «عندما يكذب النظام» فالنظام المقصود لا يحتمل أن يقال له مثل هذا الكلام فهو الصادق دائماً، ومن لا يوافق على هذه الحقيقة، فإن كاتم الصوت جاهز للتوجه إلى صدغه!!

تصاعد القيل والقال فتعطلت عجلة العمل في المجلة وفي كل الأقسام وتجمعت الأنباء والشائعات والروايات وثبت بشكل قاطع أن الصحافي الألمعي سليم اللوزي صاحب ورئيس تحرير مجلة «الحوادث»، التي كانت في ذلك الحين في ذروة تألقها وسطوتها، قد جرى اختطافه عند حاجز «الكوكودي» على الطريق المؤدي إلى مطار بيروت الدولي الذي بعد استشهاد رئيس الوزراء اللبناني الأسبق غدا اسمه «مطار رفيق الحريري الدولي».

كان سليم اللوزي قد عاد إلى بيروت على حين غرة، كعودة جبران تويني، لحضور جنازة والدته التي توفيت وهو بعيد عنها يعيش في لندن التي لجأ إليها هارباً بحياته وبصحيفته وبحرية قلمه. فتلك الفترة من نهايات عقد سبعينات القرن العشرين كانت حالكة

السواد بالنسبة للصحافيين والصحافة اللبنانية وكان الهجوم على صحيفة «المحرر» اليومية المقربة من العراق وإحراقها وقتل اثنين من خيرة كتابها ومحرريها هما المصري علي عامر والفلسطيني نايف شبلاق ذروة مأساة صحافة لبنان في تلك الفترة المضطربة.

كان سليم اللوزي الذي اعتقد أنه غدا بعيداً وأنه سيبقى بعيداً عن منطقة الشرق الأوسط قد أخرج «الحوادث» في أسبوعين متلاحقين بغلافين مثيرين واستفزازيين الأول هو «عقدة العقيد»!! والثاني هو: «عندما يكذب النظام»!!.

ربما أن سليم اللوزي قد تأثر بالأجواء الديمقراطية في مهجره البعيد وظن أن عناوين «حوادثه» ستمر بسلام في أوطان القمع الآسيوي السعيدة وربما أن عناده الذي لا يشبهه إلا عناد جبران تويني وصلفه هو الذي جعله يطمئن إلى الضمانات التي حصل عليها قبل أن يعود إلى لبنان تلك العودة الأخيرة ليودع والدته الوداع الأخير.

كان مدرج جامعة دمشق قد شهد ندوة مثقفين تركز خلالها النقاش على الحريات العامة وكان من بين المتكلمين الناقدين الشاعر والكاتب والروائي ممدوح عدوان (رحمه الله) وقد نسب إليه أنه استخدم عبارة: «عندما يكذب النظام» وهو يتحدث عن وعود أعطيت بالنسبة للديمقراطية ولم تنفذ.

اقتبس سليم اللوزي برشاقة قلمه وبأسلوبه التهكمي اللاذع هذه العبارة ووظفها توظيفاً بارعاً في مجال تسديد حسابات قديمة مع نظام المرحوم الرئيس حافظ الأسد وهو كان قبل أسبوع واحد فقط

قد اقتبس عبارة «عقدة العقيد» من كلام لأحد قادة المعارضة الليبية في الخارج واستخدمها استخداماً لاذعاً وبشعاً ضد نظام الأخ «قائد الثورة» معمر القذافي.

حاول الذين فوجئوا بوجود سليم اللوزي في بيروت أن يفهموه بأن رأسه مطلوب وأنه يجب ألا يخرج من بيته إطلاقاً وعرضوا عليه «مرافقة أمنية» إلى مطار بيروت لكنه رفض، لاعتقاده بأن أكبر ضمانة له هي قلمه وهي مجلته وهي سعة صدور دول «شرقي المتوسط».

لم يأخذ سليم اللوزي بالنصائح التي أسديت إليه مجاناً!!.. وقصد مطار بيروت في صبيحة يوم أسود. وكان الموت في انتظاره عند حاجز «الكوكودي».. لقد اختطف ونقل إلى منطقة «عاليه» المطلة على العاصمة اللبنانية من الجنوب الشرقي. ثم وجد جسده في ساعات المساء المتأخرة مرمياً في دغل من الأشجار. ويده اليمنى لم يبق منها سوى بقايا عظم متآكل لوضعها في الأسيد إلى أن اهترأت بينما كان لسانه مقطوعاً من شروشه وبينما كان رأسه مفجراً برصاصة اخترقته من جانب إلى الجانب الآخر وبينما كانت أذناه مصلومتين وعيناه مفقوءتين.

كانت ليلة رعب بالنسبة للصحافيين في لبنان كلهم. لقد اغتيل سليم اللوزي بهذه الطريقة البشعة.. ولقد تفرق دمه بين القبائل فالبعض اتهم القمع الآسيوي والبعض اتهم القمع الأفريقي.. والبعض قال أنها الإمبريالية الأميركية والبعض قال بل أنها الصهيونية والمخابرات الإسرائيلية. وقال آخرون أن الهدف هو تشويه العون

الشقيق الذي يقدمه الأشقاء للبنان، والتجربة اللبنانية وقال غير هؤلاء كلهم بل أن القاتل هو منظمة مجرمة أساءت إلى اسم فلسطين والشعب الفلسطيني وأن هذه المنظمة تحولت إلى بندقية للإيجار.. تطلق رصاصها لمن يدفع أكثر.

كما أنه جرى اختطاف ميشيل أبو جودة في وضح النهار عندما ضمَّن عموده اليومي في جريدة «النهار» أن دولة شرق أوسطية مقبلة على أحداث جسيمة وتغييرات جذرية وإنه كاد أن ينتهي إلى النهاية التي انتهى إليها سليم اللوزي لولا مساعي الخير التي نجحت في اللحظات الأخيرة.

السيد محمد باقر الصدر

(1917 ـ 1980)

ـ ولادته ونشأته:

ولد السيد محمد باقر الصدر في مدينة الكاظمية في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة 1353 هـ الموافق في 12/ 9/ 1917م، وكان والده العلامة المرحوم السيد حيدر الصدر ذا منزلة عظيمة، وقد حمل لواء التحقيق والتدقيق والفقه والأصول، وكان عابداً زاهداً عالماً عاملاً، ومن علماء الإسلام البارزين.

وكان جده لأبيه وهو السيد إسماعيل الصدر، زعيماً للطائفة، ومربياً للفقهاء، وفخراً للشيعة، زاهداً ورعاً ضالعاً بالفقه والأصول، وأحد المراجع العِظام للشيعة في العراق.

أما والدته فهي الصالحة التقية بنت المرحوم آية الله الشيخ عبد الحسين آل ياسين، وهو من أعاظم علماء الشيعة ومفاخرها.

بعد وفاة والده تربى السيد محمد باقر الصدر في كنف والدته وأخيه الأكبر، ومنذ أوائل صباه كانت علامات النبوغ والذكاء بادية عليه من خلال حركاته وسكناته.

ـ دراسته وأساتذته:

تعلم القراءة والكتابة وتلقى جانباً من الدراسة في مدارس منتدى النشر الإبتدائية، في مدينة الكاظمية وهو صغير السن وكان موضع إعجاب الأساتذة والطلاب لشدة ذكائه ونبوغه المبكر، ولهذا درس أكثر كتب السطوح العالية دون أستاذ.

بدأ بدراسة المنطق وهو في سن الحادية عشرة من عمره، وفي نفس الفترة كتب رسالة في المنطق، وكانت له بعض الإشكالات على الكتب المنطقية.

في بداية الثانية عشرة من عمره بدأ بدراسة كتاب معالم الأصول عند أخيه السيد إسماعيل الصدر، وكان يعترض على صاحب المعالم، فقال له أخوه: إن هذه الاعتراضات هي نفسها التي اعترض بها صاحب كفاية الأصول على صاحب المعالم.

في سنة 1946م هاجر من الكاظمية إلى النجف الأشرف، لإكمال دراسته، وتتلمذ عند شخصيتين بارزتين من أهل العلم والفضيلة وهما: آية الله الشيخ محمد رضا آل ياسين، وآية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي.

أنهى دراسته الفقهية عام 1958م والأصولية عام 1959م عند آية الله السيد الخوئي.

بالرغم من أن مدة دراسة السيد الصدر منذ الصبا وحتى إكمالها لم تتجاوز 17 أو 18 عاماً، إلا أنها من حيث نوعية الدراسة تعدّ فترة طويلة جداً، لأن السيد كان خلال فترة اشتغاله بالدراسة منصرفاً بكلّه لتحصيل العلم، فكان منذ استيقاظه من النوم مبكراً وإلى حين

ساعة منامه ليلاً كان يتابع البحث والتفكير، حتى عند قيامه وجلوسه ومشيه.

- تدريسه:

بدأ السيد الصدر في إلقاء دروسه ولم يتجاوز عمره خمس وعشرون عاماً، فقد بدأ بتدريس الدورة الأولى في علم الأصول بتاريخ 23/ 12/ 1958 وأنهاها بتاريخ 7/ 5/ 1971م، وشرع بتدريس الدورة الثانية في 10/ 9/ 1971، كما بدأ بتدريس البحث الخارج في الفقه على نهج العروة الوثقى في سنة 1961.

وخلال هذه المدة استطاع أن يربي طلاباً امتازوا عن الآخرين من حيث العلم والأخلاق والثقافة العامة، لأن تربية السيد الصدر لهم ليست منحصرة في الفقه والأصول، بل أنّه يلقي عليهم في أيام العطل والمناسبات الأخرى محاضراته في الأخلاق، وتحليل التاريخ، والفلسفة، والتفسير، لذا أصبح طلابه معجبين بعلمه وأخلاقه، وكماله إلى مستوىً منقطع النظير، ولهذا حينما يجلس السيد بين طلابه يسود بينهم جو مليء بالصفاء والمعنوية.

- طلابه:

من أبرز طلابه ما يأتي ذكرهم:

1 - آية الله السيد كاظم الحائري.

2 - آية الله السيد محمود الهاشمي الشاهرودي.

3 - آية الله السيد محمد باقر الحكيم.

- سيرته وأخلاقه:

إن من سمات شخصية المرجع الشهيد تلك العاطفة الحارة، والأحاسيس الصادقة، والشعور الأبوي تجاه كل أبناء الأمة، تراه يلتقيك بوجه طليق، تعلوه ابتسامة تشعرك بحب كبير وحنان عظيم، حتى يحسب الزائر أن السيد لا يحب غيره، وإن تحدث معه أصغى إليه باهتمام كبير ورعاية كاملة، وكان سماحته يقول: «إذا كنا لا نسع الناس بأموالنا فلماذا لا نسعهم بأخلاقنا وقلوبنا وعواطفنا؟»

لم يكن الشهيد الصدر زاهداً في حطام الدنيا، لأنه كان لا يملك شيئاً منها، أو لأنه فقد أسباب الرفاهية في حياته، فصار الزهد خياره القهري، بل زهد في الدنيا وهي مقبلة عليه، وزهد في الرفاه وهو في قبضة يمينه، وكأنه يقول «يا دنيا غري غيري»، فقد كان زاهداً في ملبسه ومأكله، لم يلبس عباءة يزيد سعرها عن خمسة دنانير (آنذاك)، في الوقت الذي كانت تصله أرقى أنواع الملابس والأقمشة ممن يحبونه ويودونه، لكنه كان يأمر بتوزيعها على طلابه.

من الجوانب الرائعة في حياة السيد الصدر هو الجانب العبادي، ولا يستغرب إذا قلنا: إنه كان يهتم في هذا الجانب بالكيف دون الكم، فكان يقتصر على الواجبات والمهم من المستحبات.

وكانت السمة التي تميّز تلك العبادات هي الانقطاع الكامل لله سبحانه وتعالى، والإخلاص والخشوع التامين، فقد كان لا يصلي ولا يدعو ولا يمارس أمثال هذه العبادات، إلا إذا حصل له توجه وانقطاع كاملين.

وكان السيد الصدر أسوة في الصبر والتحمل والعفو عند

المقدرة فقد كان يتلقى ما يوجه إليه بصبر تنوء منه الجبال، وكان يصفح عمن أساء إليه بروح محمديّة.

كانت علامات النبوغ بادية على وجهه منذ طفولته، وعلى سبيل المثال نذكر هذه القصة التي حدثت في بداية الحياة الدراسية للسيد الصدر وكان السيد الصدر يدرس عند الشيخ محمد رضا آل ياسين، وحينما وصل الأستاذ في بحثه إلى مسألة أن الحيوان هل يتنجس بعين النجس، ويطهر بزوال العين، أو لا يتنجس بعين النجس؟

فذكر الشيخ آل ياسين أن الشيخ الأنصاري ذكر في كتاب الطهارة: أنه توجد ثمرة في الفرق بين القولين تظهر بالتأمل، ثم أضاف الشيخ آل ياسين: إن أستاذنا المرحوم السيد إسماعيل الصدر حينما انتهى ببحثه إلى هذه المسألة، طلب من تلاميذه أن يبيّنوا ثمرة الفرق بين القولين، ونحن بيّنا له ثمرة في ذلك، وأنا أطلب منكم أن تأتوا بالثمرة غداً بعد التفكير والتأمل.

وفي اليوم التالي حضر السيد الصدر قبل الآخرين عند أستاذه، وقال له: إنّي جئت بثمرة الفرق بين القولين، فتعجب الشيخ آل ياسين من ذلك كثيراً، لأنه لم يكن يتصور أن حضور تلميذه إلى الدرس حضوراً اكتسابياً، وإنما هو حضور تفنني.

فبين الصدر ثمرة الفرق بين القولين، وحينما انتهى من بيانه دهش الأستاذ من جِدّة ذكاء تلميذه ونبوغه، وقال له: أعد بيان الثمرة حينما يحضر بقية الطلاب، وحينما حضر الطلاب سألهم الشيخ: هل جئتم بثمرة؟ فسكت الجميع ولم يتكلم أحد منهم،

فقال الأستاذ: إن السيد محمد باقر قد أتى بها، وهي غير تلك التي بيّناها لأُستاذنا السيد إسماعيل الصدر.

ثم بيّن السيد الصدر ما توصل إليه من ثمرة الفرق بين القولين، وقد نفذ السيد بنبوغه هذا إلى صميم القلوب بصفته شخصية علمية وفكرية بارزة، وحاز على اعتراف فضلاء وعلماء الحوزة العلميّة.

ـ مواقفه ضد نظام البعث الحاكم في العراق:

للسيد مواقف كثيرة ضد النظام العراقي نوجزها بما يلي:

1 ـ في العام 1969م، وفي إطار الصراع في العراق، حاول حزب البعث توجيه ضربة قاتلة لمرجعية المرحوم آية العظمى السيد محسن الحكيم من خلال توجيه تهمة التجسس لنجله العلامة السيد مهدي الحكيم، الذي كان يمثل مفصلاً مهماً لتحرك المرجعية ونشاطها، فكان للسيد الشهيد الموقف المشرف في دعم المرجعية الكبرى من جانب، وفضح السلطة من جانب آخر، فأخذ ينسق مع المرجع السيد الحكيم لإقامة إجتماع جماهيري حاشد، ويعبر عن مستوى تغلغل المرجعية الدينية وامتدادها في أوساط الأمة، وقوتها وقدرتها الشعبية وحصل الإجتماع في الصحن الشريف لمرقد الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، وكان حاشداً ومهيباً ضمّ كل طبقات المجتمع العراقي وأصنافه.

ولم يقف دعمه عند هذا الحد، بل سافر إلى لبنان ليقود حملة إعلامية مكثفة دفاعاً عن المرجعية، حيث قام بإلقاء خطاب استنكر فيه ما يجري على المرجعية في العراق، وأصدر كثيراً من

الملصقات الجدارية التي ألصقت في مواضع مختلفة من العاصمة بيروت.

2 ـ في صباح اليوم الذي قرر الإمام الراحل آية الله السيد الخميني (قد)، مغادرة العراق إلى الكويت قبل إنتصار الثورة الإسلامية في إيران، قرر السيد الصدر الذهاب إلى بيت الإمام لتوديعه، بالرغم من الرقابة المكثفة التي فرضتها سلطات الأمن على منزله، وفي الصباح ذهب لزيارته، ولكن للأسف كان الإمام قد غادر قبل وصوله بوقت قليل.

والحقيقة أنه لا يعرف قيمة هذا الموقف وأمثاله إلاّ الذين عاشوا تلك الأجواء الإرهابية التي سادت العراق قبيل وبعد إنتصار الثورة الإسلامية في إيران.

3 ـ بعد حادثة اغتيال مرتضى المطهري في إيران على أيدي القوات المضادة للثورة الإسلامية في إيران، قرر السيد الصدر إقامة مجلس الفاتحة على روحه وذلك لأنه كان من رجال الثورة ومنظريها وكان من الواجب تكريم هذه الشخصية الكبيرة.

4 ـ ومن مواقف الفداء والتضحية ما حدث خلال فترة الحصار والإقامة الجبرية أيام إنتصار الثورة الإسلامية في إيران عام 1979م، إجابته على كل البرقيات التي قد أُرسلت له من إيران، ومنها برقية الإمام الخميني، علماً أن جميع تلك الرسائل والبرقيات لم تصله باليد، لأن النظام العراقي كان قد احتجزها، لكن السيد الشهيد كان يجيب عليها بغد سماعها من إذاعة إيران القسم العربي.

وكان من حق السيد أن يعتذر عن الجواب، فمن هو في وضعه لا يُتوقع منه جواباً على برقية، لكن لم يسمح له إباؤه فعبّر عن دعمه المطلق، وتأييده اللامحدود للإمام الراحل والثورة الإسلامية الفتية، مسجلاً بذلك موقفاً خالداً في صفحات التضحية والفداء في تاريخنا المعاصر.

5 ـ تصدى إلى الإفتاء بحرمة الانتماء لحزب البعث، حتى لو كان الانتماء صورياً، وأعلن ذلك على رؤوس الأشهاد، فكان هو المرجع الوحيد الذي أفتى بذلك، وحزب البعث في أوج قوته وكان ذلك جزءاً من العلة وأحد الأسباب التي أدت إلى اغتياله.

ـ أهداف، سعى الصدر لتحقيقها:

1 ـ كان السيد الصدر يعتقد بأهمية وضرورة إقامة حكومة إسلامية رشيدة، تحكم بما أنزل الله عز وجل، تعكس كل جوانب الإسلام المشرقة، وتبرهن على قدرته في بناء الحياة الإنسانية النموذجية، بل وتثبت أن الإسلام هو النظام الوحيد القادر على ذلك، وقد أثبت كتبه (إقتصادنا، وفلسفتنا، البنك اللاربوي في الإسلام، وغيرها) ذلك على الصعيد النظري.

2 ـ وكان يعتقد أن قيادة العمل الإسلامي يجب أن تكون للمرجعية الواعية العارفة بالظروف والأوضاع المتحسسة لهموم الأمة وآمالها وطموحاتها، والإشراف على ما يعطيه العاملون في سبيل الإسلام في مختلف أنحاء العالم

الإسلامي من مفاهيم، وهذا ما سماه السيد بمشروع «المرجعية الصالحة».

3 ـ من الأمور التي كانت موضع اهتمام السيد وضع الحوزة العلمية، الذي لم يكن يتناسب مع تطور الأوضاع في العراق ـ على الأقل ـ لا كماً ولا كيفاً، وكانت أهم عمل في تلك الفترة هو جذب الطاقات الشابة المثقفة الواعية، وتطعيم الحوزة بها.

والمسألة الأخرى التي اهتم بها السيد هي تغيير المناهج الدراسية في الحوزة العلميّة، بالشكل الذي تتطلبه الأوضاع وحاجات المجتمع لأن المناهج القديمة لم تكن قادرة على بناء علماء في فترة زمنية معقولة، ولهذا كانت معظم مدن العراق تعاني من فراغ خطير في هذا الجانب، ومن هنا فكّر بإعداد كتب دراسية، تكفل للطالب تلك الخصائص، فكتب حلقات «دروس في علم الأصول».

أمّا المسألة الثالثة التي أولاها السيد اهتمامه فهي استيعاب الساحة عن طريق إرسال العلماء والوكلاء في مختلف مناطق العراق، وكان له منهج خاص وأسلوب جديد، يختلف عما كان مألوفاً في طريقة توزيع الوكلاء، ويمكننا تلخيص أركان هذه السياسة بما يأتي:

أولاً: حرص على إرسال خيرة العلماء والفضلاء ممن له خبرة بمتطلبات الحياة والمجتمع.

ثانياً: تكفل بتغطية نفقات الوكيل الماديّة كافة، ومنها المعاش والسكن.

ثالثاً: طلب من الوكلاء الامتناع عن قبول الهدايا والهبات التي تقدم من قبل أهالي المنطقة.

رابعاً: الوكيل وسيط بين المنطقة والمرجع في كل الأمور، ومنها الأمور الماليّة، وقد أُلغيت النسبة المئوية التي كانت تخصص للوكيل، والتي كانت متعارفة سابقاً.

ـ مؤلفاته:

ألّف آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر العديد من الكتب القيمة في مختلف حقول المعرفة، وكان لها دور بارز في انتشار الفكر الإسلامي على الساحة الإسلامية وهذه الكتب هي:

1 ـ «فدك في التاريخ»: وهو دراسة لمشكلة (فدك) والخصومة التي قامت حولها في عهد الخليفة الأول.

2 ـ «دروس في علم الأصول» الجزء الأول.

3 ـ «دروس في علم الأصول الجزء الثاني.

4 ـ دروس في علم الأصول» الجزء الثالث.

5 ـ «بحث حول المهدي»: وهو عبارة عن مجموعة تساؤلات مهمة حول الإمام المهدي.

6 ـ «نشأة التشيع والشيعة».

7 ـ «نظرة عامة في العبادات».

8 ـ «فلسفتنا»: وهو دراسة موضوعية في معترك الصراع الفكري القائم بين مختلف التيارات الفلسفية، وخاصة الفلسفة الإسلامية والمادية والديالكتيكية الماركسية.

9 ـ «إقتصادنا»: وهو دراسة موضوعية مقارنة، تتناول بالنقد والبحث المذاهب الإقتصادية للماركسية والرأسمالية والإسلام، في أسسها الفكرية وتفاصيلها.

10 ـ «الأسس المنطقية للاستقراء»: وهي دراسة جديدة للاستقراء، تستهدف اكتشاف الأساس المنطقي المشترك للعلوم الطبيعية وللإيمان بالله تبارك وتعالى.

11 ـ «رسالة في علم المنطق»: اعترض فيها على بعض الكتب المنطقية، ألفها وهو في الحادية عشرة من عمره.

12 ـ «غاية الفكر في علم الأصول»: يتناول بحوثاً في علم الأصول بعشرة أجزاء، طبع منه جزءً واحداً، ألفه عندما كان عمره ثماني عشرة سنة.

13 ـ «المدرسة الإسلامية»: وهي محاولة لتقديم الفكر الإسلامي في مستوى مدرسي ضمن حلقات متسلسلة صدر منها:

أ ـ «الإنسان المعاصر والمشكلة الإجتماعية».

ب ـ «ماذا تعرف عن الإقتصاد الإسلامي»؟

14 ـ «المعالم الجديدة للأصول»: طُبع سنة 1385 ه ـ لتدريسه في كلية أصول الدين.

15 ـ «البنك اللاربوي في الإسلام»: وهذا الكتاب أطروحة للتعويض عن الربا، ودراسة لنشاطات البنوك على ضوء الفقه الإسلامي.

16 ـ بحوث في شرح العروة الوثقى: وهو بحث استدلالي

بأربعة أجزاء، صدر الجزء الأول منه سنة 1971.

17 ـ «موجز أحكام الحج»: وهو رسالة عملية ميسرة في أحكام الحج ومناسكه، بلغة عصرية صدر بتاريخ 1975.

18 ـ «الفتاوى الواضحة»: رسالته العملية، ألفها بلغة عصرية وأسلوب جديد.

19 ـ «بحث فلسفي مقارن بين الفلسفة القديمة والفلسفة الجديدة»: ألفه قبيل استشهاده ولم يكمله، تحدث فيه حول تحليل الذهن البشري. ومن المؤسف جداً أن هذا الكتاب مفقود ولا يعرف أحد مصيره.

20 ـ «بحث حول الولاية»: أجاب السيد في هذا الكتاب عن سؤالين، الأول: كيف ولد التشيع؟ والثاني: كيف وجدت الشيعة؟

21 ـ تعليقه على الرسالة العملية لآية الله العظمى السيد محسن الحكيم، المسماة «منهاج الصالحين».

22 ـ تعليقه على الرسالة العملية لآية الله العظمى الشيخ محمد رضا آل ياسين، المسماة «بلغة الراغبين».

23 ـ «المدرسة القرآنية»: وهي مجموعة المحاضرات التي ألقاها في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

ـ أقوال العلماء فيه:

قال فيه صاحب كتاب «أعيان الشيعة»: هو مؤسس مدرسة فكرية إسلامية أصيلة تماماً، اتسمت بالشمول من حيث المشكلات

التي عنيت بها ميادين البحث، فكتبه عالجت البُنى الفكرية العليا للإسلام، وعنيت بطرح التصور الإسلامي لمشاكل الإنسان المعاصر. مجموعة محاضراته حول (التفسير الموضوعي) للقرآن الكريم طرح فيها منهجاً جديداً في التفسير، يتسم بعبقريته وأصالته.

ـ اغتياله:

بعد أن أمضى عشرة أشهر في الإقامة الجبرية، تم اعتقاله في 5/ 4 / 1980م.

وبعد ثلاثة أيام من الاعتقال اغتيل السيد الصدر بنحو فجيع مع أخته بنت الهدى.

وفي مساء يوم 9/ 4/ 1980م، وفي حدود الساعة التاسعة أو العاشرة مساءً، قطعت السلطة البعثية التيار الكهربائي عن مدينة النجف الأشرف، وفي ظلام الليل الدامس تسللت مجموعة من قوات الأمن إلى دار المرحوم حجة الإسلام السيد محمد صادق الصدر ـ أحد أقربائه ـ وطلبوا منه الحضور معهم إلى بناية محافظة النجف، وكان بانتظاره هناك مدير أمن النجف، فقال له: هذه جنازة الصدر وأخته، قد تم إعدامهما، وطلب منه أن يذهب معهم لدفنهما، فأمر مدير الأمن الجلاوزة بفتح التابوت، فشاهد السيد محمد صادق الشهيد الصدر مضرجاً بدمائه، وآثار التعذيب على كل مكان من وجهه، وكذلك كانت الشهيدة بنت الهدى. وتم دفنهما في مقبرة وادي السلام، المجاورة لمرقد الإمام علي عليه السلام في النجف الأشرف.

صلاح البيطار

(1912 - 1980)

هو صلاح خير سليم البيطار، ولد عام 1912 في حي الميدان في دمشق لأسرة عريقة ملتزمة بالعقيدة الإسلامية، جده الشيخ سليم البيطار الملقب بالفرضي، وقد ولد له أربعة ذكور وهم: الشيخ خير والد صلاح البيطار، والشيخ محمد وكان يشغل منصب أمين عام الفتوى في دمشق، والشيخ عبد الغني ويسمى الشافعي الصغير، والرابع الشيخ عبد الرزاق مؤلف كتاب «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر الهجري».

درس صلاح البيطار في مدارس دمشق، وعندما أنهى المرحلة الثانوية اتجه إلى فرنسا لإكمال تعليمه الجامعي في جامعة «السوربون» وتخصص في الفيزياء، وهناك التقى ميشيل عفلق وانجرف في التيار الشيوعي الذي اختاره عفلق فجمعتهما المبادئ الإشتراكية الفرنسية، وبدأت بينهما صداقة وثيقة، مدعومة بالمبادئ الغربية التي اعتنقاها.

في العام 1934 عاد البيطار إلى دمشق بعد إنهاء دراسته، فعين مع ميشيل عفلق في مدرسة التجهيز الكبرى، فدرّس علم الفلك

والفيزياء بينما درّس عفلق مادة التاريخ، وقد استغل كل منهما أعمال التدريس للدعاية للفكر الإشتراكي، فقامت ضدهما ضجة كبيرة، من قبل الطلاب، وانتقلت إلى صفوف علماء الدين، ومع تصاعد ردود الفعل منعت الجهات الحكومية أي نشاط لهما وبذلك سدت الأبواب في وجهيهما فعمدا إلى تقديم استقالتيهما من التدريس[1].

بعد أن قدم صلاح البيطار وعفلق استقالتيهما، اختارا أن يكون مقرهما في مقهى الطاحونة الحمراء، القريبة من مدرسة التجهيز ليتسنى لهما الالتقاء بالطلاب كل يوم بعد ساعات التدريس لتطعيمهم بالأفكار الإشتراكية، كما أسسا مجلة أسمياها «الطليعة» لنشر مبادئهما.

في العام 1939 أسس البيطار وعفلق منظمة سرية كانت تحمل اسم «الإحياء العربي» وتحولت فيما بعد إلى حزب البعث العربي، واستمرت تعمل بالخفاء حتى العام 1946م حيث أصبح حزب البعث حقيقة قائمة، وأصدر المؤسسان صحيفة خاصة باسم «البعث». وعقد الحزب أول مؤتمراته في العام 1947، حيث تم انتخاب صلاح البيطار عضواً في القيادة القومية باعتباره المؤسس الثاني لحزب «البعث» بعد ميشيل عفلق عميد الحزب. وفي العام 1948م سجن صلاح البيطار خارج مدينة دمشق، بسبب معارضته تجديد رئاسة شكري القوتلي للجمهورية السورية.

---

(1) **«الموسوعة التاريخية الجغرافية»**، مسعود الخوند، لبنان، 1997، الجزء العاشر، ص 220 ـ 221.

في العام 1949 اعتقله الرئيس حسني الزعيم مع باقي أعضاء القيادة القومية للحزب، بسبب معارضتهم لبعض سياساته، وفي العام 1952م أصدر أديب الشيشكلي أمراً باعتقال صلاح البيطار مع رفيقه عفلق وأكرم الحوراني بسبب تحريضهم للطلاب الجامعيين على مناهضة حكمه، لكنهم استطاعوا مغادرة دمشق سرّاً إلى بيروت ثم توجهوا منها إلى روما.

في 14/ 6/ 1956م في عهد شكري القوتلي عُيّن صلاح البيطار وزيراً للخارجية في حكومتي صبري العسلي الثالثة والرابعة، وبعد قيام الوحدة في 22/ 2/ 1958م بين سوريا ومصر عُيّن البيطار نائباً لرئيس الجمهورية العربية المتحدة جمال عبد الناصر، وكان من الموقعين على وثيقة الانفصال عام 1961م مشاركة منه في الحكم السوري الجديد، لكنه ما لبث أن تراجع عنها لأنها ضد وحدة النضال في الوطن العربي.

بعد وصول البعث إلى الحكم في 8 آذار/ مارس 1963، تولى صلاح البيطار رئاسة الوزراء أربع مرات، وإثر قيام حركة 23/ 2/ 1966 التي قام بها صلاح جديد اعتقل البيطار لكنه استطاع الفرار إلى لبنان، فصدر حكم غيابي بإعدامه عام 1969، وبعد الحركة التصحيحية التي قام بها الرئيس حافظ الأسد عام 1970م عفي عن البيطار فعاد إلى سورية لفترة قصيرة، ثم ما لبث أن سافر إلى فرنسا حيث استقر في باريس.

في كانون الثاني/ يناير عام 1978 استدعاه الأسد الذي كان يأمل في أن يستقر البيطار في دمشق كثقل مضاد لعفلق المؤسس الأول

لحزب «البعث» والذي استقر في بغداد، لكن خمس ساعات من المحادثات فشلت في رأب الصدع بينهما، فعاد البيطار إلى باريس وأنشأ مجلة دورية أطلق عليها اسم «الإحياء العربي»، وهو الاسم القديم الذي بدأ به، شن في أعمدتها حملات للمطالبة بالحريات العامة والديمقراطية وحقوق الإنسان في سورية[1].

بعد ذلك أُشيع أن صلاح البيطار كان يضغط على السعوديين ليقطعوا المعونة عن سورية، والأسوأ من ذلك ما قيل بأن البيطار قد اتصل بأعداء الأسد في بغداد، وبغيرهم من أصحاب الأسماء ذات الماضي والتي كان بريقها يخبو، بحيث أصبح نقطة جذب لأنواع مختلفة من المعارضة السورية، وقد بدا في إحدى اللحظات أن البيطار يمكن أن يشكل خطراً حقيقياً على النظام في سورية، مما دفع السلطات الأمنية في سورية إلى اغتياله بمسدس كاتم للصوت في باريس في 21 تموز/يوليو عام 1980.

وبعد موته نَقلت زوجته جثمانه ليدفن في بغداد، حيث بحثت عن ملجأ وسط أعداء حافظ الأسد الألداء.

وعلى الرغم من مكانته الحزبية لم يترك البيطار تراثاً فكرياً كما فعل صديقه عفلق، الذي اعتبر بحق الأب الفكري لحزب «البعث» على نزاع على هذا الموقع بينه وبين زكي الأرسوزي، ولقد أدرك صلاح البيطار متأخراً جداً المأزق الذي شارك في دفع القطر العربي السوري إليه، بتفكيره المثالي خارج إطار التاريخ

(1) «ذاكرة عربية للقرن 1900 ـ 2000»، حسن السبع، المركز العربي للمعلومات، بيروت، 2000، ص 105.

والجغرافيا. وظل عداء البيطار للإسلام على الرغم من خلفيته الأسرية ملمحاً عاماً من ملامح شخصيته، فمع أن اسمه الحقيقي الذي سماه به أبوه هو صلاح الدين البيطار إلا أنه كان يؤثر أن يسمي نفسه صلاح البيطار متخففاً من السمة الدينية في اسمه على عكس زميله عفلق الذي تكنى بأبي محمد، وسمى ابنه باسم الرسول الكريم، ناهيك عما يقال عن إسلامه في آخر عمره[1].

(1) «دولة البعث وإسلام عفلق»، مطبع النونو، الطبعة الأولى 1994، ص 66 ـ 99.

رياض طه

(1927 ـ 1980)

ـ سيرة رياض طه:

ولد رياض طه في بلدة الهرمل ـ البقاع في ربيع العام 1927. انتسب إلى الكلية اليسوعية في حمص خريف العام 1938، ولم يلبث أن هرب منها وانتقل ليلاً بالقطار إلى رأس بعلبك، ثم مشى إلى الهرمل حاملاً حقائبه. ولكن والده ضربه وأعاده إلى الكلية فتابع دراسته فيها بعد أن انسجم مع جوّها الدراسي.

أولع بالأدب والصحافة عندما كان تلميذاً صغيراً فنظم الشعر باللغتين العربية والفرنسية في الثانية عشرة من عمره، وأصدر ثلاث مجلات وهو طالب ثانوي، واحترف الصحافة قبل أن ينهي دراسته الجامعية.

عام 1947 أنشأ مجلة سياسية أطلق عليها اسم «أخبار العالم» وأخذ يكتب سلسلة مقالات ضد الإقطاعية والإجرام وبيع الوظائف والسمسرة والإثراء غير المشروع، فتعرض لمحاولة اغتيال.

ثم نشر مقالاً عنيفاً بعنوان «خصمي وحاكمي» كان كافياً لأن

يصدر قرار من مجلس الوزراء بتعطيل الصحيفة إلى أجل غير مسمى. ألّف سبعة كتب في الأدب والسياسة هي: «شفتان بخيلتان»، «في طريق الكفاح»، «فلسطين اليوم لا غداً»، «محاضر محادثات الوحدة»، «قصة الوحدة والانفصال»، «أخطاء الحرية وخطايا الاستبداد» و«الإعلام والمعركة».

له العديد من المحاضرات حول الحريات والقضايا الصحافية.

في حرب فلسطين التحق بالجيوش العربية كمراسل حربي، بلباس ضابط وبقي في جبهة القدس وباب الواد، حتى أعلنت الهدنة. وراسل جميع الصحف الكبيرة من خط النار.

في 7 شباط/ فبراير 1949 أصدر أول وكالة أنباء محلية في لبنان والشرق الأوسط باسم «مكتب أنباء لبنان» ثم باسم «وكالة أنباء الشرق».

في 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1950 أصدر مجلة «الأحد» وفي العام 1958 أصدر جريدة «الكفاح» اليومية. وفي أول حزيران/ يونيو عام 1961 أصدر مجلة «الأفكار العالمية»، باللغة الفرنسية، في جنيف، وهي المجلة العربية الوحيدة التي صدرت آنذاك في أوروبا لتدعو للفكر اللبناني والعربي وتوزع في مختلف القارات.

عام 1952 جرت محاولة فاشلة لاغتياله، فدخل المستشفى لتضميد جراحه وقد تبنت نقابة الصحافة المقال الذي سبب الاعتداء، ونشرته في سائر الصحف لتردع الزعماء الذين يلجأون إلى هذا الأسلوب في الرد على الصحافيين.

عام 1955 دخل السجن من أجل مقالات اعتبرت ماسة بالسلطات واعتدى مجهولون على مكاتبه فنهبوا أوراقها وبعثروا موجوداتها.

عام 1958 عطلت «الكفاح» أربعة أشهر، واعتُدي على مطابعها فتوقفت عن العمل وتضررت.

أثّر رياض طه في منطقته. وبات رائد التحرر الإجتماعي فرشحه شباب الهرمل للنيابة عام 1952 غير أنهم اضطروا إلى سحب ترشيحه تحت ضغط الظروف العشائرية والمادية.

في انتخابات العام 1957 ترشح عن منطقة بعلبك الهرمل وخاض المعركة منفرداً ضد قائمتين كبيرتين إحداهما موالية والثانية معارضة، لكن الظروف السياسية أرغمت أصدقاءه على سحب ترشيحه لتأمين فوز القائمة المعارضة فنجحت، وأصدرت بياناً تشهد بفضله وتعلن أنه رفض استعادة نفقاته الانتخابية.

في انتخابات العام 1960 كان لرياض طه دور مهم في تأليف «لائحة التحرر» التي فاز أربعة من أعضائها بالنيابة وفشل ثلاثة فقط بينهم رياض نفسه، وقد شنّ حملة عنيفة أعلن فيها أن النتائج لم تكن صحيحة، وإن فشله مع رفيقيه لم يكن طبيعياً.

انتخب نقيباً للصحافة للمرة الأولى سنة 1967 وبقي حتى يوم اغتياله في 23 تموز/يوليو 1980. متزوج وله ستة أولاد.

في رأي رياض طه، أعظم المزايا الخلقية هي: الوفاء، الكرم، الشهامة. وأعذب اللذات في عرفه هي لذة إسعاد الآخرين.

ـ اغتياله:

في 23 تموز/يوليو عام 1980، وبعد أربعة أشهر تقريباً على اغتيال سليم اللوزي، عادت أيدي الشر والإجرام لتنال من نقيب الصحافة اللبنانية رياض طه، عندما اعترض سيارته مسلحون، يستقلون ثلاث سيارات في منطقة الروشة في بيروت، وأطلقوا النار عليه، وفروا إلى جهة مجهولة، وأدت العملية إلى مقتل طه، مع مرافقه سهيل خضر الساحلي. واعتبر جهاد طه ـ نجل رياض طه ـ: «. . . إن اغتيال رياض طه في وضح النهار، رمياً بالرصاص، كان المطلوب منه القضاء على الرجال الشرفاء، الذين يريدون وحدة الوطن واستقراره». . .

ـ ظروف اغتيال رياض طه:

ـ جهاد رياض طه متحدثاً عن والده الشهيد[1]:

«ـ نجح في محاولة التقريب بين الكويت والعراق في الستينيات وحاول التقريب بين سوريا والعراق.

ـ كان مؤمناً أن القوى العربية إذا ما اتحدت ستكون قوة ذات شأن.

ـ لم يكن بعثياً عراقياً بل كان مؤيداً للحزب القومي والتحق بالتيار الناصري بعد ثورة تموز/يوليو.

ـ تلقيت اتصالاً من جهاز أمن الـ 17 بأنهم ألقوا القبض على الجناة ولما عاودت الاتصال بهم أنكروا معرفتهم بأي تفاصيل.

---

(1) «الشراع»، حوار حسن صبرا، في 29 أيار/مايو 2005.

- المطلوب ألا يكون هناك قيادة شيعية عروبية مستقلة ورياض طه من الذين لا يقبلون الانصياع، لذلك تمت تصفيته.

- أضع جريمة الاغتيال في إطار الصراع بين سوريا وإيران من جهة وبين العراق والفلسطينيين من جهة ثانية.

- قابلنا خدام بعد الجريمة فعاملنا بتعالٍ وكانت الزيارة غير مريحة.

- تمّ التعرض للجنازة بالتوقيف وإطلاق النار، وكان هناك استنفار مسلح عند مدخل المخيم الفلسطيني.

- سليم الحص ومروان حمادة لم يستطيعا إكمال الطريق إلى الهرمل فبقيا في بعلبك لمتابعة تهدئة الوضع.

- عناصر لحركة أمل وعناصر فلسطينية من منظمات محسوبة على سوريا كانت تريد افتعال مشكلة خلال التشييع.

- خلال التشييع اعتقلوا أشخاصاً أبرياء وتركوا الذين أثاروا الشغب.

- كان موضوع رياض طه محظوراً وقد حاولنا إطلاق اسمه على أحد شوارع بيروت فحصلنا على موافقة بعد 15 عاماً.

- في عهد الحص شكّلت لجنة تخليد رياض طه لم يكتب لها الاستمرار بسبب التوصيات الباطنية».

خمسة وعشرون عاماً مضت على استشهاد نقيب الصحافة اللبنانية رياض طه في 23 تموز/يوليو 1980، الذي ترافق اغتياله مع اغتيالات أخرى تداخلت فيها الصراعات والتناقضات بين أجهزة الأمن التابعة لمختلف الدول على الساحة اللبنانية، منها التناقض

السوري ـ العراقي والتناقض العراقي ـ الإيراني الذي انفجر حرباً، فمن اغتاله؟ وقد كان من الساعين لتقريب وجهات النظر على الصعيد العربي وعلى الساحة اللبنانية.

وفي حوار لمجلة «الشراع» (2005) يقول ابن الشهيد جهاد طه الذي سئل عن الظروف المحيطة باغتيال والده في ذلك الوقت ومن هي الجهة المسؤولة عن ذلك.

*** قريباً الذكرى الخامسة والعشرون، أي ربع قرن على استشهاد النقيب رياض طه، هل تضعنا في الأجواء السياسية التي سبقت جريمة الاغتيال، خصوصاً وإن النقيب الشهيد كان عائداً لتوه ربما قبل شهر من العراق، وكان قد طرح برنامجاً للحوار بين سوريا والعراق، حيث كانت حرب (داحس والغبراء) بين النظامين البعثيين يومها؟!**

ـ كان رياض طه ومنذ مطلع شبابه يحاول رأب الصدع في الصف العربي، وكان في أواخر الستينيات قد نجح في محاولة تقريب الكويت من العراق في ذلك الحين، بعد إستقلال الكويت، والأزمة التي حصلت حول إحتلال قاسم للكويت، وأمضى حياته في هذا الاتجاه، وقبيل اغتياله بالفعل، كان قد زار العراق محاولاً تقريب وجهات النظر بين سوريا والعراق، وسبق ذلك محاولات عدة مع الإخوة في سوريا في هذا الاتجاه وعلى أكثر من صعيد، وحتى حول وجودهم في لبنان وحول تنقية هذا الوجود ـ إن صح التعبير.

*** هل كان ينقل اعتراضات مثلاً، حول تجاوزات حصلت في لبنان؟**

- كان ينقل الاعتراضات، وفي عدة مقالات حاول تصويب الوضع.

*** أي الصحيفتين كان يصدر «الأحد» أم «الكفاح»؟**

- عندما كان نقيباً للصحافة امتنع عن إصدار أي مطبوعة، لكنه كان يكتب مقالاته في الصحف الأخرى، وكانت مقالاته تدور حول هذا الموضوع ومواضيع أخرى، وهنا لا أحدد التجاوزات السورية، بل والتجاوزات الفلسطينية أيضاً حيث كانت السلطة الفلسطينية في لبنان تشكل أيضاً شراكة مع سوريا.

ويبدو أن هذه الحالة من تقريب وجهات النظر، إن كان بين سوريا والعراق، أو بين الأفرقاء اللبنانيين أنفسهم، كانت مرفوضة من الوضع الإقليمي والدولي، ولذلك أتصور أنه في هذا الإطار وضع اسمه على لائحة التصفية.

*** تقصد أنه كانت هناك لائحة للاغتيالات؟**

- مما عشناه في ذلك الحين، أنه تم تصفية كل الذين كان لهم دور حواري نوعاً ما، إن كان على الصعيد المسيحي - الإسلامي، وعلى الصعيد السياسي بين الفرقاء الإقليميين أو كان على الصعيد الحزبي اللبناني الصرف، أو حتى على صعيد التقريب في وجهات النظر بين المقاومة الفلسطينية والأحزاب اللبنانية كافة، وهناك الكثير من الأمثلة.

*** يعني تضع اغتيال الشهيد النقيب طه ضمن اللائحة التي ضمت القائد الشهيد كمال جنبلاط؟**

ـ نعم . .

*** وفيما بعد المفتي حسن خالد؟**

ـ صحيح والشيخ صبحي الصالح . .

*** ونهاية بالشهيد الرئيس رفيق الحريري؟**

ـ يحتمل أن الوضع مع الشهيد رفيق الحريري كان مختلفاً نوعاً ما، لأنه في ذلك الحين كان المطلوب من لبنان كما يقول الأميركيون «منطقة عدم استقرار في الشرق الأوسط».

*** من كان يريد هذه الحالة؟**

ـ هذه الحالة كانت مفروضة تبعاً لطبيعة الصراع السوفياتي ـ الأميركي وكان المفروض أن تكون هناك منطقة عدم استقرار، يتم فيها خلط الأوراق.

*** لتصفية الصراع العربي ـ الصهيوني أيضاً؟**

ـ طبعاً، أو إشغال المنطقة بحروب صغيرة لإبعادها عن حروب كبيرة، أو الموضوع الرئيسي الذي من أجله تتخبط هذه المنطقة.

اغتيال الشهيد النقيب ترافق مع اغتيالات أخرى حصلت في لبنان، ذات طبيعة واحدة، بمعنى اغتيال من كانوا محسوبين على البعث العراقي أو التيار القومي العربي القريب من العراق. يومها اغتيل السيد حسن الشيرازي، واغتيل الشاعر القومي البعثي موسى

شعيب، ود. عدنان سنو، عبد الوهاب الكيالي، اغتيلت مجموعة قيادات بعثية. هل لهذه الاغتيالات علاقة بالنزاع الذي انتقل إلى حرب عراقية - إيرانية، أم هو في إطار الصراع السوري - العراقي؟ وهنا أريد أن أصحح أن كل هذه الاغتيالات وغيرها، كاغتيال السفير الفرنسي، ومعظم الاغتيالات التي حصلت في تلك الفترة كانت مربوطة بعملية عدم الاستقرار المطلوب في المنطقة، رياض طه لم يكن بعثياً عراقياً، رياض طه بدأ حياته مؤيداً للحزب السوري القومي الإجتماعي في منطقة الهرمل، لأنه رأى فيه أنه حزب علماني يتطلع إلى ترابط الأوصال العربية ومن ثم ابتعد شيئاً ما عن الحزب، ولحق بالتيار الناصري بعد ثورة يوليو وجمال عبد الناصر، وكان خط الترابط العربي هو هاجسه، وبالتالي فهو ليس محسوباً على العراق ولا على الناصرية بالتحديد، إنما كان هو رجل يحاول جهده لرأب هذا الصدع وتمتين الأواصر العربية، لأنه كان مؤمناً بأن القوى العربية إذا ما اتحدت سوف تكون قوة ذات شأن وأن الذي يجمع كل العرب لغوياً يجمعهم أيضاً عقائدياً، لم يعتبر رياض طه أن صلة الوصل بين العرب هي اللغة فقط إنما هو التاريخ والحضارة، وهي أشياء من الصعب تفكيكها، أردت أن أصحح هذا الموضوع.

إنما في العام 1980 حصلت عمليات اغتيال كثيرة، وكان المسؤولون عن الأمن في لبنان معروفين، ولذا فإن نسبة الاغتيالات المحسوبة على البعث العراقي كانت أكبر.

*** هل لهذه الاغتيالات صلة، يومها بالتناقض السوري ـ العراقي ثم بالتناقض العراقي ـ الإيراني الذي انفجر حرباً والشهيد رياض طه استشهد يوم 23 تموز/ يوليو 1980، الحرب العراقية ـ الإيرانية، اندلعت يوم 20 أيلول/ سبتمبر في العام نفسه، أي قبل شهرين. كانت هناك مقدمات واستتبعتها اغتيالات لقيادات قومية عربية وكما ذكرنا، عبد الوهاب الكيالي، وموسى شعيب وكثيرين من التيار القومي البعثي أو من المحسوبين على العراق؟**

ـ طبعاً، حرب العراق مع إيران، كانت حرباً ذات شأن وحرباً تركت آثارها وقسمت العرب إلى أفرقاء، وتركت آثاراً مؤلمة على الأمة العربية، بدلاً من أن يكون تحرير إيران على يد الإمام الخميني خطوة إيجابية، أضحت خطوة سلبية بموجب هذه الحرب.

*** للدقة، هي لم تقسم العرب، كان هناك إجماع عربي ضد إيران، ودعم العراق، لم تشذ عنه سوى سوريا، وانعكس هذا الأمر على الساحة اللبنانية كما ترى.**

الشهيد النقيب كان قدم مشروعاً للمصالحة بين سوريا والعراق قبل شهر واحد من اغتياله، وكان عائداً لتوه من العراق. هل ترى ربطاً بين هذا وبين عملية الاغتيال. هل أن سوريا تضايقت من هذا المشروع أم أن هناك من هو متضرر من التقارب السوري ـ العراقي؟

ـ لا أعتقد أن سوريا الرسمية، كانت من المتضررين إنما الحالة التي كانت موجودة في لبنان والتي ما زلنا نعيش رواسبها اليوم

هي التي كانت متضررة، أستطيع أن أجزم أن الرئيس حافظ الأسد كان على دراية بالموضوع، وكان مباركاً لهذا الحوار، لأن حسب اعتقادي وحسب معرفتي بوالدي لم يكن ليقوم بأي خطوة تلقى معارضة عند أحد الفرقاء، هذا ما حصل في أواخر الستينيات مع العراق والكويت إذ استأذن وقتها أمير الكويت قبل القيام بالمبادرة، وأعتقد أنه لم يغير من سياسته في هذا الاتجاه حين تطرق إلى موضوع العراق..

*** هل استأذن سوريا؟**

ـ أنا أكيد من هذا الأمر، لم يكن ليقوم بهذه المهمة لو لم ير الضوء الأخضر من الرئيس السوري، لأنه قبل هذه الزيارة بعدة أسابيع كان له لقاء مطول مع الرئيس حافظ الأسد حيث استقبله لحوالي ساعتين، وكان الكلام يدور حول عدة أمور، ومنها على ما اعتقد التقارب بين حزبي البعث، ومنها ما يدور على الساحة اللبنانية من تجاوزات ولم يكن مستاءً من هذه الزيارة، بل كان مرتاحاً.

*** كما آخر زيارة لكمال جنبلاط عند الرئيس الأسد؟**

ـ لا أدري إذا جازت المقارنة فقد كانت في وقت الزعيم جنبلاط دواعي حرب، أما في وقت والدي فكانت دواعي سلم.

*** هل ترك الشهيد شيئاً من مذكراته، وهل كتب شيئاً حول زيارته للرئيس الأسد؟**

ـ لم يكتب شيئاً تفصيلياً وإنما ترك رؤوس أقلام حول مباحثاته.

*** حول ماذا دارت المباحثات؟**

- التقارب الذي كان مطلوباً على صعيد إعادة، نوعاً ما، رسم العلاقة على أسس جديدة، وخاصة حول الأمور الأساسية، والمصالح المشتركة وحول وضع صيغة للنهوض، كان العراق يحتذى به من حيث القوة والمناعة والاستقرار والاكتفاء الذاتي.

أنا لست على علم بكل التفاصيل إنما كان والدي يرى في العراق قدوة، وإن كان من خلافات كان يستعد لتذليلها.

*** التقى الرئيس الأسد قبل هذه الزيارة ثم التقى في العراق بالرئيس صدام حسين، هل رشح شيء عن ردة فعل الرئيس صدام حسين على ما طرح في لقائه مع الرئيس الأسد؟**

- ليس بالتفصيل، كان والدي راضياً وهذا الشعور لا يفصحه دائماً بتفصيله إنما كانت حالة.

*** رغم هذه الوساطة قتل الرجل واندلعت الحرب العراقية - الإيرانية ووقفت سوريا مع إيران ضد العراق وهذا دليل على أن هذه المباحثات لم تؤد إلى نتيجة؟**

- يقال أن في عالم الأمن، كيان منفصل عن كل الكيانات نحن نعلم أنه بغض النظر عن الخلافات التي تحصل بين البلدان، إن عالم الأمن لهذه البلاد المتناحرة منسق ولذا أعتقد أنه الكيان الوحيد في العالم الذي يحظى بشيء متفق عليه دولياً اسمه الملاذ الآمن، أي إن أي عميل كان، إن كان أميركياً أو سوفياتياً أو بريطانياً، عندما تنتهي مهمته يحق له بملاذ آمن

معترف به من جميع الدول، ومن الممكن أن يلتقي في هذا الملاذ بعميل كان يعمل ضده، لذا فإن عالم الأجهزة الأمنية عالم منغلق على نفسه ويشكل حالة ارتباط متينة، بشكل أنه لا يصح دائماً إن أجهزة الأمن تعمل لمصلحة السلطة السياسية التي أنشأتها.

*** هناك سؤالان، أولاً بين أجهزة الأمن المعنية مباشرة بهذه الواقعة أو بهذه الجريمة، في لبنان سورية وعراقية وفلسطينية وإيرانية، من تعتقد أن له مصلحة في التخلص من رياض طه؟**

- لا استطيع أن أجزم ولكنني سأشرح حادثة حصلت في يوم الجريمة حوالي السادسة والنصف بعد ذهابنا إلى الجهات القضائية لتقديم الإدعاء، وكانت جريمة الاغتيال حصلت في الساعة الحادية عشرة من قبل ظهر ذلك اليوم، إذ وردني اتصال هاتفي ممن كان يدعى جهاز الـ «17» (وهو الجهاز الأمني الفلسطيني التابع لأبي عمار) من قيادة العمليات الأمنية التابعة لأبي عمار يقول أنه عثر على سيارة الفيات التي شاركت في الجريمة وتم اعتقال من كان في داخلها وسألونا ما هو المطلوب؟ ونحن كنا ما زلنا تحت وقع الكارثة ولم يكن الذهن صافياً بالشكل المطلوب.

*** بمن اتصلوا؟**

- اتصلوا بي شخصياً في المكتب، ونحن كما تعلم عندما اندلعت الحرب في لبنان كان مكتبنا في مبنى العازارية الذي كانت تقع فيه نقابة الصحافة. وعندما هُجرنا قام والدي بنقل

كل المستندات والملفات من النقابة ومن مكتب «الكفاح» و«الأحد» إلى مبنى في الروشة حيث تم استئجار شقتين متلاصقتين للنقابة وللمجلة. وبالتالي كنت قد عدت من مخفر الشرطة وتلقيت هذا الاتصال، فلم أستطع اتخاذ القرار المناسب، هل عليّ الاتصال بمخفر حبيش وأبلغهم؟ أم ماذا؟.. طلبت منهم التريث لبضع دقائق وأخذت رقم هاتفهم لأعاود الاتصال بهم، وعندما أعدت الاتصال بهم على رقم الهاتف الذي زودوني به، أنكروا معرفتهم بأي تفاصيل، ويبدو أن تعليمات مختلفة قد وصلتهم، وهذه الفترة كانت عشرين دقيقة.

*** يعني من أبلغكم أن هناك معتقلين هم أمن الـ «17» التابع لأبي عمار، وبعد عشرين دقيقة..**

ـ لم يعد هناك أثر لأي معلومة.

*** هل حاولتم التأكد فيما بعد أن أمن الـ «17» هو من اتصل؟**

ـ كان الاتصال أكيداً من أمن الـ «17» وأنا أعرف المتصل.

*** أحد ضباط ياسر عرفات؟**

ـ نعم.

*** ما اسمه؟**

ـ...

*** هل كان من القيادات المعروفة؟**

ـ نعم كان من القيادات المعروفة.

*** ماذا تعني لك هذه الواقعة؟**

ـ إذا فكرنا فيها ملياً تعني أن الفلسطينيين لم يكونوا في الصورة وإلا لما اتصلوا.

*** أنت أخرجت الآن الفلسطينيين من هذا الموضوع؟**

ـ لا أعتقد أن للفلسطينيين علاقة في هذا الموضوع.

*** يبقى الأطراف الباقية سوريا، العراق وإيران.. هل تعتقد أن أحد هذه الأجهزة الأمنية نفذ هذه العملية دون الرجوع إلى أي سلطة سياسية في وطنه؟**

ـ أؤكد أن هذه العملية نُفذت دون العودة إلى السلطة السياسية، لأنه من غير المعقول، وفق ما نعرف عن الشهيد، ووفق سيرته، من غير المعقول أن يكون القرار سياسياً. ومن البديهي أن يكون القرار ذا صلة بالارتدادات الأمنية والترتيبات الأمنية.

*** تبادل الخدمات الأمنية؟**

ـ نعم.

*** ألا تعتقد أن شيعية رياض طه، رغم أنه قومي عربي يعني كان قومياً سورياً ثم ناصرياً ثم بعثياً، يعني بقي في الإطار العروبي العلماني، هل تعتقد أن شيعيته استفزت من أراد التخلص من هذا العروبي الشيعي؟**

ـ لن أقول استفزت.

*** أو لم تعجب مثلاً؟**

ـ المطلوب ألا يكون هناك قيادة شيعية عروبية مستقلة قادرة على إبداء الرأي دون الانصياع. ورياض طه لم يكن من الرجال الذين يقبلون بالانصياع. لذا أتصور أنه في هذا الإطار تمت تصفيته، لأنه رجل لا مآخذ عليه من الناحية العربية، سوى أنه عروبي. ثانياً لديه مبادئ لا يساوم عليها وبالتالي من الصعب ترويضه. في هذا الإطار وفي تلك المرحلة كان من أبرز رجال الشيعة العروبيين.

*** هل تلقى نصائح أو إشارات قبل الاغتيال بهذا الدور الذي كان يتصدى له، مع أو ضد؟!**

ـ لست على علم بأي تهديدات.

*** نصائح؟**

ـ رياض طه كان يسدي النصائح لأصدقائه السياسيين والصحافيين في تلك المرحلة.

*** أقصد نصائح أمنية كما كانت تأتي للشهيد المفتي حسن خالد؟**

ـ لست على علم بأي نصيحة. إنما كنا في تلك المرحلة، وأقصد عائلته وأصدقاءه كانت لدينا مخاوف لم تكن مبررة لأننا لم نكن نرى الأمور كما كان يراها هو. إنما نحن في تهجماته في المقالات وفي خطاباته وخاصة في خطاب الأونيسكو بعد زيارته لليبيا.

*** ماذا قال؟**

- حول موضوع إخفاء السيد موسى الصدر. كنا نخاف عليه.

*** ممن؟**

- من كل الذين لا يعجبهم هذا الخطاب، وفعلاً خفنا عليه جداً عند سفره إلى ليبيا. ومكثنا طوال رحلته التي استمرت أربعة أيام في ليبيا متخوفين من حدوث أي مكروه له. لأن رحلته لم يكن لها أثر إيجابي أو سلبي. لأنه في تلك الرحلة لم يستطع أن يصل إلى نتيجة قاطعة أو إلى دليل حسي من خطف وماذا حل بالسيد موسى الصدر. رغم انّه بعد عودته لم يكن مقتنعاً بكل الأجوبة التي تلقاها.

*** هل بقي في نفسه شك من أن الليبيين هم الذين خطفوه؟**

- طبعاً.

*** وهل جهر بهذا الكلام؟**

- خطاب الأونيسكو كان فيه كلام مبطن، حول هذا الموضوع أثار حفيظة الذين كانوا موجودين.

*** هكذا تدخل الاستخبارات الليبية التي كانت في لبنان في إطار الاتهامات؟**

- أنا أتهم كل شخص استفاد من هذا الغياب، ليس فقط الاستخبارات الليبية أو الأجهزة الأمنية الأخرى.

*** تحدثنا عن الأجهزة الأمنية السورية والعراقية والفلسطينية والإيرانية والآن الليبية. هل تعتقد أن هناك نقطة تقاطع بين هذه**

الأجهزة كما يوفرون لبعضهم الملاذ الآمن تتقاطع مصالحهم فيكلفون أحداً بعملية الاغتيال؟

- رجل مثل رياض طه لتتم عملية اغتياله، يجب أن تتقاطع عدة مصالح، ليس فقط المصلحة السورية أو العراقية أو. . أو. . يجب أن تتقاطع عدة مصالح على الصعيد التنفيذي وليس على الصعيد السياسي في رأس الهرم. لأننا نعلم أن من يقوم بهذا العمل فرق أمنية خاصة تقدم عليها، وهناك إشارات، وربما ليس هناك تعليمات.

*** إن هذا التوجه الذي يسير به رياض طه قد لا يعجب هذا النظام أو ذاك؟**

- قد يضر بالوضع الحالي. . قد يغير المعطيات. أنا لا أملك يقيناً ثابتاً بالجهة التي قامت بالتنفيذ. إنما في قراءة الأوضاع في تلك الأوقات استشف أن المستفيدين كثر.

*** في هذه الحالة أنت تضع جريمة الاغتيال في إطار الصراع بين سوريا وإيران من جهة وبين العراق والفلسطينيين من جهة ثانية.**

- صحيح.

*** على صعيد التحقيق، هل اتخذ التحقيق طابعاً سياسياً أم طابعاً جنائياً، لكي نستكمل الحوار حول هذه المسألة؟**

- المفارقة التي حصلت في ذلك الوقت أنه تم إخراج الجريمة بشكل تبعد الشبهات عن الجميع، ومن هنا أتوقع أن يكون المتورطون كثراً.

*** التضليل في هذه الجريمة يدل على الجهة التي قامت بجريمة الاغتيال.**

- تم الإخراج بشكل يتنافى مع طبيعة الحدث. تم إخراجها على أنها جريمة عشائرية وثأرية بناء على معطيات ليس لديها المكونات السليمة السياسية أو الإجتماعية، فقط ذريعة أمنية لحصول جريمة من هذا الحجم.

*** هل كان هناك صراع عشائري أو عائلي؟**

- لم يكن هناك أي صراع عائلي. كان هناك قبل الجريمة زمرة من الشباب العاطلين عن العمل والمنتمين إلى تيارات سياسية مختلفة، وكانوا يتوافقون في معظم الأحيان على ارتكاب السرقات والجرائم المختلفة، ثم اختلفوا فيما بينهم.

*** في أي منطقة؟**

- في منطقة الضاحية الجنوبية في الشياح.

*** هل شكلوا «دكاناً» أو حزباً؟**

- معظمهم كان ينتمي إلى قوات الحسين الانتحارية.

*** شكّلت هذه المجموعة على قاعدة الثأر من ليبيا بسبب إخفاء الإمام موسى الصدر.**

- وقيل أن هذا الغطاء، أما المضمون فنعرفه جميعاً.

*** يخطفون طائرات ويهددون بتفجيرات معينة وهم واجهة لجهة أمنية معينة..**

ـ وهم ينتمون إلى عائلات مختلفة في لبنان من الجنوب إلى البقاع. إنما الإخراج جرى، لأن أحدهم كان من آل طه، وفي خلاف ما حول غنيمة ما قُتل.

*** وكان من أقربائكم؟**

ـ نعم، كان من العائلة.

*** ألم يحتم بكم أو تشكلوا له غطاء؟**

ـ لا طبعاً. رياض طه كان من أوائل الأشخاص الذين حاربوا التفكير العشائري السلبي وحاول إظهار التفكير العشائري الإيجابي وكان من محاربي قضايا الثأر والقضايا التي تتعارض مع الإنسانية بشكل ما.

*** هل حصل نزاع بين أفراد هذه الكتيبة؟**

ـ نعم، حصل نزاع إذ اختلفوا على بعض الغنائم والسرقات وقتل هذا الشخص من آل طه وفي مرحلة أخرى قُتل شخص من آل الموسوي.

*** ليس شرطاً أن يكون قاتل طه من آل الموسوي، ولا قاتل الموسوي من آل طه؟**

ـ لا. لا علاقة لهذا الموضوع بذلك قطعياً. قُتلا على تقاسم الغنائم. ونحن اطلعنا على هذه الأمور في ملف التحقيق. ونتيجة لهذه الإشكالات وهذه الجرائم ورد في التحقيق أنه بناءً على ذلك قرر آل الموسوي الانتقام من آل طه واغتيال أهم رجل من هذه العائلة حسب العادات العشائرية.

*** هذه كانت تركيبة؟**

ـ أولاً لا عشائرياً قابلة للصرف، لأن العشائر عندنا عندما يقررون الانتقام يحددون الشخص ويقومون بعملهم في وضح النهار ولا يتخفون بعد الجريمة بل يجهرون بها، وليسوا مضطرين لإشراك العائلات الأخرى في الموضوع. نحن نعرف أن هذه الجريمة شارك فيها أكثر من عشرة أشخاص من عائلات من البقاع وبيروت والجنوب، وكأنها فرقة أمنية، وهذا ينفي صفة الثأر، ولكن كانوا من قوات الحسين الانتحارية، ومن المجموعة الأمنية التي كانت في حي المصبغة في منطقة الشياح.

*** وقتل من آل الموسوي.**

ـ أبو علي رشيد قُتل في اليوم التالي، ورتب هذا الأمر وكأنه رد، وقد قتل أبو علي في بلدته. وهنا يضاف إلى جريمة قتله، لأنها جريمة حتى ولو كان هو مجرم، صفة تنفي الثأر لأن عملية قتله جاءت لتغطية المشروع الذي كان يحاك حول هذه الجريمة، لأنه هو الذي كان يملك المعلومات.

*** أي أن قتله جاء لإخفاء معالم الجريمة؟**

ـ نعم، ولتضليل التحقيق. هو يعرف السر، وقد قُتل في اليوم التالي، ولم يقتله أحد من آل طه.

*** هل تعتقد أنه الجهاز الأمني الذي قتل رياض طه؟**

ـ الجهاز الأمني الذي كلف هذه المجموعة بقتل رياض طه هو الذي أخذ على عاتقه تصفية الأفراد الذين كانوا يملكون

المعلومات التي قد تؤدي إلى كشف الجريمة. نحن في ذلك الوقت رضينا بحكم القضاء.

*** وماذا كان حكم القضاء؟**

ـ القضاء حكم كل الأفراد الذين شاركوا بالجريمة بالإعدام.

*** هل اقتنعتم أن هؤلاء هم من ارتكب الجريمة لأسباب ثأرية؟**

ـ لا. نحن قبلنا بحكم القضاء لأنه لم يكن بالإمكان عمل شيء آخر بهذا المجال.. ولكننا لم نقتنع.

*** دائماً كانت قناعتكم أنها جريمة سياسية؟**

ـ نعم.

*** وبالتالي استخدم هذا الأسلوب القذر لتضليل التحقيق، كما حصل في جريمة اغتيال الرئيس رفيق الحريري، أن أحدهم سلفي أو آخر قادم من استراليا.**

ـ لم يكن لدينا من الحظ ما يكفي في تلك الفترة لطلب فتح تحقيق دولي، لأن الدول العظمى كانت مشاركة نوعاً ما في تأزيم الوضع في لبنان.

*** هل في بالكم الآن طرح قضية اغتيال الشهيد النقيب أمام لجنة التحقيق الدولية؟**

ـ الوضع مختلف، حتى لو أردنا طرح هذه القضية أمام المحكمة الدولية التي تديرها الدول العظمى، واليوم هناك دولة عظمى واحدة وبالتالي نحن لا نرى أي تقاطع في

مصلحة أميركا مع مصلحة إظهار الحق فعلاً. هذا المشروع إذا كنا نفكر به لا نرى له إمكانية لتحقيقه.

*** هناك تحسب شديد ألا يفتح المجال بعد التحقيق في جريمة اغتيال الرئيس رفيق الحريري، أن يشمل الآخرين بمعنى الاقتصار عليها، لأن هناك تعقيدات كثيرة ستطال جميع الأطراف، على الأقل الذين يطالبون بالتحقيق الدولي في جريمة اغتيال الرئيس الحريري، يريدون حصرها بهذا الأمر، ولكن اعتقد ان هذا الأمر باب فُتح ولن يستطيعوا إغلاقه.**

ـ هذا ما نأمل به.

*** أن يتوقف أم يتوسع؟**

ـ أن يتوسع التحقيق. لأن رياض طه ذهب ضحية لبنان، هذا الوطن يستحق أن يُضحى من أجله. إنما يجب أن تكون هناك نتيجة لهذه التضحية. وان لم تفتح الأبواب على مصاريعها لتحقيقات مماثلة للتحقيق في جريمة اغتيال الرئيس رفيق الحريري لن يتم بناء الوطن. لأن أول موجبات بناء الوطن هو المسؤولية، المساءلة والمحاسبة وإلا ليعينوا مجلس أعيان ويتصرفوا وكأن هذا المجلس المعين ولي أمور الناس وهو يرى لهم ما يناسبهم.

*** عودة إلى مسألة التحقيق بين الجنائي أو السياسي، تابعتم تفاصيل التحقيقات والحكم الذي صدر ولم تقتنعوا سياسياً ولا إنسانياً. فيما بعد حصلت مفارقة..**

ـ فيما بعد وقبيل حرب العلمين عام 1985 التي جرت بين

«الحزب التقدمي الإشتراكي» وحركة «أمل»، تم القبض على أحد المجرمين وأودع السجن.

*** من الذي قبض عليه؟**

ـ بالصدفة، ولا أريد الدخول في التفاصيل، إنما الذي جرى أن السلطات الأمنية اللبنانية اضطرت لتوقيفه وتبين أنه من المطلوبين ووضع في سجن بيروت. وحصلت المعركة بين الحزبين الوطنيين، (الحلف المعمد بالدم)، وطلبنا في ذلك الحين طلباً خاصاً من الرئيس أمين الجميل بنقل هذا المسجون من سجن بيروت إلى سجن رومية.

*** قبل هذه الفترة لم يتم اعتقال أحد؟**

ـ أبداً.

*** وكل الأسماء التي وردت كان قد صدر بحقها أحكام غيابية؟**

ـ جميعها.

*** وجميعهم من قوات الحسين الانتحارية ومن حي المصبغة في الشياح؟**

ـ جميعهم معروفون لدينا، ويتمتعون بالحرية التامة ويسافرون ويعودون، ومنهم من سافر إلى أفريقيا.

*** بين هلالين، حصل الاجتياح الإسرائيلي عام 1982 وتغيرت المعطيات والسلطات الجديدة، ألم يتم خلال هذه الفترة إمكانية فتح التحقيق وطرح الأسماء لإعادة اعتقالهم؟**

ـ الفترة بين العام 1980 والعام 1982 كانت فترة تأزم مستمر

وفوضى شاملة واغتيالات، وبعد الاجتياح حصلت جريمة اغتيال الرئيس بشير الجميل ثم حصلت مبايعة ديمقراطية لشقيقه الرئيس أمين الجميل، ولم تركن الدولة إلى مصالحها.

*** في هاتين السنتين حصلت عمليات أمنية شديدة، آلاف المخطوفين؟**

ـ وإنما تلك العمليات الأمنية الشديدة حصلت في اتجاه واحد لترويض الشارع، وليس في اتجاه معاقبة المجرمين.

*** وأين كان هؤلاء المجرمون؟**

ـ كانوا موجودين.

*** لماذا لم تتم ملاحقتهم؟**

ـ لست أدري.

*** أنتم معنيون في المطالبة بملاحقة هؤلاء؟**

ـ في تلك الفترة وبمبادرة منا تم القبض على أحدهم. ولا أريد الدخول في التفاصيل.

*** عرفتم مكانه وأرشدتم عنه؟**

ـ نعم وأرشدنا أجهزة الأمن، وتمت عملية استدراج للمجرم. ودخل المجرم إلى السجن. وطلبنا نقله إلى سجن روميه.

*** وماذا كان رد رئيس الجمهورية يومها، أمين الجميل؟**

ـ وعدنا.

*** علاقته كانت سيئة مع المحسوبين على سوريا لماذا لم يبادر إلى نقله، هل كانت هناك صفقة ما؟**

ـ حقيقة لا أدري.

*** عن طريق من كانت مخاطبة الرئيس أمين الجميل؟**

ـ شقيقتي اتصلت به شخصياً، وأنا اتصلت به شخصياً، لم نكن في مقاطعة مع الرئيس الجميل، فبعد جهد استطعنا توصيل هذه الرسالة، وأنا أُحمّل الموضوع إلى البيروقراطية الموروثة من العهد العثماني.

*** هذه المسألة ذات طابع سياسي وليس إدارياً؟**

ـ عدة مرات طلبنا..

*** هناك واقعة أخرى وهي واقعة اغتيال شقيقه الشيخ بشير ولم يتم التعامل بشكل جدي مع المعترف بالقتل حبيب الشرتوني، هل هناك ملاذ آمن في هذه الحالة؟**

ـ يبدو أن هناك تفاهماً معيناً.

*** ألم ينقل هذا الشخص؟**

ـ لم ينقل وخلال معارك (حرب العلمين) هرب كما كل المسجونين من سجن بيروت.

*** وأين أصبح، هل هاجر إلى الخارج؟**

ـ لا، لم يهاجر، بل احتمى بالبقاع.

*** من الذي حماه؟**

ـ الذين كانوا مسيطرين على البقاع، إلى أن صدر قانون العفو عام 1990، بعد إتفاق الطائف الذي يشمل الجرائم السياسية، وبعد صدور قانون العفو ببضعة أشهر فقط، وتم إحضار أحد

المجرمين من أفريقيا وتم استقباله أمنياً في مطار بيروت، ثم اقتيد بكل احترام إلى المحكمة في قصر العدل، وتمت تبرئته، باعتبار أن الجريمة أضحت سياسية ولم تعد جريمة ثأر عشائرية. نحن في ذلك الوقت رغم أننا لم نبلغ، وحين علمنا بتبرئة المتهم كان الموضوع قد انتهى، وبعد تلك العملية المشكوك بها إن كان قضائياً أو سياسياً، قام فريق آخر من اللبنانيين الذين يغطون أحد المجرمين الذين شاركوا في عملية اغتيال النقيب رياض طه، باللجوء إلى الأسلوب نفسه.

*** بأي معنى؟**

- إنهم ونظراً لتبرئة أحد المجرمين بالشكل الذي تم به، فقاموا باستدعاء إلى المحكمة سنة 1994 وطالما تمت تبرئة زميلهم الذي كان مختبئاً في البقاع، والذي كان سجيناً في بيروت.

*** هل التحق هذا السجين الهارب بإحدى المنظمات وحمل سلاحاً؟**

- كل الذين شاركوا في هذه الجريمة كانوا منظمين.

*** ضمن تنظيمات الأمر الواقع في بيروت الغربية يومها، والبقاع وكانوا محميين من السلطات القائمة على الأرض؟**

- نعم هذا صحيح، إنما يبدو أن الجهة التي كانت تغطي هذا السجين الفار، لم تكن على دراية كاملة بالأمور القضائية كي تسلك المسلك نفسه، أتوا به إلى المحكمة وتم إيقافه على أساس أن العملية بحكم المنتهية، أي أن يسلم نفسه ويحاكم شكلياً، وبالتالي هنا وقعت الواقعة، إذ أن على المحكمة أن

تبلغ الفريق المدعي وعندها بلغت وحضرت الجلسة الأولى، وطلبت التريث ريثما أكلف محامياً لأن الموضوع كان قد مضى عليه 15 عاماً ونيف وفوجئت باستنكار محامي الدفاع الذي كان يتولى الدفاع عن السجين الفار بأنه لم يكن يعلم بأن هناك حقاً شخصياً في الموضوع، وكان من المفترض أن تنتهي القضية خلال دقائق، لأن القانون قد عفا عن الجرائم السياسية. فسألت القاضي لماذا بلغتموني ففي قضية أحد المتهمين لم أبلغ ولماذا تم تبليغي الآن. ويبدو أن القاضي لم يكن على اطلاع على مجريات الأمور في الجلسة الأولى وأعرب عن استغرابه فطلبت إحضار ملف الجلسة الأولى وصعقت عندما وجدت عليه تاريخ التبليغ وتاريخ المحاكمة ولا يتجاوز الوقت بينهما 48 ساعة وأنه مدون على التبليغ (مجهول مكان الإقامة) لإبعاد أي أحد من عائلة الشهيد فعدنا وذهبنا إلى المحكمة مجدداً برفقة محامين ومحامي النقابة، ومع الأسف لم يواجه القاضي الموضوع، استمع إلى مناظرة المحامين وطلب عشر دقائق للاستراحة ليصدر الحكم وترك الحكم في غرفة المذاكرة.

حصل هذا الأمر عام 1994، وظلت القضية عالقة، ولا أدري بأي قوة تم إخلاء سبيل هذا الموقوف مجدداً، فلم يتم حتى توقيفه، بل أخذ إلى المحكمة وبعد أن استمهلت بتكليف محامٍ لم نعد نراه وقيل أنه لم يوقف قطعاً وهذا مناف للقانون، فإذا كان قد قدم طلباً للبراءة فعليه أن يسلم نفسه وإلا لا تعقد الجلسة، ومع ذلك عقدت جلستان، وفي الجلسة الثانية قيل لنا أنه لم يأت،

فكيف يعقدون الجلسة من دون حضور المتهم، وهذه مفارقة، ومن خفايا القانون، وهذا بعض ما يجري في المحاكم.

*** عندما كان هذا السجين هارباً في البقاع، إذا كانت القضية ثأرية، هل حاول أحد من آل طه ملاحقته باعتبار أن الشهيد من آل طه؟**

- لنضع توثيقاً للقضايا الثأرية، نحن نتغنى بالقيم العشائرية وفي الوقت نفسه نمتعض لبعض العادات في مواضيع الثأر. أولاً يؤخذ الثأر فوراً، ولا انتظار في هذا الموضوع بل يؤخذ الثأر في أول فرصة سانحة، ويعلن الأخذ بالثأر لأنه يعتبر إعادة إعتبار ورد شرف، إذاً الموضوع ليس ثأراً، فهؤلاء الأشخاص الذين ارتكبوا الجريمة البشعة لا يعرفون شيم الثأر. رغم بشاعته، الجريمة الثأرية تفتدى فوراً ومردودها الثاني الذي فيه تمدن أكثر هو الفدية، يأتي من ارتكب الجريمة ويضع نفسه في تصرف العائلة المنكوبة ويتفقون على تسوية معينة، وهذا لم يحصل، إذ لم تقم عائلة طه بأي خطوة من كل ما ذكرت، خصوصاً وأن مرتكبي الجريمة من عائلات مختلفة، ولم تقم أي من العائلات الأخرى التي ادعى التحقيق أن الجريمة ثأرية بوضع نفسها في تصرف آل طه لمحاولة إيجاد تسوية، إذاً موضوع الثأر ليس وارداً.

*** سياسياً ماذا حصل بعد جريمة الاغتيال، يعني هل حصلت اتصالات سياسية بينكم وبين جهات سياسية من أصحاب الأمر الواقع، سلطة سورية أو فلسطينية؟**

ـ لم تحصل أي اتصالات من أي فريق معنا، إنما نحن في تلك الحقبة وجدنا من الضروري زيارة الشام.

*** كما فعل وليد جنبلاط وكما فعل سعد الدين خالد..**

ـ تم إجتماع بيننا وبين وزير الخارجية يومها عبد الحليم خدام وكان عمي عادل، ما زال على قيد الحياة وشارك معنا في هذا الإجتماع وقد تم هذا الإجتماع بعد جريمة الاغتيال بشهر واحد.

*** بناء على طلبكم؟**

ـ نعم، بناءً على طلبنا، لم يكن استدعاءً ولم تكن الزيارة مريحة على الإطلاق.

*** بأي معنى؟**

ـ التعالي علينا واتهامنا بأننا ننتمي للبعث العراقي. وهي اتهامات من دون خلفية.

*** هذه التهمة كانت كافية للقتل؟**

ـ صحيح.

*** هل تم اتهامك أنت وعمك؟**

ـ لا، لم نتهم كأشخاص وإنما في خلال الحديث ورد أن رياض طه ليس بالملاك فهو له علاقات.

*** ألا يكفي أن الرجل استشهد وإنما تم الطعن بانتمائه السياسي.**

ـ نعم لم تكن مريحة.

*** لم تكن للمواساة؟**

- لا. رغم أن برقية الرئيس حافظ الأسد كانت جد معبرة وكنا نتصور عندما قمنا بهذه الزيارة، معاملة مختلفة.

*** كم استمرت الزيارة؟**

- عشرون دقيقة فقط.

*** وكان هناك تعالٍ من خدام؟**

- نعم ويبدو أنها طبيعته.

*** إنما في مناسبة إنسانية الأمر يجب أن يكون مختلفاً.**

- بصراحة أنا ذهلت من طريقة التعامل.

*** هل عاتبكم إذا كان هناك رد فعل بعد اغتيال رياض طه؟**

- لم يكن هناك اتهام لأحد، إنما أشك، وكأنه اتهمنا ضمناً بالإشكالات الأمنية التي واكبت الجنازة.

*** ماذا حصل في الجنازة؟**

- في تلك الأوقات لم تكن الاتصالات سهلة بين المناطق اللبنانية ورغم ذلك، خرجت الجنازة من بيروت سالكة طريق الكحالة - عاليه - بحمدون وصولاً إلى زحلة ومشارف بعلبك، وكانت الناس مصطفة على جانبي الطريق، كما أوقف بعض المواطنين الموكب لإلقاء التحية على الراحل. وكان هناك استياء عام لدى كل الفئات، وعند مشارف بعلبك حصلت حادثة مفتعلة ومدبرة فاضطررنا إلى الهرب إلى شوارع بعلبك الداخلية للعودة مجدداً إلى الطريق العام.

*** ماذا حصل على مشارف بعلبك، هل تم التعرض للجنازة؟**

- نعم تعرضوا للجنازة بالتوقيف وإطلاق النار، وكادت تحصل اشتباكات تحصد المئات لو لم يتم تدارك الأمور بشكل جيد. إذ عند باب المخيم الفلسطيني كان هناك استنفار مسلح لافتعال مشكلة، وأذكر أن الرئيس سليم الحص لم يستطع إكمال الطريق إلى الهرمل وبقي هو والوزير السابق النائب مروان حماده في بعلبك في فندق «بالميرا» لتهدئة الوضع، كان الوضع على وشك أن يفلت من أيديهم.

*** لماذا على باب المخيم الفلسطيني، ومن هي القوى التي كانت على بابه؟**

- قوات كثيرة، كان هناك عناصر لحركة «أمل» وعناصر فلسطينية مسلحة من منظمات محسوبة على سوريا.

*** مثل الصاعقة ومنظمة أحمد جبريل؟**

- نعم، نعم.

*** كانوا يريدون افتعال مشكلة معكم خلال التشييع؟**

- نعم.

*** لماذا، هل لمنع الحشود الجماهيرية من المشاركة، أم لاستكمال الرسالة التي وصلت لاغتيال الشهيد؟**

- يمكن أن يكون من الجهتين، أولاً لم يكن متوقعاً أن تقابل

جريمة الاغتيال هذه بهذا الامتعاض والاستياء الشعبي لأن تغطية الفاعلين محبوكة بشكل أن لا تؤدي إلى ذلك، يعني إظهار الجريمة أنها ثأرية عشائرية، فكان مستهجناً أن تصطف خلف الجنازة التي أرادوا إظهارها أنها ثأرية عشائرية كل هذه الحشود. لأنهم أرادوا إسقاط أي قيمة سياسية يمكن أن تحيط بالموضوع.

*** مصممون على أنها جريمة ثأر..**

ـ وبالتالي ليس مبرراً وجود كل هذا الامتعاض، وإن رياض طه قتل مثله مثل غيره، أي أنها عملية ثأر ليس لها أي ثمن سياسي. ردة الفعل أظهرت أن كل الناس لم تصدق هذا الأمر ولم تمتثل به، يعني في الكحالة أنزل النعش وحمله المواطنون على الأكف حتى آخر البلدة، وفي زحلة، وفي كل المناطق التي مررنا بها، ردة الفعل هذه لم تكن مرغوبة في ذلك الوقت.

*** أثناء تشييع الشهيد الشيخ حسن خالد، حصلت هتافات ضد سوريا واعتقل المئات، هل حصل مثل هذا الأمر في أثناء تشييع الشهيد طه؟**

ـ لم يتم اعتقال أحد في ذلك الوقت، إلا الذين كانوا وراء افتعال المشكلة في بعلبك، وأشك أنهم كانوا وراء الحادث لأن الذين اعتقلوا كانوا أبرياء.

*** أي اعتقلوا أبرياء، وتركوا الذين أثاروا الشغب.**

ـ نعم، هذا صحيح. على كل الأحوال، حتى في الهرمل كان

الجو مشحوناً ونحمد الله أنه مضى ذلك اليوم على خير دون إشكال أمني، لأن أي إشكال قد يحصل في الهرمل كان سيؤدي إلى مجزرة. لأن عند التشييع كان كل أفرقاء الساحة الذين لهم علاقات بالأجهزة الأمنية والمنظمات والحركات الفلسطينية واللبنانية والسورية والإيرانية.

*** لم يكن هناك من منظمات عراقية لأن وجودهم كان قد انحصر والبقية كانوا يلاحقون بالاغتيالات.**

- في الهرمل ليس بالشكل الحاسم، بسبب الحماية العائلية والعشائرية.

*** هل حَمّلت الناس الاستخبارات السورية جريمة الاغتيال؟**

- كان تحميل الناس المسؤولية على لسان كل مواطن وهذا ما أثار استياءهم، فالمقالات والخطابات التي سبقت عملية الاغتيال كانت تدل على مرتكبي الجريمة دون أن تسميهم، وكان الناس يقولون لماذا كتب هكذا؟.

*** يعني كانت تصلكم أصداء ونصائح، كما فعلوا مع الشيخ حسن خالد.**

- صحيح، أكرر ربما مع الشيخ حسن خالد كانت العملية محصورة أكثر.

*** بأي معنى؟**

- كانت الجهة محددة أكثر.

*** أنت مصمم على أن اغتيال الشهيد رياض طه كان تقاطع**

مواجهات، سوريا وإيران من جهة، العراق والفلسطينيون من جهة ثانية.

- نعم.

*** هل تعرضتم لمضايقات بسبب محاولات بمتابعة مسيرة رياض طه؟**

- لا لم نتعرض لمضايقات بالمعنى الصحيح، إنما منعت عنا كل التجاوبات، وكأن موضوع رياض طه كان موضوعاً محظوراً، وكل ما يتعلق بهذا الرجل تجنبوه، كأنها كانت كلمة السر غير المفصح عنها، حاولنا منذ عملية الاغتيال إطلاق اسمه على أحد شوارع بيروت، فاستغرق الأمر 15 عاماً كي نحظى بموافقة على ذلك.

*** في أي عهد قدمتم الطلب، وفي أي عهد حصلتم عليه؟**

- قدمنا الطلب مباشرة بعد استشهاده، إذ طالبنا مراراً وتكراراً في عهد الرئيس سليم الحص، وشكّلت لجنة تخليد رياض طه، عام 1981 وكانت تضم دولة الرئيس سليم الحص وعدد من الأسماء البارزة ولم يكتب لها الاستمرار، بسبب التوصيات الباطنية، ولم يتم أي احتفال رسمي لغاية سنة 1994، في عهد الرئيس رفيق الحريري. نحن كنا كأبناء رياض طه نسعى على الأقل إلى إحياء ذكراه السنوية في بلدته في الهرمل، بما يتاح لنا من إمكانات، وبعدها جرت العادة على فتح أبواب نقابة الصحافة باعتباره يوم ذكراه لعدة سنوات متتالية بدون أي احتفال كيوم تعارف.

واستمرت هذه العادة لغاية العام 1993، وحاولنا أن تكون الذكرى ذات معنى وليست مجلساً مفتوحاً ودردشات وجهدنا على أن نعمل كل سنة شيئاً ذا قيمة، وفقنا في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى كانت متواضعة جداً، حتى مكاتب المجلة والجريدة في شركة «السوليدير» لم نستطع استرجاعها، جرت حرب تهميش على كل ما يمت بصلة إلى ذلك الرجل وكأنك كنت تشعر بخوف من الاقتراب من هذا الملف، وأرجو أن يكون الحال قد تغير الآن.

*** هل تأملون شيئاً من العهد المقبل، على سبيل المثال، تكريم ذكرى الشهيد..**

- لا أستطيع أن أجزم وأضع آمالاً تخيب فيما بعد، نحن نأمل أن يلاقي هذا الرجل جزءاً مما قدمه لهذا البلد. الرئيس الياس سركيس قلده وساماً بعد استشهاده، ولكن ليس بالأوسمة تحيا الرجال. الرجال لها ذكرى ولها مشروع وتاريخ يجب أن يكرس شيئاً.

*** من جهتكم هل حاولتم إصدار كتاب عنه، عن تراثه، كتاباته، وإصداره ضمن مجلدات..**

- منذ اللحظة الأولى فكرنا بهذا الموضوع، وكان الشهيد يعد كتاباً كمذكرات وكان يستكتب أحد الصحافيين كل يوم بعد الظهر. اشترينا حقوق النشر لهذا الكتاب، رغم أنه صيغ بصيغة لا تقابل ببلاغة رياض طه، إنما فيه من المعلومات ما يكفي لبداية مشروع كتاب جيد، وإذا وفقنا في ذكراه الخامسة والعشرين، سوف نصدره، هذا الكتاب مر في عدة

مراحل، من الاستكتاب في حياة الشهيد رياض طه إلى إعادة الكتابة وكلفنا الزملاء رياض حنين وفاضل عقل بإعادة صياغته في مرحلة مختلفة، وأغنيناه ببعض المواقف التي نحتفظ بها في الأرشيف، آمل أن يكون على مستوى الرجل وأن يعطيه بعضاً من حقه.

السيد حسن الشيرازي

(1935 ـ 1980)

ـ اسمه ونسبه:

هو العالم الجليل آية الله الشهيد السيد حسن بن المرحوم الفقيه آية الله العظمى المرجع الديني السيد الميرزا مهدي بن السيد حبيب الله الحسيني الشيرازي، وينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

ـ ولادته ونشاته:

ولد في مدينة النجف الأشرف ـ العراق، عام 1935. نشأ وتربى في كنف بيت كريم عُرف بالإيمان والورع والتقوى والجهاد، حيث مدينة جدِّه سيد الشهداء الحسين عليه السلام مدينة كربلاء المقدسة.

وقد درس مختلف علوم وأصول الدين وعلوم القرآن والأخلاق والفقه والحديث في مدارس كربلاء وحوزتها.

ـ جهاده:

قضى حياته بالجهاد والنضال ضد أعداء الإسلام والمسلمين،

وعلى أثر ذلك قضى فترة غير قصيرة من حياته في السجون والمعتقلات، ولاقى أبشع أنواع التعذيب النفسي والجسدي على يد جلاوزة السلطة الحاكمة في العراق، لاسيما سلطة الثلاثي عفلق ـ البكر ـ صدام.

كما قضى الفترة الأخيرة من حياته بعيداً عن وطنه ومسقط رأسه.

هاجر إلى لبنان في العام 1970، واتخذ منه قاعدة إنطلاق لأعماله ونشاطاته الدينية والسياسية، كما كانت له سفرات سابقة إليه.

ـ مؤسساته:

أسس مجموعة كبيرة من المؤسسات الخيرية والدينية والتربوية والإجتماعية والتثقيفية والصحية في كل من: العراق ـ سوريا ـ لبنان ـ بلدان أوروبية وأفريقية.

فمثلاً في أفريقيا: ساحل العاج، سيراليون، نيجيريا، كينيا.

وأبرز المؤسسات التي قامت على يده:

ـ مدرسة الإمام المهدي الدينية في بيروت ـ لبنان، واستدعى لها أساتذة كبار من العراق وإيران.

ـ الحوزة العلمية الزينبية في حي السيدة زينب عليها السلام بدمشق ـ سوريا، وأسسها عام 1973.

ـ مكتب جماعة العلماء في لبنان، تأسس عام 1977م وقد ترأسه بنفسه، واضطلع المكتب بمختلف النشاطات الدينية والسياسية

والثقافية وغيرها، وعلى الساحة اللبنانية والعالمية.

مواقفه السياسية:

كان آية الله الشهيد يمارس نشاطاته السياسية، إلى جانب مسؤولياته الدينية بصفته رجل دين، باعتبار أن السياسة جزء لا يتجزأ من الإسلام، كما هو الصحيح، وكانت له مواقف سياسية تجاه القضايا المطروحة والمصيرية المرتبطة بواقع الأمة الإسلامية.

ومن بين جملة تلك المواقف البارزة:

- قيامه بدور كبير في الدفاع عن الجنوب اللبناني، وبذل جهود واسعة من أجل المحافظة على وحدة لبنان.
- التصدي لحلقات مشروع الاستعمار الصهيوني ومخططه الاستيطاني في فلسطين الإسلامية.
- الوقوف ضد المعاهدة التي أبرمها الرئيس المصري السابق أنور السادات مع رئيس وزراء الكيان الصهيوني مناحيم بيغن عام 1977، والمعروفة بـ «معاهدة كامب ديفيد» تحت ستار إحلال السلام في الشرق الأوسط.
- دعم وإسناد حركة المقاومة والجهاد الإسلامي في أفغانستان، ضد سلطة الحكم الشيوعي الحليف لموسكو، وضد قوات الإحتلال السوفيتي. حيث ساعد الشهيد المقاومة المسلمة مادياً ومعنوياً وإعلامياً.

- مؤلفاته:

قام الشهيد بتأليف وكتابة مجموعة كبيرة من الكتب الدينية

والعلمية والأدبية والتوجيهية، وتمتاز كتاباته بقوة التعبير وجمال الأسلوب وعمق المعنى وأهمية الموضوع. ومن أبرز مؤلفاته:

- موسوعة الكلمة: وتتشكل من تسع عشرة كلمة في 19 مجلداً، حمل أغلبها أسماء الأئمة المعصومين من آل بيت الرسول الأكرم محمد ﷺ.
- كتاب الإقتصاد الإسلامي - العمل الأدبي - الأدب الموجه - التوجيه الديني - تفسير القرآن الحكيم - الشعائر الحسينية - حديث رمضان - إله الكون.

- رحلاته:

قام السيد الشيرازي بعدة رحلات دينية تبليغية إلى القارة الأفريقية والأوروبية ودول الخليج كالكويت والبحرين وغيرها. وعين في بعض هذه البلاد علماء دين يقومون بنشر الإسلام وخدمة المسلمين.

- اغتياله:

في مساء يوم الجمعة 2 أيار/مايو عام 1980م، وبينما كان سماحته متوجهاً إلى مدرسة الإمام المهدي الدينية الواقعة في منطقة برج البراجنة، للمشاركة في مجلس الفاتحة الذي أقامه هو بمناسبة استشهاد المرجع الديني الإمام السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) وشقيقته بنت الهدى على يد نظام صدام، وقبل وصوله إلى مجلس الفاتحة، وبينما هو في الطريق تم اغتياله على يد مجموعة مسلحة، واستشهد على الفور فيما لاذ الجناة بالفرار.

ـ ظروف اغتياله:

كان الشيرازي يستقل سيارة أجرة تحمل الرقم 85640 من نوع بونتياك بقيادة صاحبها غانم حيدر.

ما إن تحركت السيارة في اتجاه كورنيش الرملة البيضاء حتى تبعتها سيارتان تقلان مسلحين وقبل وصولها إلى آخر الكورنيش بنحو 50 متراً اقتربت سيارتا المسلحين وأحاطتا بها، وكان السيد جالساً في المقعد الخلفي إلى الجهة اليمنى فأطلقوا عليه النار فاخترقت الرصاصات الزجاج وأصابته في رأسه مباشرة وخرجت رصاصات من الباب الأيسر الخلفي وقد هوى الإمام الشيرازي في المقعد والدم ينزف من رأسه وعينيه وفمه.

حلق نبأ اغتيال المفكر الإسلامي السيد حسن الشيرازي مع روحه المرفرفة في الآفاق وتناقلته جميع الإذاعات والوكالات ووسائل الإعلام الأخرى العربية والأجنبية.. وتراشقت الدوائر الاستخبارية الدولية فيما بينها باتهامات التورط في هذه الجريمة النكراء.

بتاريخ 28/4/1980 نشرت جريدة «14 تموز/يوليو» التي تصدر في دمشق خبراً عن وصول مجموعة من ضباط الأمن القومي العراقي بقيادة الرائد عباس قاسم عبادي إلى بيروت.

وفي يوم 15/5/1980 أي بعد اغتيال السيد حسن الشيرازي بثلاثة عشر يوماً، عادوا إلى بغداد لتسلم المكافأة وتلقي الأوامر الجديدة.

على الجانب الآخر بدأت البيانات المنددة والشاجبة والبرقيات

المعزية والناعية بالمصاب تنثال بكثرة على مكاتب وممثليات المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد الشيرازي، الذي نعى الشهيد في بيان تضمن القول: «الأخ العلامة السيد حسن ليس أول الشهداء ولن يكون آخرهم.. فهذه هي قافلة الذين ينذرون أنفسهم لله وتكون عاقبة أمرهم الموت في سبيله...».

وطلب من المسلمين جميعاً العمل لإسقاط حكومة «حزب البعث».

في صبيحة يوم السبت 3/ 5/ 1980م حمل الجثمان الطاهر من المستشفى إلى منطقة الشياح ليغسل في الحسينية ويكفن ثم يشيع إلى سوريا حيث مقام السيدة الحوراء زينب عليها السلام في تظاهرة جماهيرية عارمة تصرخ من الأعماق: «الله أكبر ..الله أكبر.. لا إله إلا الله صدام عدو الله»..

وفي منتصف الليل أعلنت الإذاعة في إيران عن وصول النعش الطاهر إلى مطار طهران الدولي.. فهرعت الجماهير المؤمنة لاستقباله.. وفي الصباح انطلق موكب تشييع مهيب من الحسينية الكربلائية إلى صحن السيدة المعصومة سلام الله عليها حيث تقدم سماحة آية الله العظمى السيد المرعشي للصلاة على الجثمان المقدس.. ثم حملت الجنازة على موج متلاطم من المعزين النائحين وأدخلت إلى الحرم الشريف ليستقر الشهيد في مقعد صدق عند مليك مقتدر بجوار جدته المعصومة عليها السلام.

يحيى المشد

(1932 - 1980)

الاغتيالات دائماً ما تحاط بالتعتيم الإعلامي والسرية والشكوك المتعددة حول طريقة الاغتيال، لكن عمق المأساة في قصة اغتيال الدكتور يحيى المشد يلخص في جانب من جوانبه عمق الإحباط العربي وخجل الإرادة السياسية يتشح الغيورون بالسواد على دم واحد منا أراد يوماً ما أن يكون لنا مخلب ـ ولو صغير ـ نهش به مخالب الذين يكتمون أنفاسنا، ثم دفع في مقابل ذلك أغلى ما يملك، وحيداً في مدينة باردة.

ولد يحيى المشد في بنها عام 1932، وتعلم في مدارس طنطا وحصل على بكالوريوس في الهندسة، قسم الكهرباء في جامعة «الإسكندرية»، وكان ترتيبه الثالث على دفعته مما أتاح له الفرصة للحصول على بعثة دراسية في العام 1956م لنيل درجة الدكتوراه من جامعة «كامبردج» في بريطانيا، ونتيجة للعدوان الثلاثي تم تغيير مسار البعثة التي التحق بها إلى موسكو بعد العدوان الثلاثي على مصر حولها إلى موسكو، تزوج وسافر وقضى هناك ست سنوات عاد بعدها عام 1963، وسافر إلى

النرويج عامي 1963 و1964 لعمل بعض الدراسات، ثم انضم بعد ذلك للعمل كأستاذ مساعد ثم كأستاذ بكلية الهندسة في جامعة «الإسكندرية».

أشرف الدكتور المشد في فترة تدريسه بالكلية على أكثر من 30 رسالة دكتوراه، ونُشر باسمه خمسون بحثاً علمياً، تركزت معظمها على تصميم المفاعلات النووية ومجال التحكم في المعاملات النووية.

تخصص الدكتور يحيى المشد في هندسة المفاعلات النووية، والتحق بهيئة الطاقة الذرية المصرية، التي كان أنشأها الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، الذي أمر أيضاً قبل ذلك بعام بإنشاء قسم للهندسة النووية في جامعة «الإسكندرية»، انتقل إليها المشد، حتى صار رئيسها عام 1968. بعد سنوات قليلة من جلوسه وراء هذه النافذة حمل الرجل عصاه ومضى تاركاً تلاميذه لمصيرهم.

لكن بعد حرب حزيران/ يونيو عام 1967 توقف البرنامج النووي المصري تماماً، ووجد كثير من العلماء والخبراء المصريين في هذا المجال أنفسهم مجمدين عن العمل الجاد، أو مواصلة الأبحاث في مجالهم، وبعد حرب العام 1973 وبسبب الظروف الإقتصادية لسنوات الاستعداد للحرب أعطيت الأولوية لإعادة بناء المصانع، ومشروعات البنية الأساسية، وتخفيف المعاناة عن جماهير الشعب المصري التي تحملت سنوات مرحلة الصمود وإعادة بناء القوات المسلحة من أجل الحرب، وبالتالي لم يحظ البرنامج النووي

المصري في ذلك الوقت بالاهتمام الجاد والكافي الذي يعيد بعث الحياة من جديد في مشروعاته المجمدة.

بعد حرب تشرين الأول/ أكتوبر عام 1973 وانفجار أسعار النفط، ووصول فاليري جيسكار ديستان إلى سدة الحكم في فرنسا في العام 1974، ـ والبترول كان عنصراً من العناصر التي أخذت في إعتبار متخذي القرار الفرنسي ـ، ديستان كان أول من باع السلاح للعالم العربي. باع طائرات الميراج إلى لبنان في العام 1974، وكذلك إلى مصر في العام 1975، إنما كانت هناك نقطة محظورة وهي المجال النووي.

وفي العام 1975 كان ـ صدام حسين ـ في زيارة إلى فرنسا، وكانت على جدول أعماله جولة بصحبة رئيس الوزراء الفرنسي ـ آنذاك ـ جاك شيراك لتفقد مركز الطاقة النووية الفرنسي في منطقة كتراج بالقرب من مارسيليا في جنوب فرنسا، وتقول مصادر غربية إن الزعيمين احتفلا لدى نهاية الزيارة بتوقيع صفقة لم تبلغ بها الوكالة الدولية للطاقة الذرية، (ليس لدينا دليل على ذلك). بعد ذلك بعام، أي في العام 1976. كان جاك شيراك يرد الزيارة. في تلك الآونة كانت دول أوروبية قد استحدثت أسلوب الطرد المركزي لاستخلاص اليورانيوم 235 بنسبة تخصيب تصل إلى 93٪، ما يغني عن الحاجة إلى إنشاء مفاعل ضخم لإنتاج البولتنيوم239. والرئيس ديستان أراد ألا يخسر العقود التي وقعت مع العراق، لأنها كانت عقوداً دسمة للصناعات التسليحية الفرنسية، وفي الوقت ذاته حاول أن لا يُتهم بأنه يساعد على الانتشار النووي، ماذا فعل يومها؟ طلب

من المفوضية النووية إنتاج وقود اسمه «وقود كراميل»، ويعني أن يكون مخصباً بنسبة 94٪، ومن اليورانيوم المخصب أن يكون مخصباً فقط بنسبة 7٪، يعني أن يُشغل مفاعل أوزيراك التي باعته فرنسا، ولكن هذا الوقود يكون عاجزاً عن إنتاج القنبلة النووية. في حينها أصر العراق أن عقداً بينه وبين المؤسسات الفرنسية يفترض أن يتسلم بموجبه مفاعلاً بنفس المواصفات العلمية التكنولوجية، لأن «الكراميل» لا يستطيع أن ينتج طاقة نووية بنفس المواصفات، هذا إذا صحّت تكهنات العلماء فعلاً، واستطاعوا الوصول في حينه إلى إنتاج «الكراميل» وتحوير قلب المفاعل إلى آخره من التفاصيل التقنية.

ودّع يحيى المشد وراءه حلماً غالياً في مصر، لم يجده تماماً في جامعة التكنولوجيا في العراق. في هذه المختبرات التي جمّعها آلة بآلة كان يجد مع تلاميذه قليلاً من العزاء. لكن مصر في تلك الأثناء كانت تتجه في طريق آخر، وقّع السادات إتفاقية السلام مع إسرائيل، وتزعم العراق جبهة الصمود والتصدي، فضرب المشد جذوراً أعمق في العراق.

يقول الدكتور منذر التكريتي - رئيس القسم الذي عمل به المشد سابقاً -: «والله في واحد نيسان 1975 تم تأسيس الجامعة التكنولوجية، وكان ليّ الشرف أن أكون عضو في أول مجلس جامعة، وكذلك أن عُهد لي تأسيس وإدارة قسم هندسة السيطرة والنظم ما يسمى باللغة الإنجليزية Control and system engineering department» وكانت المهمة كبيرة وملحة، ولم يكن الوقت في

صالحنا في ذلك الوقت، ولذلك قررنا الاستعانة بأشقائنا العرب، وبالذات من مصر العروبة، وتم التعاقد مع عدد من الأساتذة المرموقين المصريين وكان من ضمن هذه النخبة الخيرة المرحوم الدكتور يحيى المشد. كان يحب عائلته، حسب ما ذكر بالاختلاط، عائلي يعني Family man، كان قومي، يعني قومي في تفكيره وقومي في تصرفه، يعني هو أخ عربي عزيز مصري، يعمل في العراق، لم يلحظ عليه أبداً إنه يتصرف وكأنه مصري بل تصرف وكأنه عربي يسكن في بلده».

أما الدكتور داخل جريو ـ رئيس الجامعة التكنولوجية ـ: «كانت هناك حاجة ملحة إلى ملكات هندسية رفيعة المستوى العلمي وعالية التأهيل وبأعداد كبيرة، حيث شهد القطر في ذلك الوقت على ما أطلق عليه بخطة التنمية الانفجارية والحاجة إلى الملكات والكوادر الهندسية، فجاء تأسيس الجامعة التكنولوجية. على هامش عمله في الجامعة التكنولوجية سمح للمشد بالتردد أثناء عطلته الأسبوعية على منظمة الطاقة الذرية العراقية، إلى أن جاء العام الذي وقع السادات فيه ما يوصف بمعاهدة السلام».

أما الدكتور صالح القرغولي ـ تلميذ المشد ـ والذي تولى رئاسة القسم بعد اغتيال المشد: «في الحقيقة كان انتعاش تلك الفترة حيث تأسست الجامعة والأجهزة حديثة جداً، فكان دائماً يطلعنا على كل جديد من الأجهزة التي ترد إلى القسم ودائماً يعطينا التجارب ذات العلاقة وكيفية تطورها، كان يؤكد على التطوير، تطوير الأجهزة، وحين يأتي جهاز جديد يطلعنا على تفاصيله، ثم كيف نطوره».

في مطلع العام 1975 كان العراق وقتها يملك طموحات كبيرة لامتلاك كافة أسباب القوة، فوقّع في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1975 إتفاقاً مع فرنسا للتعاون النووي، من هنا جاء عقد العمل للدكتور يحيى المشد العالم المصري والذي يعد من القلائل البارزين في مجال المشروعات النووية وقتها، ووافق المشد على العرض العراقي لتوافر الإمكانيات والأجهزة العلمية والإنفاق السخي على مشروعات البرنامج النووي العراقي. وبين عامي 1978 و1982 كان طموح العراق في المجال النووي قد بلغ ذروته وكان تربص أطراف أخرى بهذا الطموح قد بلغ أيضاً ذروته، بدأ مسلسل درامي من الأحداث، استخدم فيه المسموح وغير المسموح، دموي في معظم الأحيان كان أحد ضحاياه عالم مصري له قلب ريفي وضمير عربي ووجه عادي، وعقل غير عادي.

يعلق الدكتور فاضل محمد علي - رئيس الإتحاد العربي للفيزياء الحيوية -: «في العام 1979 وقّع الدكتور المشد عقداً مع هيئة الطاقة الذرية، كان في الجامعة التكنولوجية ويعمل فيها، وهذا لا يمنع التعاون العلمي في مجال أبحاث علمية تسير داخل الجامعة، كما يحصل في مصر وفي أي مكان في العالم».

- الضربة الأولى لحلم المشد النووي والتخطيط لاغتياله:

بعيد التحاق يحيى المشد بمنظمة الطاقة الذرية العراقية هبط في مطار «إير» قرب مدينة تولون في جنوب فرنسا فريق من ثلاث أشخاص قدموا في رحلة داخلية من باريس، عندما وصلوا إلى تولون توجهوا إلى محطة القطار حيث استأجروا سيارة من طراز

«رينو 12» قادوها إلى فيلا قريبة، كان بداخلها أربعة آخرون في انتظارهم، هؤلاء، تقول مصادر فرنسية إنهم من عملاء جهاز الاستخبارات الصهيوني «الموساد»، باتوا ليلتهم يرسمون خطة تخريبية.

في اليوم التالي، الخامس من نيسان/ أبريل عام 1979 توجه المخربون في طريقهم إلى مرفأ صغير، غربي تولون يدعى «لاسين سومير»، كانت هذه جولة استطلاعية أرادوا من ورائها تحديد موقع جريمتهم، في هذا الموقع، في مخزن من أحد المخازن الكثيرة التي كانت في تلك المنطقة، وفي هذا المخزن كانت تقع درة التعاون العراقي ـ الفرنسي تمهيداً لشحنها عن طريق مرسيليا إلى بغداد بعد أيام معدودة.

وضع زوار الليل لمساتهم الأخيرة على خطتهم قبل أن يعودوا تحت جنح الظلام، فيما أوهموا العلماء أن خطتهم الأولى كانت سرقة قلبيّ المفاعلين العراقيين «إيزيس» و«أوزوريس» كما سماهما الفرنسيون أو كما سماهما العراقيون «تموز1»، و«تموز2». في يسر تسللوا إلى الداخل، وفي يسر ميّزوا الشحنة العراقية من بين شحنات أخرى مماثلة، وفي يسر عندما فشلوا لجأوا إلى خطتهم البديلة، ففجروا قلبيّ المفاعلين ولاذوا بالفرار.

أشارت أصابع الاتهام إلى «الموساد». وفي نفس الوقت تمت الإشادة ببراعة العملية، كيف وصل هؤلاء الجناة إلى هذا المكان على الرغم من وجود حراسة مشددة، وعلى الرغم من أن عملية نقل المفاعل النووي إلى بغداد كانت تتم برعاية السلطات الفرنسية،

وكانت هذه الأجهزة الأمنية المختصة مولجة بحماية هذا الجهاز أو هذا القلب لكي يتم نقله من المصنع إلى البحر، حيث ينقل فيما بعد إلى المكان المخصص له في العراق.

الغريب أيضاً والمثير للشكوك أن الفرنسيين صمّموا على أن يأتي المشد بنفسه ليتسلم شحنة اليورانيوم، رغم أن هذا العمل بإمكان أي مهندس عادي أن يقوم به، كما ذُكر في العراق بناء على رواية زوجته، إلا أنهم في العراق وثقوا فيه بعدما استطاع كشف أن شحنة اليورانيوم التي أرسلت من فرنسا غير مطابقة للمواصفات، وبالتالي أكدوا له أن سفره له أهمية كبرى.

ترأس الدكتور المشد فيما بعد البرنامج النووي الفرنسي - العراقي المشترك، وكان أول وأهم إنجازاته هو تسهيل مهمة العراق في الحصول على اليورانيوم المخصب من فرنسا. وفي أيار/مايو عام 1980 تم استدعاؤه إلى فرنسا، وكان يقوم كل فترة بإرسال كشف باليورانيوم الذي يحتاجه من ناحيتي الكمية والكيفية، وكان يطلق على هذا اليورانيوم اسم «الكعك الأصفر».

وهكذا كان مندوب البرنامج في العراق يتسلم هذا اليورانيوم ويبلغه بما تسلمه. وفي إحدى المرات اتصل مندوب البرنامج بالدكتور المشد وأخبره بأنه تسلم صنفاً مختلفاً عما هو موجود في الكشف. وقام الدكتور المشد بالاتصال بالمسؤولين الفرنسيين في البرنامج النووي وأخبرهم بذلك الخطأ، فردوا عليه بعد ثلاثة أيام وقالوا له: «لقد جهزنا الكمية والصنف الذي تطلبه»، وأكدوا عليه بالحضور لفحص ذلك، ووضع الشمع الأحمر على الشحنات بعد

التأكد من صلاحيتها. كانت تلك الرسالة إشارة لشيء لم يتم تفسيره بشكل جيد، ولكنها كانت استدراجاً للدكتور يحيى المشد ليتم قتله في ظروف أسهل وفي دولة لا يعرفه فيها أحد.

وصل الدكتور المشد إلى باريس في السابع من حزيران/ يونيو عام 1980، مفوضاً من منظمة الطاقة الذرية العراقية مع ثلاثة آخرين من زملائه العراقيين، فنزل في غرفة بالطابق الأخير من فندق «الميرديان» في باريس، وكتب في مذكراته بخط يده ملاحظات على إجتماعاته بنظرائه الفرنسيين، وبرز من بينها كلمة «كراميل» ومشاريع لتدريب العقول العراقية في المؤسسات الفرنسية، وبرز أيضاً من بينها جانب الإنسان في يحيى المشد، كيف يوزع ميزانية السفر الزهيدة! وكيف يجد لأفراد عائلته ملابس تناسب مقاساتهم! كان يفكر في الذرة وفي الملابس الداخلية لابنه أيمن في آنٍ معاً، لكنه مات قبل أن يُكمل إنجاز أيٍّ منهما في الثالث عشر من حزيران/ يونيو، لفظ أنفاسه الأخيرة، ولم تكتشف جثته إلا بعدها بأكثر من يوم، لكن الشرطة الفرنسية كتمت الخبر عن العالم لأربعة أيام أخرى.

- اغتيال الدكتور المشد:

في الثالث عشر من حزيران/ يونيو عام 1980 وفي حجرة رقم 941 في فندق «الميريديان» في باريس عُثر على الدكتور يحيى المشد جثة هامدة مهشمة الرأس، وقيدت القضيه ضد مجهول رغم أن كل العالم كان على علم بأن الموساد الإسرائيلي هو من قام بهده العملية. فجهاز الموساد له تاريخ حافل بمثل هذه الأعمال ضد

العلماء أبرزها خطف العالم الألماني هيتز كروج. ففي 11 أيلول/ سبتمبر عام 1962، تمت جريمة اختطافه. وهيتز كروج هو أحد العلماء الألمان العاملين في مجال الصواريخ في مصر، حيث تم اختطافه في ميونيخ حين كان يقوم بعمليات شراء الأدوات والمعدات اللازمة لبرنامج الصواريخ المصري من الأسواق الألمانية.

وفي العام 1963 جرت محاولة اختطاف ابنة العالم الألماني بول جيركي، حيث استدرج عميلان للموساد هما جوزيف بن جال وأتوجو كليك ابنة العالم الألماني الدكتور بول جيركي - وهو من العاملين في مصر - إلى منطقة الحدود السويسرية - الألمانية لاختطافها، وقد ألقى البوليس السويسري القبض عليهما وأُدينا في الحادث.

الإعلام المصري لم يسلط الضوء بما يكفي على قصة اغتيال المشد رغم أهميتها، ولعل توقيت هذه القصة وسط أحداث سياسية هامة آنذاك جعلها أقل أهمية مقارنة بهذه الأحداث!! وبقي ملف المشد مقفولاً، وبقيت نتيجة التحريات أن الفاعل مجهول، وأصبح المشد واحداً من سلسلة من علماء العرب المتميزين الذين تم تصفيتهم على يد الموساد.

في باريس 13 حزيران/ يونيو 1980 يروي عادل حمودة مؤلف كتاب «الموساد واغتيال المشد»: «الحقيقة طبعاً لم أسمع عن يحيى المشد ولا كنت أعرف اسمه، أنا في تلك الفترة كنت في فندق متواضع جداً في الحي اللاتيني، أتفرج على التليفزيون، فلفت

نظري أن كاميرات التليفزيون تتكلم عن قتل عالم مصري، بدأوا بترجمة الكلام، أنه دكتور في العلوم النووية وأنه كان يعمل لصالح العراق، ولكن لفت نظري طبعاً أن ضابط البوليس الذي خرج وكان معه منشفة. منشفة للحمام كبيرة عليها مادة حمراء، وغمز بعينه وقال إننا أمام جريمة عاطفية. ركزوا على الدكتور المشد، وكانوا يعرفون متى يخرج من الفندق ومتى يعود إليه في المساء، قيل يومها أن هناك ثلاثة عناصر كانت تؤمن الرصد. رصد تنقلات الدكتور المشد وتنقلها إلى غرفة عمليات، وقيل أنها استظلت مظلة دبلوماسية، لكي لا تثير الانتباه إليها.

بعدما دخل المشد الفندق وصعد إلى غرفته كانت تتبع خطواته سيدة مجهولة، ودخلت معه إلى المصعد، وحاولت إغراءه بكافة المحاولات، لكي تقضي سهرة معه في حجرته، لكنه كان رجلاً متديناً وبعيداً عن هذا الاتجاه، ورفض أن يطاوعها في أغراضها، وتركها واتجه إلى غرفته.

واستطاعت الأيادي الخفية أن تصل إلى هدفها واغتالت العالم العربي يحيى المشد وهشمت جمجمته بضربة من الخلف. يقول تقرير الطبيب الشرعي أنه «قتل بآلة حادة» لماذا؟ لكي يتم الإيحاء أو الإيهام بأن القاتل ليس محترفاً، ولا ينتمي إلى أي تنظيم أو جهاز سري، إنما القصة أنهم أرادوا أن يحصروها في علاقة دكتور مع امرأة، قيل أنها تسللت إلى غرفته وارتبطت بعلاقة غرامية معه، وفي نهاية المطاف يراد الوصول على أن خلافاً وقع بين العشيقين تحول إلى قطيعة وأرادت الانتقام منه.

أرادوا الإيحاء بأنها جريمة عادية وليس بوسائل قتلة محترفين، وحاولوا إظهار القضية، على أن الجريمة وقعت بسبب ليلة حمراء لكي يحطوا من قيمة العلماء العرب ويشوهون صورتهم، ولكي يظهروهم أنهم ليسوا سوى رجال يبغون المتعة فقط، إلا أنه ثبت عدم صحة هذا الكلام؛ حيث إن ماري كلود ماجال أو ماري إكسبريس كشهرتها ـ الشاهدة الوحيدة ـ وهي امرأة ليل فرنسية كانت تريد أن تقضي معه سهرة ممتعة، أكدت في شهادتها أنه رفض تماماً مجرد التحدث معها، وأنها ظلت تقف أمام غرفته لعله يغيّر رأيه، حتى سمعت ضجة داخل الغرفة. ولم يكتفوا بهذا الحد ففي ضاحية سان ميشيل بعدها بأقل من شهر كانت أهم شاهدة في القضية تغادر أحد بارات باريس الرخيصة وقد بدا لمن يراها في الشارع وكأنها مخمورة، منظر مألوف في هذه الضاحية بعد منتصف الليل، لكن غير المألوف أنها عندما كانت تعبر الشارع دهستها سيارة مجهولة لم يعثر عليها حتى اليوم، ومرة أخرى قيدت القضية ضد مجهول.

لكن الذي لا شك فيه أن يحيى المشد مات اغتيالاً، وأن قاتله يعرف نفسه، لا مصر التي هو ابنها أرادت أن تعكر آنئذ أفراح السلام الزائف، ولا العراق الذي منحه أنفاسه الأخيرة أراد أن يلفت إليه مزيداً من الأضواء، ولا فرنسا الذي مات على أرضها أرادت أمام الصهاينة والأميركيين أن تعكر علاقتها معهم، بل وهي في غنى عنها، ضاع دمه هدراً».

بعد عامٍ على اغتيال المشد انطلقت مقاتلات صهيونية فوق سموات عربية قبل أن تصل إلى بلدٍ عربي اسمه العراق فتدمر

المفاعل النووي، وتحديداً في الثامن من حزيران/يونيو عام 1981 وخلال الحرب العراقية ـ الإيرانية.

في تقريرها النهائي أشارت الشرطة الفرنسية بأصابع الاتهام في اغتيال المشد إلى ما وصفته بمنظمة يهودية لها علاقة بالسلطات الفرنسية، اعترفت إسرائيل بأنها هي التي ضربت يحيى المشد على رأسه بآلة حادة بواسطة رجال من الموساد. وجاء هذا الاعتراف في كتاب ضابط المخابرات الإسرائيلية المنشق فيكتور ستورفيسكي والذي أثار ضجة منذ صدوره في صيف العام 1990 والذي صدر بعنوان «طريق الخداع» فنحن نتصور أن مثل هذه القضايا تسبب صداعاً، وفي رؤوسنا ما يكفي من الصداع. لكن أقوى دليل يأتي في سياق كتاب صدر عام 2000، يضم اعتراف المسؤول عن شعبة القتل في الموساد الذي قال: «أنه قد ذهب إلى يحيى المشد في غرفته وطرق الباب عليه بعد قصة العاهرة ماري ماجال وقال له: نحن أصدقاء، نحن أولاد عم»، التعبير الشائع بين العرب والإسرائيليين أو العرب واليهود، وقال له أنا عندي أصدقاء، وإني مستعد أن أدفع لك أي مبلغ تطلبه، فكان رده حاداً جداً وشرقياً، وقال حسب كلام المؤلف: «امشي يا كلب أنت واللي باعتينك»، فخرج مسؤول القتل في الموساد ـ حسب كلام هذا الكتاب ـ وأخذ طائرة العال التي كانت ذاهبة إلى تل أبيب، وبعد أكثر من نصف ساعة كانت عملية القتل تتم بشكل أو بآخر.

ويقول عمير أورين في صحيفة «هآرتس»: «في أواخر حقبة السبعينات وأوائل حقبة الثمانينات وفي ما كان البرنامج النووي

العراقي في طريق التقدم، أقسمت إسرائيل علناً أن تضع حداً له، ووفقاً لتقارير موثوق بها حاولت إسرائيل النيل من الأشخاص الضالعين في البرنامج كالعلماء والمهندسين والوسطاء».

وفي بلد كالعراق تحطمت آلته ونضب ماؤه وجف ضرعه، يبقى له سواعد أهله وما تبقى من عقول علمائه، ويبقى دم يحيى المشد معتصراً في فجوة علمية مخيفة تتسع كل يوم باتساع المجهول القادم، هكذا يتحول الرجل إلى رمز يلخص كثيراً من ملامح الواقع العربي، ويستريح على صفحة بيضاء بين دفتي كتاب أسود، وهكذا يطيب لأعداء الأمة أن يلقي بنصف علمائها إلى مذابل الإهمال ويُلقى بالنصف الآخر إلى شباك الإرهاب العلمي. وألف تحية إلى هؤلاء. . .إلى علمائنا الذين لا يزالون يقبضون على جمرة الإرادة.

البابا يوحنا بولس الثاني
(1920 ـ 2005)
(محاولة اغتيال في العام 1981)

كانت ولادة كارول في 18 أيار/مايو عام 1920 ابن يوسف فويتيلا وأميليا كاشوروسكي في فادوفيس ـ بولونيا (قرية صغيرة تبعد 50 كلم من كراكوفيا).

قدر للطفل كارول فويتيلا أن يصبح أصغر بابا يتولى هذا المنصب في القرن العشرين.

كبر كارول في قرية فادوفيتش بجنوب بولندا، وكان والده ضابطاً بالجيش. كانت تربية كارول صارمة وورعة، وقد توفيت أمه وأخوه قبل أن يبلغ الرابعة عشرة.

وكشاب كان فويتيلا يعشق الرياضة، ومنها كرة القدم والتزحلق على الجليد، كما كان يحب التمثيل والمسرح. وكان في سن المراهقة حينما اجتاحت الدبابات الألمانية بولندا عام 1939.

وخلال الحرب العالمية الثانية والإحتلال النازي اشتغل فويتيلا

كعامل بينما كان يدرس اللاهوت سراً. وفي العام 1944 عقب حملة على التعليم الديني اضطر فويتيلا للاختباء، وأُرسل الكثير من أصدقائه لمعسكرات الاعتقال.

وواصل فويتيلا دراسته بعد الحرب، ورُسم قسّاً في العام 1946، وبحلول عام 1964 وصل إلى منصب رئيس أساقفة كراكوف وأصبح كاردينالاً بعد ذلك بثلاث سنوات.

وخلال هذه السنوات حظي فويتيلا بالاحترام لموقفه إزاء النظام الشيوعي ببولندا.

لقد جاء اختيار كارول فويتيلا غير متوقع لتولي البابوية حينما انتخب للمنصب عام 1978، ولم يكن قد تجاوز الثامنة والخمسين من عمره. وكان فويتيلا هو أول بابا غير إيطالي منذ 450 عاماً وكان يُنظر إليه على أنه غريب على المنصب، وقد تولى البابوية تحت اسم يوحنا بولس الثاني.

وبين أولى زياراته، زيارة قام بها لمسقط رأسه بولندا، وكانت أول زيارة بابوية لبلد تحت حكم شيوعي. غير أن زيارته شجعت الناس وساعدت في زرع بزار الثورة التي قدر لها الميلاد بعد ذلك بعشر سنوات. وبعد اثنين ضعفاء في المنصب، نظر إلى يوحنا بولس الثاني على أنه رجل أفعال.

وأصبح يوحنا بولس الثاني أكثر بابا يقوم بجولات خارجية في التاريخ. وقد حذره مستشاروه من أن نفوذه المتنامي قد يجعله هدفاً للاغتيال، غير أنه لم يقلل من ظهوره بشكل عام.

وفي 13 أيار/مايو 1981، تعرض لإطلاق النار وأصيب برصاص شخص في ساحة القديس بطرس بينما كان يميل لتحية الجماهير.

وبعد فترة طويلة من التعافي التقى البابا مع التركي محمد علي آغا الذي أطلق عليه الرصاص، وأعلن له عن صفحه.

وفي أيار/مايو عام 2000 كشف الفاتيكان عن أن ثلاثة أطفال في البرتغال شاهدوا في العام 1917 رؤية كانت بمثابة نبوءة بمحاولة الاغتيال.

وأطلق على ذلك السر الثالث من أسرار فاتيما ـ نسبة للبلدة التي ينتمي إليها الأطفال الثلاثة في البرتغال ـ وهو الأمر الذي أبقي طي الكتمان لعقود، وتم الكشف عنه تزامناً مع زيارة للبابا لضريح فاتيما. ويعتقد البابا أن العذراء أنقذت حياته.

وقد تم تشديد الأمن المحيط بالبابا منذ محاولة اغتياله عام 1981، واشتهر البابا خلال جولاته الخارجية العديدة بالعربة البابوية التي تنقله.

وأمكن للبابا الوقوف داخل العربة البابوية المحاطة بالزجاج المضاد للرصاص، حيث تشاهده الحشود التي يبادلها التحية.

وقد شهد البابا الكثير من التغيرات السياسية في العالم بما فيها سقوط الشيوعية في شرق أوروبا ونهاية نظام الأبارتيد بجنوب أفريقيا.

وفي أيلول/سبتمبر عام 1995 زار البابا جنوب أفريقيا والتقى في جوهانسبرج أول رئيس أسود للبلاد، نيلسون مانديلا.

وفي السنوات الأخيرة زادت المتاعب الصحية للبابا بسبب التهاب المفاصل وداء باركينسون (الشلل الرعاش).

أجريت له جراحة في الفخذ في نيسان/أبريل عام 1994، وقد سقط مغشياً عليه خلال رحلة لفرنسا عام 1996، ولكنه واصل رحلاته بشكل مكثف.

في العام 1996 دعا البابا إلى انعقاد السينودوس من أجل لبنان، وفي العام 1997 زار لبنان لمدة ثلاثة أيام.

وفي كانون الثاني/يناير عام 1998 زار البابا كوبا وكان فيدل كاسترو في استقباله، وهو الزعيم الشيوعي للبلد الكاثوليكي تقليدياً.

وقف البابا على جبل نبو، غربي عمان بالأردن، حيث يعتقد المسيحيون أن موسى لمح من بعيد أرض الموعد للمرة الأولى. وكان ذلك خلال جولة للأماكن الدينية في العام 2000 تزامناً مع انقضاء الألفية الميلادية الثانية.

وفي شباط/فبراير أصبح أول بابا يزور مصر، التي أغلب سكانها من المسلمين، حيث دعا إلى الوئام بين الأديان. وفي آذار/مارس أعرب عن تعاطفه مع محنة الفلسطينيين، كما أعرب عن حزن الكنيسة للاضطهاد المعادي للسامية الذي ارتكبه المسيحيون ضد اليهود.

وقد وضع البابا يوحنا بولس الثاني جدولاً مضنياً لعام 2000، كما صمم على تزعم المراسم الخاصة بـ «سنة اليوبيل» الكاثوليكية.

وكانت ذروة المراسم الرسالة التي ألقاها خلال عيد القيامة في عظة مفتوحة بساحة القديس بطرس في الفاتيكان.

واحتفل البابا في الشهر الذي تلى ذلك بعيد ميلاده الثمانين.

ورغم ضعفه المتزايد واصل البابا العمل، حيث قام بزيارة مؤثرة لمسقط رأسه بولندا عام 2002 وأعرب عن معارضته لحرب العراق عام 2003.

- من أقواله:

- «إن مستقبل البشرية يتوقف على العائلة. فمن اللازم إذن، وبصورة ملحّة، أن يلتزم كلّ إنسان ذي إرادة صالحة بواجب المحافظة على ما للعائلة من قيم سامية ويعمل على تطويرها».
- «كم أعيش في بالي، تلك اللحظات السعيدة التي سيتاح لي فيها زيارة لبنان، والتقاء جميع أبنائه. إني مشوّق بالفعل إلى الذهاب إلى هناك، لأعرب عن تكريمي لتلك الأرض التي ارتوت بدماء العديد من الضحايا البريئة، ولأكرر ثقتي باللبنانيين وبقدرتهم على العيش معاً، وإعادة بناء لبنان إلى أجمل مما كان عليه»[1].
- «لبنان أكثر من بلد، إنه رسالة».
- «إن زوال لبنان، أو الميزات الخاصة التي جعلت منه رسالة قد يشكل خسارة للعالم لا تُعوَّض».

---

(1) 7 أيلول/ سبتمبر عام 1989.

- «أحثكم أنتم جميعاً أيها اللبنانيون من كل المذاهب، على مواجهة هذا التحدي بنجاح، تحدي المصالحة والأخوة، والحرية والتضامن الذي هو الشرط الأساسي لوجود لبنان، ورباط وحدتكم على هذه الأرض التي تحبون».

- «إن جهود كلّ منكم حباً للربّ ولكنيسته سوف تؤتي الحياة الكنسية والمجتمع اللبناني بأسره ثماراً كثيرة. حيئنذٍ يتمكّن لبنان، الجبل السعيد الذي رأى شروق نور الأمم، وأمير السلام، من أن يُزهر كلياً من جديد، ويلبي دعوته بأن يكون نوراً لشعوب المنطقة وعلامة للسلام الآتي من الله. وهكذا إن الكنيسة في هذا البلد تُفرّح إلهها.

- «في ظروف عديدة نالت العذراء من ابنها ما كانت تسأله ببساطة. وإذا ما كانت، في لطفها، قد تدخلت فلسوف تتدخل أيضاً كي تعرف الكنيسة في لبنان كيف تشهد لمحبة المسيح».

ويحتفظ التاريخ ليوحنا بولس الثاني بكونه أول بابا في التاريخ تطأ قدماه مسجداً في بلد مسلم إذ تم ذلك أثناء زيارة البابا لسوريا في أيار/مايو عام 2001. وكان البابا قد زار عام 1986 المغرب وخرج الآلاف لاستقباله واستمعوا لخطاب ألقاه في أكبر ملعب لكرة القدم بالمملكة.

وفي علاقاته مع اليهودية اعترف الفاتيكان بإسرائيل بشكل رسمي عام 1986 وزار في نفس العام كنيساً في روما مع كل ما يحمله ذلك الاعتراف وتلك الزيارة من أبعاد عقائدية.

وكانت حياة البابا تعرضت في السنوات الأخيرة لعدة انتكاسات صحية وقام بإجراء عدة عمليات جراحية منها عملية أجريت أخيراً في القصبة الهوائية، كما أن إصابته بداء باركنسون (الشلل الرعاش) فاقم من حالته.

وقد أثار البابا جدلاً واسعاً في أوساط اليهود وانتقد الشواذ في هذا المجتمع في كتابه الأخير «الذاكرة والهوية» من خلال مقارنته بين الإجهاض والهولوكوست، ووصفه زواج اثنين من نفس الجنس بأنه جزء من أيديولوجية الشر.

واحتج اليهود بمقارنة البابا بين الإجهاض وبين ما يسمى بمذابح الهولوكوست بالرغم من تبريرات الكنيسة بأن البابا لم يكن يحاول وضع مذابح النازيين الألمان والإجهاض في كفة واحدة، إلا أن ذلك لم يشفع له لدى اليهود.

ولم يعهد عن البابا يوحنا الثاني وجود عداوات بينه وبين آخرين إلا أنه اتهم الكتلة الشيوعية بمحاولة اغتياله على يد شخص يدعى محمد علي آغا في مطلع الثمانينيات من القرن العشرين، كما أنه الوحيد الذي تسلم مقاليد الكنيسة الكاثوليكية الرومانية من غير الإيطاليين منذ أربعة قرون حيث إنه بولندي الأصل، كما يعد أصغر من تسلم مقاليدها حيث كان في الثامنة والخمسين من العمر.

ـ موقفه من العراق وفلسطين:

في آخر لقاء جمع الرئيس الأميركي جورج بوش مع البابا يوحنا، أكد السفير الأميركي لدى الحبر الأعظم جيم نيكلسون أن

«الموقف الأميركي وموقف الفاتيكان غير متعارضين تماماً حول مسألة العراق» زاعماً أن كلا الطرفين يريدان للعراق أن يكون بلداً مستقلاً ينعم بالحرية.

ولكن مصادر الكرسي الرسولي أعلنت بلسان الناطق الرسمي باسم الفاتيكان بأن الحرب على العراق هي ضد جميع الأعراف السماوية.

أما فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية فقد واجه البابا انتقادات لاذعة من قبل المسؤولين الإسرائيليين بسبب لقائه الزعيم الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، حيث كان أول لقاء جمع بينهما في العام 1981، وكذلك استقباله لمسؤولين فلسطينيين آخرين وإدانته الصريحة لبناء الجدار الفاصل.

- رحيل البابا:

2,5 مليون يشيعون البابا يوحنا بولس، وملوك ورؤساء الدول العربية والعالمية يتقدمون المشيعون.

في الثاني من نيسان/أبريل عام 2005 أعلن عن وفاة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني، وبعد مراسم تشييع استمرت ساعتين ونصف، تم نقل جثمان البابا يوحنا بولس الثاني من ميدان القديس بطرس إلى مثواه الأخير في كنيسة القديس بطرس.

وفي تلك الأثناء، كان الملايين في ميدان القديس بطرس ينشدون ويصفقون في مراسم مهيبة، شارك فيها ما يربو على مائة من أبرز الشخصيات العالمية.

وقد شهد الفاتيكان أضخم مراسم دفن يشهدها التاريخ الحديث وسط إجراءات أمنية، بمشاركة خمسة ملوك وخمس ملكات وقرابة سبعين رئيس دولة ورئيس حكومة ومن بين الحضور ملوك وملكات بلجيكا والسويد والنرويج وأسبانيا والدنمرك ورؤساء الدول وفي مقدمتهم رؤساء الولايات المتحدة جورج بوش الأب والابن وبيل كلينتون والفرنسي جاك شيراك والإيراني محمد خاتمي، والإيطالي كارلو تشامبي والبولندي الحالي الكسندر كوازنيفسيكا والسابق ليخ فاليسا، والإسرائيلي موشيه كاتساف والبرازيلي لويز إناسبو لولا دا سيلفا الذي يرأس أكبر بلد كاثوليكي في العالم من حيث تعداد السكان ورؤساء الحكومات، الإيطالي سيلفيو بيرلسكوني، والبريطاني توني بلير ومن العالم العربي عاهل الأردن الملك عبد الله الثاني وقرينته، والرئيس اللبناني إميل لحود والرئيس السوري بشار الأسد ومن مصر السيد فاروق حسني وزير الثقافة مندوباً عن الرئيس حسني مبارك، بالإضافة إلى كوفي أنان الأمين العام للأمم المتحدة، بجانب مليونين من المودعين الذي توافدوا من جميع أنحاء العالم.

وأغلقت السلطات الإيطالية العاصمة روما حيث قامت بمنع حركة السيارات، كما حظرت الطيران فوق سماء المدينة التي انتشرت حولها البطاريات المضادة للطائرات.

وقبل الجنازة، أعلنت جميع الأجهزة الأمنية الإيطالية حالة استنفار لمواجهة جميع حالات الطوارئ من أعمال شغب وعمليات إرهابية.

كشف عن الوصية الروحية للبابا، التي أشارت إلى أنه فكر في

العام 2000 فيما إذا كان عليه أن يقدم استقالته بعد أن قاد الكنيسة الكاثوليكية إلى الألفية الجديدة.

وفي الوصية، التي كتبت على مدى فترة تزيد عن 20 عاماً، أشار البابا أيضاً إلى أنه في بداية توليه البابوية بحث إمكانية تشييع جنازته في بولندا. وتطلب الوصية حرق جميع مذكرات البابا الشخصية.

وكان البابا يوحنا بولس الثاني بابا الفاتيكان قد توفي عن عمر يناهز 84 عاماً بعد صراع طويل مع المرض، وذلك في الساعة التاسعة والنصف من مساء السبت 2 نيسان/ أبريل 2005 بتوقيت روما. وكان البابا قد عاني خلال الأعوام الأخيرة من حياته من متاعب صحية عديدة، وأُدخل المستشفى، حيث خضع لعملية جراحية بسبب ضيق في التنفس وتدهورت صحته في اليومين السابقين للوفاة، بعد إصابته بأزمة قلبية وفقدان الوعي.

وبحسب دستور الفاتيكان الصادر في العام 1996، فإن القداس الديني الجنائزي عند وفاة البابا يجب أن يتم على مدى تسعة أيام، على أن يتم الدفن ما بين اليومين الرابع والسادس اللذين يليان الوفاة.

وفي العام 2006 أطلقت تركيا سراح محمد علي آغا الذي أطلق الرصاص على البابا الراحل يوحنا بولس الثاني وأصابه بجروح خطيرة في العام 1981 بعد حوالي 25 عاماً قضاها في السجن. وقضى آغا 19 عاماً في أحد السجون الإيطالية قبل إصدار عفو عنه بناء على طلب البابا عام 2000. وسلم بعد ذلك إلى تركيا لتنفيذ

عقوبة أخرى بالسجن في اسطنبول بتهمتي السطو والقتل. وبمقتضى القانون التركي خصمت المدة التي قضاها في السجن في إيطاليا من حكم بالسجن 25 عاماً في تركيا لإدانته بقتل رئيس التحرير الليبرالي عبدي أبيكجي عام 1979. وكانت محكمة تركية قد قررت الإفراج عن آغا (48 عاماً) بعد التأكد من أنه أنهى فترة الأحكام الصادرة ضده. وقد نفذ آغا محاولة الاغتيال في ميدان القديس بطرس بإيطاليا بينما كان يقوم البابا بالتلويح إلى الجماهير. وزار البابا الراحل آغا في سجنه حيث أعلن على الملأ أنه صفح عنه. يذكر أن آغا كان في الـ 23 من عمره عندما حاول اغتيال البابا. وتقول أنقرا إنه كان على علاقة وثيقة بمجموعات يمينية متطرفة.

محمد أنور السادات

(1918 - 1981)

محمد أنور السادات أو أنور السادات هو الرئيس الثالث للجمهورية العربية المصرية، وقد أصبح رئيساً عقب وفاة الرئيس جمال عبد الناصر، وحكم جمهورية مصر العربية في السنوات ما بين 1970 و1981. وقد انتهى حكمه باغتياله أثناء الاحتفال بذكرى حرب 6 تشرين الأول/ أكتوبر في العام 1981، حين قام أحد الجنود المصريين ويدعى خالد الإسلامبولي بإطلاق النار عليه أثناء الاستعراض العسكري في الاحتفال.

ولد محمد أنور السادات في 25 كانون الأول/ ديسمبر 1918. ويعتبر ثالث رئيس جمهورية مصرية، إذ أن قيام ثورة الثالث والعشرين من تموز/ يوليو قد أدى إلى تحول جمهورية مصر العربية من الملكية إلى الجمهورية وتولى رئاساتها الرئيس الراحل محمد نجيب كأول رئيس مصري خلفه بعد ذلك الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ومن ثم الرئيس الراحل أنور السادات.

في فترة الحرب العالمية الثانية، كان السادات خلف القضبان لمحاولته الحصول على الدعم من دول المحور لطرد الإنكليز المحتلين لمصر في تلك الفترة. وشارك الرئيس السادات في الانقلاب الذي أطاح بالملك فاروق الأول في عام 1952 وتقلّد عدّة مناصب في حكومة الثورة حتى وصل إلى منصب نائب رئيس الجمهورية في عام 1969، وأصبح رئيساً للجمهورية في عام 1970 عند وفاة الرئيس المصري جمال عبد الناصر.

وفي 6 تشرين الأول/أكتوبر عام 1973، قام الجيش الإسرائيلي بالهجوم على مصر وسورية، فتصدّت له القوات البرية المصرية حيث اقتحمت قناة السويس واستولت على مواقع إستراتيجية فيها، كما قامت القوات السورية باقتحام مواقع إسرائيلية وحققت نجاحاً. وكانت نتيجة هذه الحرب التي عُرفت بـ «حرب أكتوبر»، من أهم عوامل رفع الروح المعنوية المصرية، بل والعربية ومهّدت الطريق لإتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل في الأعوام التي لحقت الحرب.

وفي 19 تشرين الأول/أكتوبر 1977 أصبح الرئيس السادات أول رئيس عربي يقوم بزيارة لإسرائيل والتحدث أمام الكنيست الإسرائيلي بعد دعوة وجهها له رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن. ولم تكن ردود الفعل العربية إيجابية عندما قام الرئيس السادات بزيارة إسرائيل وعملت الدول العربية على مقاطعة مصر وتعليق عضويتها بالجامعة العربية، ونقل المقر الدائم للجامعة العربية

من القاهرة إلى تونس (العاصمة)، وكان ذلك في القمة العربية التي تم عقدها في بغداد بناء على دعوة من العراق في 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1978.

وفي عام 1978، وفي كامب ديفيد، تم عقد إتفاقية سلام بين مصر وإسرائيل بمباركة أميركية، عملت إسرائيل على إرجاع الأراضي المصرية المحتلة إلى مصر. وقد نال الرئيس السادات مناصفة مع بيغن جائزة نوبل للسلام للجهود الحثيثة في تحقيق السلام في منطقة الشرق الأوسط. ولم يفرح العالم العربي بالإتفاقية المصرية ـ الإسرائيلية، وخاصّة المسلمون المتطرفون الذين يرون أن ما أُخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة وخروج مصر من منظومة القوة نتيجة توقيعها إتفاقية سلام مع إسرائيل يقلل من آمال دحر الآلة العسكرية الإسرائيلية.

بحلول عام 1981، انتشرت في مصر حملة اعتقالات واسعة شملت المنظمات الإسلامية، ووصل عدد المعتقلين في السجون المصرية إلى 1600 معتقلاً مما جعل الحكومة المصرية محل انتقاد واستنكار عالميين على إجراءاتها التعسفية.

وفي 6 تشرين الأول/ أكتوبر من نفس العام، تم اغتيال السادات خلال عرض عسكري وقام بتنفيذ العملية الجندي خالد الإسلامبولي المنتمي لمنظمة «الجهاد الإسلامي» التي كانت تعارض بشدّة إتفاقية السلام مع إسرائيل، ولم يرق لها حملة القمع المنظمة التي قامت بها حكومة السادات في شهر أيلول/ سبتمبر.

وقد خلف الرئيس الراحل السادات، نائبه حسني مبارك في رئاسة الجمهورية.

وباستضافة الرئيس السادات لشاه إيران المخلوع محمد رضا بهلوي في القاهرة، سبب السادات أزمة سياسية حادة بينه وبين إيران وتعددت وسائل التعبير عنها من كلا الطرفين بحرب إعلامية كلامية، وبرع الرئيس السادات في هذه الحرب خلال خطبه الأسبوعية في مجلس الشعب المصري. وبعد حادث اغتيال السادات، قامت الحكومة الإيرانية بتسمية أحد شوارع طهران الرئيسية باسم خالد الإسلامبولي.

وفي مطلع عام 2004، طلبت إيران عودة العلاقات الدبلوماسية مع مصر واشترطت مصر تغيير اسم الشارع الذي يحمل اسم خالد الإسلامبولي، ووافقت إيران على تغيير اسم الشارع إلى شارع الانتفاضة.

ـ الرقم 6:

لابد إن الرقم 6 كان رقم أنور السادات! بل لابد أنه كان أهم رقم في حياته وتاريخه ومشواره السياسي.

ففي 6 شباط/ فبراير عام 1938 تخرج من الكلية الحربية، وفي 6 كانون الثاني/ يناير عام 1946 اشترك في اغتيال أمين عثمان، وفي 6 كانون الثاني/ يناير 1950 عاد إلى الخدمة في الجيش بعد أن طُرد منه على أثر مصرع أمين عثمان. وفي 6 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1973 قاد حرب أكتوبر، وفي 6 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1981

اغتيل بطريقة درامية يصعب على خيال أمهر مخرجي الأفلام البوليسية في العالم تصورها. وفي 6 آذار/مارس عام 1982 صدرت الأحكام في قضية اغتياله.

ولابد أن نعترف، أن رقم 6 كان في كل هذه الأحوال، والمناسبات، رقماً قدرياً وليس من اختياره. ولا فضل لأحد في تحديده.

ـ احتفالات 6 تشرين الأول/أكتوبر عام 1981 وعملية الاغتيال:

لم يكن هناك ما يشير إلى أن هذا اليوم سيكون يوماً غير عادي. لم يكن هناك ما يشير إلى أن هذا اليوم سيكون آخر يوم في عمر، وفي حكم السادات.

لم يكن هناك ما يشير إلى أن هذا اليوم الذي يحتفل فيه السادات بذكرى إنتصاره، سيكون هو يوم مصرعه.

في ذلك الصباح وقفت 6 (لواري) عملاقة تحمل جنود الأمن المركزي، خلف جامع جمال عبد الناصر بالقرب من وزارة الدفاع، التي تعوّد السادات زيارتها صباح كل 6 أكتوبر. اصطف جنود الشرطة على طول طريق صلاح سالم، والطرق الفرعية المؤدية إلى أرض العرض العسكري.

أغلقت حواجز الشرطة العسكرية الشوارع الرئيسية في المنطقة. وتولت نقاط الأمن المتعددة، والمتنوعة تفتيش بطاقات المدعوين لحضور العرض، والتأكد من أن سياراتهم الخاصة، لصق على

زجاجها الأمامي، التصريح الأحمر الذي أصدرته إدارة المراسيم في وزارة الدفاع.

إلى هذا الحد كانت تبدو إجراءات الأمن، بل أن إجراءات الأمن وصلت في صرامتها إلى حد منع ضابط برتبة عقيد من سلاح الإشارة ومجموعة صغيرة من المهندسين الضباط من دخول المنصة في الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم.

ـ المنصة:

كان الرئيس محمد أنور السادات يجلس كالعادة في الصف الأول، ومعه كبار المدعوين والضيوف، على يمينه جلس نائبه حسني مبارك، ثم الوزير العماني شبيب بن تيمور، وهو وزير دولة سلطنة عمان، وكان مبعوث السلطان قابوس الذي كان الحاكم الوحيد بين الحكام العرب، الذي لم يقطع علاقته بمصر، ولا بالرئيس السادات بعد زيارته للقدس ومعاهدة «كامب ديفيد».

بعد الوزير العماني، جلس ممدوح سالم، مستشار رئيس الجمهورية الذي كان من قبل رئيساً للوزراء، والذي كان أول وزير للداخلية بعد سقوط مراكز القوى وحركة 15 أيار/ مايو 1971.

بعد ممدوح سالم كان يجلس الدكتور عبد القادر حاتم، المشرف العام على المجالس المتخصصة، وهو من رجال الرئيس جمال عبد الناصر الذين قربهم السادات إليه.

وبعد الدكتور حاتم كان يجلس الدكتور صوفي أبو طالب رئيس

مجلس الشعب. على يسار السادات كان يجلس وزير الدفاع محمد عبد الحليم أبو غزالة، ثم المهندس سيد مرعي صهر السادات، ومستشاره السياسي، وبعده كان عبد الرحمن بيصار شيخ الأزهر، ثم الدكتور صبحي عبد الحكيم رئيس مجلس الشورى، فرئيس الأركان عبد رب النبي حافظ، فقادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة.

وفي الصف الثاني وراء الرئيس السادات مباشرةً كان يجلس سكرتيره الخاص فوزي عبد الحافظ. ولا أحد يعرف بالضبط الحوار، والتعليقات المتبادلة بين السادات ونائبه ووزير الدفاع. لكن بعض المصادر تشير إلى أنهم كانوا يتحدثون عن شحنات الأسلحة الأميركية الجديدة، ومواعيد وصولها، وكانوا يتحدثون عن التحضير للاحتفالات بالانسحاب الإسرائيلي الأخير من سيناء في 25 نيسان/ أبريل عام 1982.

كانت حالة الرئيس السادات النفسية والمعنوية في القمة، وكثيراً ما كان يقف تحية للمارين أمامه، وأحياناً كان يرفع الكاب (الكاسكيت) لهم، وأحياناً كان يصفق لهم، وأحياناً كان يدخن الغليون. ولم يتوقف عن تبادل التعليقات مع نائبه ووزير الدفاع.

بدا العرض العسكري بداية تقليدية، مجموعات من جنود وضباط الأسلحة المختلفة، حملة الأعلام، طلبة الكليات العسكرية، بالونات وألعاب نارية في السماء، ثم جاء دور طائرات (الفانتوم) وراحت تشكيلاتها تقوم ببعض الألعاب البهلوانية، وتنفث

سحاباً من الدخان الملون. وفي نفس الوقت قال المذيع الداخلي: «والآن تأتي المدفعية»، فتقدم قائد طابور المدفعية لتحية المنصة، وهو محاط بعدد من راكبي الدراجات النارية (الموتوسيكلات) وأمام الرئيس ونائبه ووزير الدفاع وكبار القادة والضيوف، وكاميرات التلفزيون تتوقف فجأة، أحد هذه (الموتوسيكلات) أُصيب بعطل مفاجئ غير متوقع واختفى النبض من الموتور تماماً.

لم يتوقف قائد الطابور، حتى لا يرتبك من يتبعونه، وترك قائد الموتوسيكل يتصرف بمفرده، وكان أن نزل الرجل من فوق الموتوسيكل وراح يدفعه بيديه إلى الأمام، وكان من حسن حظه أن معدل سير باقي (الموتوسيكلات) كان بطيئاً يسمح له بملاحقتها، لكنه سرعان ما هبط فوق كتفيه طائر سوء الحظ فزلت قدماه، وانكفأ على الأرض، ووقع الموتوسيكل فوقه، فتدخل جندي كان يقف بالقرب من المنصة وأسعفه بقليل من الماء، ومر الحادث بسلام.

ساهمت في ذلك تشكيلات (الفانتوم) التي كانت لا تزال في السماء، وتسرق أنظار ضيوف المنصة، الذين راحوا يستمتعون ببراعة الطيارين الذين يقودونها.

ـ المفاجأة التي شلت الجميع:

وفجأة، ارتجت إحدى العربات، وانحرفت إلى اليمين قليلاً، وتصور الحاضرون إن السيارة اصابتها لعنة الموتوسيكل وتعطلت، وعندما نزل منها ضابط ممتلئ قليلاً تصوروا إنه سيسعى إلى

إصلاحها، وأنه سيطلب العون لدفعها إلى الأمام بعيداً عن المنصة، كما حدث من قبل في عروض عسكرية سابقة أقيمت في عهدي عبد الناصر والسادات.

لم يشك أحد في عطل العربة ـ الجرار، بل أن قليلين هم الذين انتبهوا لذلك.

وكان أول ما فوجئ به الحاضرون بعد ذلك هو رؤية الضابط الممتلئ الذي قفز من العربة وهو يلقي بقنبلة يدوية، تطير في الهواء ثم ترتطم بسور المنصة منفجرة.

في ذلك الوقت كان المذيع الداخلي يحيي رجال المدفعية ويقول: «إنهم فتية آمنوا بربهم»!! كان ذلك الضابط هو الملازم خالد الإسلامبولي، الضابط العامل باللواء 333 ـ مدفعية.

جرى خالد الإسلامبولي إلى العربة، وفتح بابها، وأمسك بمدفع رشاش عيار 9 ملم من طراز «بور سعيد». في نفس اللحظة، كان هناك فوق صندوق العربة شخص آخر، يلقي بقنبلة أخرى سقطت بالقرب من المنصة بحوالي 15 متراً، وسقط من ألقاها في صندوق العربة، وكان ذلك الشخص هو عطا طايل.

قبل أن ينتبه أحد من الصدمة ألقى خالد الإسلامبولي القنبلة اليدوية الدفاعية الثالثة في اتجاه المنصة، فسقطت بالقرب منها لكنها لم تنفجر هي الأخرى، واكتفت بإخراج دخان كثيف منها. وقبل أن ينتهي الدخان، انفجرت القنبلة الرابعة، وأصابت سور المنصة أيضاً وتناثرت شظاياها في أنحاء متفرقة، لكن هذه الشظايا لم تصب

أحد، وكان السبب هو سور المنصة الذي كان بمثابة الساتر الذي حمى مَنْ خلفها مِنْ شظاياها.

كان رامي هذه القنبلة هو عبد الحميد عبد العال. في تلك اللحظة انتبه أبو غزالة وأحس أن ثمة شيء غير طبيعي يحدث، وقد تأكد من ذلك بعد أن لمح الرشاش في يد خالد الإسلامبولي، واكتشف أنه عارِ الرأس، ولا يضع (البيريه) كالمعتاد. وانتبه الرئيس السادات هو الآخر، وهبَّ من مقعده واقفاً وانتصبت قامته، وغلى الدم في عروقه، وسيطر عليه الغضب وصرخ أكثر من مرة: «مش معقول، مش معقول، مش معقول».

كانت هذه العبارة المكررة هي آخر ما قاله السادات. فقد جاءته رصاصة من شخص رابع كان يقف فوق ظهر العربة ويصوب بندقيته الآلية من عيار 7,92 نحوه. وكان وقوف السادات عاملاً مساعداً لسرعة إصابته، فقد أصبح هدفاً واضحاً، وكاملاً، ومميزاً. وكان من الصعب عدم إصابته، وخاصة أن حامل البندقية الآلية هو واحد من أبطال الرماية في الجيش المصري وقناص محترف. كان ذلك هو الرقيب متطوع حسين عباس علي.

اخترقت الرصاصة الأولى الجانب الأيمن من رقبة الرئيس في الجزء الفاصل بين عظمة الترقوة وعضلات الرقبة، واستقرت أربع رصاصات أخرى في صدره، فسقط في مكانه على جانبه الأيسر، واندفع الدم غزيراً من فمه ومن صدره ومن رقبته، وغطت ملابسه العسكرية ووشاح القضاء الأخضر الذي كان يلف به صدره والنجوم

والنياشين التي كان يعلقها ويرصع بها ثيابه الرسمية المميزة.

بعد أن أطلق حسين عباس دفعة النيران الأولى، قفز من العربة، ليلحق بخالد وزملائه الذين توجهوا صوب المنصة في تشكيل هجومي، يتقدمهم خالد، وعبد الحميد على يمينه، وعطا طايل على شماله. وبمجرد أن اقتربوا من المنصة أخذوا يطلقون دفعة نيران جديدة على السادات. وهذه الدفعة من النيران أصابت بعض الجالسين في الصف الأول، ومنهم المهندسين سيد مرعي والدكتور صبحي عبد الحكيم الذي سارع بالانبطاح أرضاً ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام السادات الذي كان يئن ويتألم ويلفظ أنفاسه الأخيرة. ومنهم فوزي عيد الحافظ الذي أصيب إصابات خطرة وبالغة وهو يحاول أن يكوم الكراسي فوق جسد السادات، الذي ظن أنه على قيد الحياة، وإن هذه المقاعد تحمي حياته، وتبعد الرصاصات المحمومة عنه.

كان أقرب ضباط الحرس الجمهوري إلى السادات عميد اسمه أحمد سرحان، وبمجرد أن سمع طلقات الرصاص تدوي، سارع إليه وصاح فيه: «انزل على الأرض يا سيادة الرئيس، انزل على الأرض».

ولكن كان الوقت ـ كما يقول العميد أحمد سرحان ـ متأخراً وكانت الدماء تغطي وجهه وحاولت أن أفعل شيئاً وأخليت الناس من حوله، وسحبت مسدسي وأطلقت خمسة عيارات في اتجاه شخص رأيته يوجه نيرانه ضد الرئيس.

لم يذكر عميد الحرس الجمهوري من هو بالضبط الذي كان يطلق نيرانه على السادات. فقد كان هناك ثلاثة أمام المنصة يطلقون النيران: خالد، وعبد الحميد، وعطا طايل. كانوا يلتصقون بالمنصة إلى حد أن عبد الحميد كان قريباً من نائب الرئيس حسني مبارك وقال له:

«أنا مش عايزك، إحنا عايزين فرعون». وكان يقصد بفرعون أنور السادات! وأشاح خالد لأبو غزالة قائلاً:

«إبعد» قال ذلك، ثم راح هو وزملاؤه يطلقون الرصاص. فقتل كبير الياوران، اللواء حسن عبد العظيم علام (51) سنة، وكان الموت الخاطف أيضاً من نصيب سبعة آخرين هم مصور الرئيس السادات الخاص محمد يوسف رشوان (50) سنة، وسمير حلمي (63) سنة، وخلفان محمد من سلطنة عمان، وشانج لوي أحد رجال السفارة الصينية، وسعيد عبد الرؤوف بكر.

وقبل أن تنفذ رصاصات خالد الإسلامبولي، أصيب الرشاش الذي في يده. وهذا الطراز من الرشاشات معروف أنه سريع الأعطال خاصة إذا امتلأ خزانه بـ 30 طلقة بخلاف 5 طلقات احتياطية. وقد تعطل رشاش خالد بعد أن أطلق منه 3 رصاصات فقط.

مد خالد يده بالرشاش الأخرس إلى عطا طايل الذي أخذه منه وأعطاه بدلاً منه بندقيته الآلية واستدار عطا طايل ليهرب، لكنه فوجئ برصاصة تأتي له من داخل المنصة وتخترق جسده.

في تلك اللحظة فوجئ عبد الحميد أيضاً بمن يطلق عليه الرصاص من المنصة. أصيب بطلقتين في أمعائه الدقيقة ورفع رأسه في اتجاه من أطلق عليه الرصاص ليجد رجلاً يرفع طفلاً ويحتمي به كساتر فرفض إطلاق النار عليه، وقفز خلف المنصة ليتأكد من أن السادات قتل. واكتشف لحظتها أنه لا يرتدي القميص الواقي من الرصاص. وعاد وقفز خارج المنصة وهو يصرخ: «الله أكبر الله أكبر!» في تلك البلبلة نفذت ذخيرة حسين عباس فأخذ منه خالد سلاحه وقال له:

«بارك الله فيك.. إجرِ.. إجرِ..» ونجح في مغادرة أرض الحادث تماماً، ولم يقبض علية إلا بعد يومين. أما الثلاثة الآخرون فقد أسرعوا - بعد أن تأكدوا من مقتل الرئيس - يغادرون موقع المنصة، في اتجاه رابعة العدوية. وعلى بعد 75 متراً وبعد قرابة دقيقة ونصف انتبه رجال الحرس وضباط المخابرات الحربية للجناة فأطلقوا الرصاص عليهم فأصابوهم فعلاً، وقبضت عليهم المجموعة 75.

بعد أن أفاق الحرس من ذهول المفاجأة، وبعد إصابة المهاجمين الثلاثة، بدأ إطلاق النار عشوائياً على كل من يرتدي الزي العسكري، ويركض في نفس الاتجاه الذي كان يركض فيه الجناة، فأصيب 3 أشخاص.

وفيما بعد ثبت من تحقيقات المحكمة أن عبد الحميد وعطا كانا ينزفان وهما يركضان. وثبت أيضاً أن رجال المجموعة 75

أخذوا أسلحتهم بعد إصابتهم. وثبت كذلك أن بعض هذه الأسلحة كان فيها ذخيرة.

وقال العقيد محمد فتحي حسين قائد المجموعة 75 أمام المحكمة: «إن أسلحة بعض المتهمين كان فيها ذخيرة وأنهم لم يردوا على رجال المخابرات عندما أطلقوا عليهم الرصاص. وكان عدم الرد على رصاص رجال المخابرات الحربية قناعتهم بانتهاء مهمتهم عند قتل السادات، ولأنهم اعتبروا أنفسهم شهداء منذ تلك اللحظة.

وفيما بعد شوهد ممدوح سالم في الفيلم التلفزيوني الإيطالي الذي صور الحادث وهو يلقي عدداً من المقاعد في اتجاه الرئيس السادات وشوهد وهو يشد الرئيس حسني مبارك إلى أسفل. وشوهد نائب رئيس وزراء سابق وهو يتسلل باحثاً على مهرب من هذا الجحيم.

- جيهان السادات:

عندما جرى إطلاق النار كانت جيهان السادات، وأحفادها في غرفة خاصة تطل على أرض العرض، ومحجوزة عن المنصة الرئيسية بزجاج حاجز.

رأت جيهان السادات ما حدث خطوة بخطوة، طابور المدفعية، أسراب الطائرات، نزول الإسلامبولي من العربة، الانقضاض على الرئيس، القنابل التي انفجرت، الرصاص الذي دوى، وزوجها وهو يقع على الأرض.

كانت تتمتع بهدوء الأعصاب، حتى إنها لم تغضب إلا عندما وصلت المشاهد الدرامية أمامها إلى ذروتها، وسقط زوجها مضرجاً بدمائه.

لحظتها قالت جيهان السادات لسكرتيرتها: «مدام صادق.. دول مجانين».

وعندما راحت فايدة كامل المطربة والمحامية، وعضو مجلس الشعب، وزوجة وزير الداخلية النبوي إسماعيل تصرخ وتولول، نهرتها جيهان السادات وهي في حالة ذهول، وقالت لها: «اسكتي.. لو متنا فلنمت بشرف!»

سكتت فايدة كامل لحظة ثم صرخت: «محمد.. محمد.. هاتوا لي محمد.. يا خرابي يا محمد».

وكان محمد هو محمد النبوي إسماعيل زوجها، الذي نجح في الهرب من مكان الحادث في سيارة ضابط ملازم أول، ولم يظهر إلا بعد أن اكتشف أن الحادث لم يسفر عن انقلاب.

واندفعت جيهان السادات إلى باب الغرفة لتحاول الوصول إلى زوجها لكن أحد الحراس، منعها من ذلك بشدة، وأمسك بذراعها، وألقى بها على الأرض من أجل سلامتها.

ـ عملية الـ 40 ثانية:

استغرقت العملية 40 ثانية، أي أقل من دقيقة، أقل من دقيقة من لحظة نزول الإسلامبولي إلى لحظة انسحابه هو والآخرين.

كانت كل ثانية من هذه الثواني بالنسبة للجالسين في المنصة دهراً. كانت كل ثانية هي الموت بعينه حتى بالنسبة للذين نجوا بعمرهم وبقوا على قيد الحياة.

كان مشهد المنصة فريداً من نوعه، قتلى وجرحى، فوضى ودماء. كراسي مقلوبة، كتل متناثرة من اللحم البشري، ذعر وخوف وأنين، ذهول وارتباك وحيرة، ومفاجأة شلت الجميع، وصدمة عنيفة كانوا في حاجة لبعض الوقت لكي يفيق الأحياء والجرحى منها.

فيما بعد ثبت من التحقيقات التي أجرتها النيابة العسكرية والمحكمة أن عطل (الموتوسيكل) الذي وقع قبل وقوف عربة خالد الإسلامبولي وهيأ الأذهان لاحتمال عطلها هي الأخرى، ليس له أية علاقة بحادث الاغتيال.

كذلك ثبت من التحقيقات إن سائق السيارة لا علاقة له بالجناة ولا بخطتهم.

كذلك ثبت أن السادات طلب من القناص الذي كان يجلس على مقعد أسفل المنصة الرئيسية أن يترك مكانه ويصعد إلى خلف المنصة، قال الجندي: «لقد قال لي الرئيس ارجع إلى الخلف يمكن (عبود الزمر) يجي من ورا»!! كذلك ثبت أن السادات لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يحملوه خارج المنطقة.

بجانب القتلى، جرح 28 شخصية أخرى كان على رأسهم وزير الدفاع أبو غزالة، وكانت إصابته سطحية، واللواء محمد نبيه رئيس

هيئة التدريب بالقوات المسلحة، وكلود رويل سفير بلجيكا، وشبيب بن تيمور وزير الدولة العماني وعدد من الضباط المصريين والأميركيين.

وفيما بعد اتضح أن من بين المصابين بعض الضباط الأميركيين والكوريين ممن كانوا يساهمون في حماية الرئيس أنور السادات. فقد ظهر أن الرئيس السادات كان قد كون جماعة خاصة من عناصر أميركية، وكورية (كوريا الجنوبية) وصينية (الصين الوطنية) لحراسته.

هذا ما حدث يوم الاغتيال. هذا ما حدث في أسوأ يوم يحمل رقم 6 في عمر وتاريخ ومشوار السادات.

لوي دولامار

(1981)

التحقيق في اغتيال السفير الفرنسي في العام 1981 في بيروت لوي دولامار، وصل إلى الطريق المسدود... ذلك ما أوضحه المحققون اللبنانيون المنصرفون منذ وقوع الجريمة، ظهيرة الرابع من أيلول/سبتمبر، إلى تلمس دوافع الجريمة، والآثار التي تركها المجرمون، تحت أضواء أمنية وسياسية خافتة.

فقد انطلق المحققون في اتجاهين قوسيين، على أمل الالتقاء عند نقطة تعانق الأصفاد بمعاصم الفاعلين، وفق الطريقة البوليسية الصحيحة. الاتجاه الأول ركّز على الدافع الجرمي، بوصفه من النوافذ الأساسية للإطلالة على هوية المجرمين، والاتجاه الثاني تتبع الأثر الجرمي والأدلة الثبوتية، لكونه الطريق الطبيعي والتقليدي الموصل إلى المنفذين.

فالدافع للجريمة، سياسي بالتأكيد، إلا أن المطلوب، معرفة أية سياسة، بل أي موقف سياسي، لفرنسا أو لسفيرها، أباح قتله، ليصبح بالإمكان الاستدلال على الجهة المتضررة وبالتالي الدافعة لارتكاب الجريمة. وهناك أكثر من جهة أجنبية ودولية تشعر

بالانزعاج والريبة والقلق من غرام فرنسا بلبنان، سلطة وأرضاً وسيادة مطلقة، أو من الدور الفرنسي المشبوه مما يجري على أرض لبنان، وقياس عمق انزعاج هذه الجهة الأجنبية أو تلك، ومن منها متضررة أكثر، وبالتالي لها مصلحة أكثر من رد الفرنسيين إلى حدود بلادهم.

فاختيار دولامار، كهدف للناقمين على السياسة الفرنسية، ليس شرطاً أن يكون شخصياً، عقاباً له على مواقف اتخذها أو تقارير أرسلها إلى حكومة بلاده، ربما وقع الاختيار عليه لكونه فقط يقيم في بيروت، بوصفها العاصمة الأكثر فلتاناً وتسيباً في الوطن العربي وفي العالم، وبالتالي الأنسب مكاناً ومناخاً لتصفية الحسابات الدولية والمؤامرات الصامتة.

لكل هذه الأسباب لم تشأ باريس أن تحمّل بيروت فوق طاقتها، ولم ترسل محققين للإطلاع أو للمساعدة، حتى لا يفسر موقفها تجاوزاً على السيادة اللبنانية، أو تشكيكاً بقدرة الأجهزة الحكومية الشرعية، على القيام بواجباتها. فضلاً عن أن إيفاد محققين فرنسيين، لن يغير من طبيعة الغموض المحيط بالتحقيقات شيئاً، فالمشكلة هنا، ليست مشكلة محققين، بل مشكلة ظروف أمنية، تربك المحققين، وتكبل أيديهم.

وانسجاماً مع هذا الموقف، فإن موفد الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران إلى بيروت حرص على إعطاء زيارته الطابع الإنساني التضامني مع موظفي السفارة الفرنسية بعد الذي حلّ برئيسهم المباشر. وقد سارع إلى نفي إجتماعه بالنائب العام التمييزي الشيخ

كميل جعجع، رداً على ما نشرته بعض الصحف، تأكيداً لهذا الموقف، وحتى لا تعطى لزيارته أية تفسيرات تدخلية ضاغطة.

وفي هذا الصدد، فإن واشنطن لم تكن مرتاحة للدور الفرنسي في لبنان، على إعتبار أن عصر الإمبراطوريات الاستعمارية قد انتهى واندثر منذ فشل العدوان الثلاثي على مصر في العام 1956.

وقد تتبع المحققون السيارة التي قيل أنها من طراز «ب. أم. ف» وفقاً لشهادة سائق سيارة السفير حسام الدين زرزور اللبناني ـ الذي يعمل بخدمة السفارة منذ مدة طويلة، حيث حل محل والده الذي أمضى بخدمتها 38 سنة متواصلة ـ على أن حالة الارتباك التي تملكت السائق مذ وقوع الجريمة كادت تنعكس على سير التحقيقات، إلى درجة حولت التحقيق من الإشفاق على السائق إلى إساءة الظن به، لولا أن سجله بالسفارة ناصعاً ونقياً، إلا من حادثة سلب تعرض لها في تموز/يوليو، وانتهت بتشليحه سيارة السفارة.

لقد كان حسام شقي الطالع، فهو لم يعتد قيادة سيارة السفير، فسائق سيارة السفير هو جوزيف واكيم. إلا أن تعديلات طرأت مؤخراً على جدول مناوبات السائقين، حتمت أن يصبح حسام الشاهد الرئيسي والأساسي على اغتيال أول سفير لفرنسا في لبنان.

لقد أشار السائق بادئ الأمر إلى وجود سيارتين، إحداهما أميركية، والثانية من طراز «ب. أم. ف»، وأعطى من أوصافهما ما أمكنه مشاهدته أو ما أسعفته الذاكرة، بعد طول تفكير وتركيز،

حيث أنه لم يجزم بأن سيارة الجناة كانت «ب. أم. ف» إلا بعد جولة ميدانية في أشكال وأنواع السيارات الأخرى المشابهة.

قال: لقد صعقت للحادث، أطلقوا النار على السفير فيما كنت أهم بالإقلاع، بناءً لطلبه وبعدما رفع زجاج نافذته حاسماً الحديث مع المسلحين الأربعة، الذين جاؤوا يفاوضونه على خطفه. ولما لعلع الرصاص وضعت يدي على أذني متوقعاً الموت لي أيضاً، دون أن أجرؤ على التطلع يمنة أو يسرة، إلا أنني لمحت أحدهم وكان أشقر.

وقد فهم المحققون حالة السائق حسام، وأمهلوه بضعة أيام علّه يستعيد روعه، وبعد استعادة الوعي، لم يدل بجديد، إنما كرر أقواله مع تركيز أفضل.

ومع ذلك، فإن استقصاء السيارات المشتبه بدورها في الجريمة، لم يفض إلى النتيجة المرتجاة بعد. فهناك آلاف السيارات من النوع المشارك في جريمة الاغتيال، والأوصاف، أو الأرقام المعدودة التي أعطاها بعض المارة للسيارة الرئيسية الجانية لا تكفي. وهناك آلاف من السيارات التي تتجول بلوحات مزيفة، أو حتى بدون لوحات الأمر الذي جعل البحث عن السيارة أشبه بالبحث عن إبرة في الصحراء.

لقد تناول التحقيق سيارتين من هذا النوع، تحملان أوصافاً متشابهة، الأولى ثبت أن صاحبها شبه مهاجر وهي متوقفة منذ فترة أمام منزله في الشمال، والثانية حضر صاحبها علي محمد بنوت بنفسه من الجنوب ليؤكد أنه باعها، وأن أوصافها لا تنطبق على

الأوصاف المسجلة في محاضر تحقيقات الشرطة. وفي ضوء ما تقدم، نستطيع أن نقول بأن التحقيق في هذه الجريمة دخل في الطريق المسدود!؟

وأوضحت دوائر التحقيق الأمنية بأن الجرائم الكبرى، نادرة الاكتشاف، إلا بالمصادفة، كما حصل بجريمة اغتيال السفير الأميركي في لبنان فرنسيس ميلوي، التي اكتشفت في كندا، عن غير قصد. وحتى لو اكتشفت فمن النادر إعلانها على الملأ. فالمحاكمات وتنفيذ الأحكام في الجرائم الدولية، غالباً ما تحصل بواسطة الكمائن الطيارة والمسدسات الصامتة. وما أخذ بالسيف، بالسيف يؤخذ!!

أما التحقيقات البوليسية، واستدعاء الشهود، وإطلاق الشائعات والتكهنات، فهي مجرد كليشيهات داخلية، لإثبات الوجود البوليسي والأمني الذكي، ولإغناء خزائن النيابة العامة بالدعاوى المحفوظة، والتي تسجل غالباً ضد مجهول، أو قيد البحث والمتابعة.

تشارلز روبرت راي
(1939 ـ 1982)

البعض يسمونه الإرهاب الدولي، وآخرون يسمونه العنف الثوري، ولكن الملاحظ للعيان أن هذا العنف الثوري بدأ يجتاح المؤسسات والشخصيات الأميركية في أوروبا الغربية وبخاصة إيطاليا، وفرنسا، وألمانيا الغربية.

والملاحظ أيضاً هو أن هذا العنف الثوري تنامى مؤخراً في أعقاب المظاهرات الحاشدة في أوروبا الغربية المحتجة على خطط الولايات المتحدة لنشر صواريخ نووية جديدة من طراز «بيرشينغ 2» و«كروز» على الساحة الأوروبية في العام 1983، مقابل نشر الإتحاد السوفييتي صواريخ «أس أس 20» المتوسطة المدى.

وتظل إيطاليا المسرح الكبير، لهذا العنف الثوري، بالرغم من أن قواعد أميركية في ألمانيا الغربية تعرضت هي الأخرى لأعمال تفجير عديدة في السنوات الأخيرة، وكذلك فرنسا حيث قتل في العام 1982 مساعد الملحق العسكري الأميركي، بعد أن تعرض القائم بالأعمال الأميركي من قبله لمحاولة اغتيال.

كان بوليفار ـ إميل ـ أوجييه، أحد أهدأ أو أجمل شوارع باريس

حيث يسكن تشارلز روبرت راي مساعد الملحق العسكري الأميركي في السفارة الأميركية بباريس، مسرحاً لعملية اغتيال.

بينما كان مساعد الملحق العسكري الأميركي يسير باتجاه سيارته الشفروليه في التاسعة صباحاً للذهاب إلى عمله في السفارة، توجه نحوه رجل يحمل مسدساً من عيار 7,65، وهذا الرجل المجهول أطلق من مسدسه طلقة واحدة، وسقط راي صريعاً.

الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران أمر بتحقيق مكثف بهذه الجريمة. ولكن البوليس لم يكتشف حتى الآن ما إذا كانت الجريمة متعلقة بمحاولة الاغتيال التي حصلت قبل شهرين والتي تعرض لها القائم بالأعمال الأميركي كريستيان شابمان.

السفير الأميركي إيفان كالبريت قال: «إن عملية الاغتيال هي من صنع شخص محترف». كان مقتل راي مشابهاً للهجوم على شابمان، وفي الحالتين، كان القاتل رجلاً وحيداً، اصطاد دبلوماسياً خارج منزله متوجهاً إلى عمله، الشهود وصفوا كلا القاتلين بأنهما شرق أوسطيان. كما أن الذخيرة كانت واحدة.

التحقيقات المخبرية الدقيقة أثبتت أن الرصاصات أطلقت من نفس المسدس، ولكن هناك بعض الشكوك لأن الرصاصة الفارغة، التي قتلت راي لم يعثر عليها بعد.

يقول أحد المسؤولين الفرنسيين: «إن الفرضية القائمة هي أن القاتل بعد أن أخطأ شابمان، ذهب إلى شخص آخر أقل حماية. الهدف كان الحصول على صيد أميركي».

مسؤولون آخرون قالوا: «إن قاتل راي قصير ومحترف، بينما كان مهاجم شابمان طويلاً وغير محترف، إذ أطلق سبع رصاصات ولم يصب هدفه!».

كريستيان شابمان كان دبلوماسياً معروفاً يعيش في مسكن دبلوماسي معروف منذ مدة، بينما الكولونيل راي وهو مسؤول صغير من حيث الرتبة لا يعرفه أحد ويسكن في باريس منذ 18 شهراً فقط. قال أحد الدبلوماسيين الأميركيين «إذا كان الهدف هو الكولونيل راي، فلا بد أنهم أردوه لسبب محدد».

وبالرغم من أن راي 43 سنة، كانت وظيفته تقديم التقارير عن إنتاج السلاح الفرنسي، فإن له تاريخاً حافلاً في الاستخبارات، لكن أحد المسؤولين في البتاغون قال مؤخراً:

«إنني أقسم بالإنجيل المقدس أن الكولونيل راي لم يكن متورطاً في أي أعمال استخبارية!!».

الرئيس ميتران وعد بحماية أكبر للـ 450 أميركياً العاملين في السفارة الأميركية في باريس، كما أن السفير الأميركي غالبريت شكل قوة ضاربة لدراسة مسألة الأمن.

السفير بدأ يركب سيارة مصفحة زنة 6 طن من نوع كرايزلر، كما أن المسؤولين الكبار في السفارة بدأوا يتلقون مساندة بوليسية على الطريق.

لكن المسؤولين الفرنسيين والأميركيين يعترفون بأن الحماية الكاملة لكل العاملين في السفارة مكلفة للغاية.

يقول أحد المسؤولين الأميركيين: «علينا أن نتعود على الفكرة بأن هذه الأوقات خطيرة، وعلينا أن نكون أكثر حذراً».

والعنف الثوري، ومسلسل الاغتيالات في أوروبا ضد المصالح والشخصيات الأميركية، سيبقى مستمراً مدة طويلة من الزمن، على الرغم من الجهود التي تبذلها الاستخبارات في الدول الغربية ضد الإرهاب ورموزه. فهم يختارون أهدافهم بعناية فائقة، ومعظمهم من السياسيين، والعسكريين، ورجال الأعمال، وينفذون خططهم بالكثير من المهارة والاحتراف. وفي هذا الصدد يقول أحد ضباط مكافحة الإرهاب: «إنهم يملكون استراتيجية منظمة للغاية ومثيرة للرعب».

اتهمت الشرطة الفرنسية الفصائل الثورية اللبنانية بالتورط في حادثة الاغتيال، وألقت القبض في العام 1984 على اللبناني جورج إبراهيم عبد الله وحكم عليه بالسجن لمدى الحياة.

وفي 5 آب/أغسطس عام 2005 رفض القضاء الفرنسي طلبات الإفراج عن اثنين ممن يعتبرون من وجوه «الإرهاب» في الثمانينات والمعتقلين في فرنسا، أحدهما جورج إبراهيم عبد الله القائد السابق للفصائل الثورية اللبنانية المسلحة، حسب وكالة «فرانس برس». ويعتقل عبد الله (50 عاماً) وريجيس شلايدر (41 عاماً) العضو السابق في حركة «العمل المباشر»، منذ العام 1984، ويمضي كل منهما عقوبة بالسجن المؤبد.

وكان حُكم على عبد الله في شباط/فبراير عام 1987 بعد إدانته بعملية اغتيال دبلوماسيين اثنين في باريس في العام 1982

هما الأميركي تشارلز روبرت راي والإسرائيلي ياكوف بارسيمانتوف وبالتآمر لاغتيال القنصل الأميركي في ستراسبورغ روبرت أونان هوم في العام 1984. وكانت موجة الاعتداءات التي جرت في شتاء 1985 ـ 1986 في باريس (13 قتيلاً وأكثر من 250 جريحاً) تهدف خصوصاً إلى الإفراج عن جورج إبراهيم عبد الله.

أما شلايدر فقد حكم عليه مرتين بالسجن المؤبد من قبل محكمة الجنايات في باريس، في العام 1988 بعد إدانته بعمليات سطو ومحاولات قتل رجال شرطة ارتكبتها مجموعته في حركة «العمل المباشر»، وفي العام 1987 بعد إدانته بالمشاركة في مقتل رجلي شرطة في باريس في 31 أيار/مايو عام 1983.

واستأنف الرجلان المعتقلان في مولان قراراً برفض الإفراج عنهما صدر عن محكمة الدرجة البدائية في تشرين الثاني/نوفمبر 2001. وفي جلسة الاستماع في الأول من آذار/مارس، طلب المدعي العام جان ايف لوناي رفض استئنافهما وتثبيت هذا القرار.

ـ مطالبة لبنانية بتحرك رسمي لإطلاق جورج عبد الله[1]:

وجه مركز «الخيام لتأهيل ضحايا التعذيب» مذكرة إلى الرؤساء الثلاثة ووزيري الخارجية والعدل، أثار فيها قضية احتجاز المواطن اللبناني جورج إبراهيم عبد الله في فرنسا منذ العام 1984. وطالب المركز الدولة اللبنانية بالتحرك للإفراج عنه.

وجاء في المذكرة، نحيطكم علماً بأن السلطات الفرنسية تحتجز

(1) جريدة «المستقبل»، 6 آب/أغسطس عام 2005 ـ العدد 2000.

المواطن اللبناني جورج إبراهيم عبد الله منذ العام 1984 بتهمة تورطه في اغتيال الأميركي تشارلز روبرت راي والإسرائيلي ياكوف بارسيمنتوف عام 1982 وقد حُكم عليه بالسجن المؤبد منذ العام 1987 من دون أي قرائن وإثباتات تدينه.

وحسب القوانين الفرنسية، فإن جورج إبراهيم عبد الله كان يتوجّب إطلاقه في العام 1999 بناء على قانون العقوبات الفرنسي، ولكن نتيجة ضغوط اللوبي الصهيوني والأميركي، فإن جورج عبد الله ما زال مُحتجزاً في السجون الفرنسية من غير وجه حق ويخالف كل القوانين الدولية.

ويوم الأربعاء في 27 تموز/ يوليو عام 2004، كان جورج عبد الله على موعد مع هيئة إطلاق السراح المشروط، إلا أن النيابة العامة الفرنسية أعادت تسويق المبررات السابقة والمُستهجنة نفسها، من أن جورج إبراهيم عبد الله له علاقات مع منظمات إرهابية في تركيا وأفريقيا وينظّم اعتصامات تضامن في سجنه مع الشعب الفلسطيني، ولم تساهم سنوات الاعتقال في تغيير عقليته، فتم تمديد اعتقاله.

إن استمرار اعتقال جورج إبراهيم عبد الله ليست له أي مبررات قانونية، وبقاؤه في المعتقل رضوخ فرنسي للإملاءات الأميركية والإسرائيلية، ما يتطلّب من الدولة اللبنانية التحرك للمطالبة الرسمية والحازمة بالإفراج عنه.

وفي السادس عشر من نيسان/ أبريل 2005 نقل جورج ابراهيم عبد الله إلى مستشفى «لانمزان» ومنه إلى مستشفى «تارب»

جنوب غرب فرنسا، إثر إصابته بجلطة خفيفة في المخ، حيث أجريت له أشعة مقطعية «سكانر»، ومن ثم تم نقله إلى قسم جراحة الأعصاب في مستشفى «رانغيل» في تولوز حيث وضع تحت المراقبة الطبية لمدة ثلاثة أيام قبل أن يعاد إلى مستشفى «لانمزان» بناءً على طلبه.

بشير الجميل

(1947 ـ 1982)

ساعد بروز الرئيس اللبناني الأسبق بشير الجميل ثم اغتياله بعد ذلك عام 1982 على تطور الأحداث السياسية بصورة سريعة وخطيرة، إذ أعقبته مباشرة مجزرة صبرا وشاتيلا التي كانت سبباً مباشراً في تصاعد عمليات المقاومة المسلحة للوجود الإسرائيلي في لبنان، وبروز تشكيلات سياسية تتبنى نهج المقاومة المسلحة كان أبرزها «حزب الله» الذي نجح في إسدال الستار في العام 2000 على هذا الوجود بعد 22 عاماً من الإحتلال.

ولد بشير الجميل في بيروت عام 1947 لأسرة من ستة أبناء كان هو أصغرهم. والده الشيخ بيار الجميل مؤسس ورئيس «حزب الكتائب» اللبناني آنذاك.

انتسب عام 1962 لحزب الكتائب وأصبح عضواً في قسم الطلبة، ثم شارك عام 1968 في مؤتمر طلابي نظمته جريدة «الشرق» عقب الأحداث التي جرت في الجامعات بين الطلبة اليساريين المؤيدين للفلسطينيين في لبنان والطلبة اللبنانيين والقوميين.

اختطف بشير الجميل عام 1970 من قبل مسلحين فلسطينيين وأطلق سراحه بعد ثماني ساعات، لكن هذه الحادثة كان لها تأثير في الأوضاع السياسية اللاحقة.

أصبح بشير الجميل في العام 1973 نائباً لرئيس «حزب الكتائب» بقطاع الأشرفية في العاصمة بيروت، وفي العام 1976 عين نائباً ثم رئيساً للمجلس العسكري للحزب، والتقى في تلك السنة بزعيم الطائفة الدرزية كمال جنبلاط واتفق الاثنان على توحيد الفصائل اللبنانية لمقاومة انتشار الجيش السوري في لبنان، كما شكل أيضاً ما يعرف بالقوات اللبنانية الموحدة وترأس مجلس قيادتها.

اختير عضواً في جبهة «الإنقاذ الوطني» التي أسسها الرئيس الأسبق الياس سركيس والتي كانت تضم الكثير من القادة المسلمين والمسيحيين اللبنانيين.

بعد دخول القوات الإسرائيلية لبنان في العام 1982 تم انتخابه من قبل البرلمان اللبناني رئيساً للجمهورية اللبنانية يوم 23 آب/ أغسطس 1982، واغتيل مع عدد من زملائه في انفجار بمقر قيادة الكتائب في قطاع الأشرفية يوم 14 أيلول/ سبتمبر عام 1982.

- فكر بشير الجميل:

غادر المحامي بشير الجميل مكتبه في شارع الحمراء في نيسان/ أبريل عام 1975 كان يعرف تماماً أنه مدعو ليكون الدرع الواقية للوطن الذي سيقف بوجه تعديات الغرباء. ولكن ما كان بشير

الجميل يجهله آنذاك هو أن القدر سوف يختاره في يوم من الأيام ليقود اللبنانيين في أطول وأخطر أزمة مصير عرفوها.

فالحرب الطويلة على الوطن الصغير أخذت أشكالاً متعددة، وكان على هذا الرجل في كل مرحلة منها أن يفكر ويقرر ويفعل، لأنه القائد الذي بنيت عليه الآمال وعلى صورة طموحه رسمت الأحلام. ولكي تكون كل خطوة يقوم بها فعالة ومفيدة.

كان على الشيخ بشير أن يلم بكل المواضيع التي تتعلق بمقومات لبنان، إجتماعية كانت أم إقتصادية، أم سياسية، فيدرس طبيعتها ويحلل مضامينها، ويحاول تصحيح مسارها ليكون هذا التصحيح الدواء الشافي للبنان المريض. لم تكن مهمة بشير الجميل سهلة خصوصاً إذا عرفنا مدى الغموض الذي اكتنف العلاقات بين الأفراد والجماعات اللبنانية منذ ولادة الميثاق الوطني سنة 1943، هذا الغموض الذي ساهم إلى حد كبير، في تأجيج نيران الحرب وبتهديد الكيان بالزوال. لذا كان على بشير أن يوضح معالم هذه العلاقات ويعمل على رفض السيئ منها، وعلى تقوية وتنمية المفيد منها. وكان على الشيخ بشير أيضاً أن يقترح بنية جديدة للعلاقات بين أبناء المجتمع اللبناني مستمدة من واقع التركيبة اللبنانية وقابلة للثبات أمام الأزمات. وأكثر من ذلك أراد الشيخ بشير أن تقوم هذه العلاقات الجديدة بين أفراد ومجتمعات ومؤسسات لبنانية واضحة المعالم، محددة الأهداف موحدة الانتماء، قادرة على تأمين نجاح الرهان اللبناني وديمومته.

من البديهي ألا يكون هذا المشروع الكبير وليد ساعته، بل هو وليد تأمل عميق رافق بشير ساعة بعد ساعة في أثناء رحلته مع المقاومة اللبنانية.

فإلى جانب الأجوبة المتعددة التي كانت تعطيها المقاومة عن مواضيع متنوعة كان على بشير الجميل أن يعطي أجوبة أيضاً عن أسئلة دقيقة كانت تراود أفكار الكثيرين من اللبنانيين مع أنهم كانوا يسألون عنها علناً: هل هناك مجتمع لبناني واحد؟ ما هو المجتمع المسيحي اللبناني؟ ما هو المجتمع المسلم اللبناني؟ كيف يجب أن يتم التعامل بينهم؟ ما هو دور الفرد والدولة في هذا المجال؟

في الأسطر التالية سنحاول أن نكتشف المقومات التي رآها بشير الجميل مناسبة للمجتمع اللبناني، مستندين إلى تصاريحه ومواقفه منذ بداية الحرب سنة 1975 حتى ولادة الأمل في انبعاث لبنان مجدداً في صيف العام 1982. هذه المواقف مجتمعة تعطينا صورة واضحة عن هذا القائد الذي لم تكن مهمته فقط الذود عن الكرامة اللبنانية بل بناء وطن جديد أكثر مناعة وقوة وقدرة على تحدي المصاعب.

ـ مقومات المجتمع في تصاريح بشير الجميل:

إن الرسم الذي وضعه الشيخ بشير الجميل للمجتمع اللبناني يمتاز بصفتين أساسيتين: الصفة الأولى جامدة تظهر لنا كيف تخيل بشير الجميل تركيبة المجتمع اللبناني ببساطة وواقعية في آن، والصفة الثانية ديناميكية تبين لنا كيفية حصول التفاعلات

والاحتكاكات بين أعضاء هذا المجتمع وأجزائه. هذا الرسم البسيط لواقع معقد سوف يساعدنا على فهم قضايا سياسية وإقتصادية وأخلاقية وإجتماعية حاصلة بعد أن نكون قد حددنا لها مكاناً ودوراً في هذا الرسم العام. المهم في الأمر ليس حقيقة الخلاف أو الوفاق في التفاعلات بين أعضاء الجسم اللبناني، بل إيجاد وسيلة فعالة لمراقبتها عن كثب وتوجيهها في المسار الصحيح، وفي الأسطر التالية سوف نحاول الغوص في تفاصيل هذا الرسم الذي تخيله الشيخ بشير الجميل لمجتمعنا آخذين بعين الاعتبار أنه تكوّن لديه شيئاً فشيئاً في أثناء رحلته الطويلة مع المقاومة.

ـ المجتمع اللبناني:

يقول بشير الجميل في مقابلة أجريت معه في جريدة «القبس» في العام 1980: «الواقع المجتمعي اللبناني واقع جماعات وطوائف. ولقد ثبت للمؤرخ وللباحث الإجتماعي على نحو قاطع أن كل جماعة وطائفة متمسكة بخصوصياتها وليس في ذلك أي عيب وليس فيه من حيث المبدأ أي تناقض مع إرادة العيش المشترك». هذا المقطع في المقابلة أورد بما لا يقبل المراوغة ثلاث حقائق أساسية في فهم تركيبة المجتمع اللبناني. الحقيقة الأولى هي أن المجتمع اللبناني ككل واقع قائم في حد ذاته طالما أن هناك إرادة صريحة في أن يشارك المسيحي والمسلم في العيش معاً في لبنان. ولكن كي لا تكون هذه الإرادة مجرد صفقة تجارية غير قابلة للعيش طويلاً، ولكي تكون هذه الإرادة نابعة عن قناعة، يشدد الشيخ بشير على أن

هذه الإرادة لا تنفي أبداً وجود مجتمعين حقيقيين مختلفين هما: المجتمع المسيحي والمجتمع المسلم. وأكثر من ذلك يجب ألا نخاف وأن نعترف أن لكل من هذين المجتمعين خصوصيات معينة يسعى كل منهما إلى الحفاظ عليها وصونها. يبقى في هذه المرحلة أن نعرف تماماً كيف سيتم هذا الزواج ما بين إرادة المشاركة في العيش والحرص على الحفاظ على شخصية كل من هذين المجتمعين.

ـ المجتمع المسيحي: تحديده ودوره

بعد إعلان الحقائق الثلاث التي لا تقبل الطعن فيها بدأ بشير الجميل في جميع إنطلاقاته من تحديد مفهوم المجتمع المسيحي في لبنان ودوره، وكيف لا وهو الذي شاء القدر أن يقود مصير اللبنانيين المسيحيين طيلة سنين الحرب وهو الرجل المتحدر من عائلة مسيحية مارونية عريقة كانت لها دائماً مواقف وأفعال في بناء الدولة اللبنانية، ويجب علينا أن نفهم أن إنطلاقة الشيخ بشير الجميل هذه لم تستند إلى إعتبارات تعصبية ضيقة بل تعدتها إلى إعتبارات أوسع، فقد حرصت على تأمين دور ريادي للمجتمع المسيحي في لبنان نظراً إلى كونه الوحيد الذي يتمتع بحقوقه كاملة وسط أنظمة عربية تقوم على أسس دينية إسلامية بدرجات مختلفة. وعند قيام الحرب، أدرك بشير الجميل الأخطار المحدقة بهذا المجتمع المسيحي فكان من الطبيعي جداً أن تكون وثبته الأولى هي الدفاع المستميت عن هذا المجتمع.

يقول بشير الجميل بهذا الموضوع: «إن شعبنا المسيحي في هذه النقطة من العالم، ولست أتكلم من منطلق طائفي، إنما هذا وضعنا، هذا الشعب بعد محنة 13 نيسان/ أبريل 1975 أصبح مهدد المصير، كيانه على المحك. فإذا لم نصمم على العيش كما نريد نحن وإذا لم نكن متيقظين ومتنبهين يمكن في هفوة صغيرة أن يقضى علينا فتنتهي قضيتنا ونخسر كل شيء. فمن أجل أن تكون حياتنا في تعبئة مستمرة ويقظة مستمرة وتصميم مستمر للعيش مرفوعي الرأس، يجب أن تكون تضحياتنا يومية في أية وقفة من وقفاتنا وفي أي عمل من أعمالنا. . .» غير أن هذا الاستعداد الدائم للذود عن المجتمع المسيحي لا يشكل قضية في حد ذاتها. إذا لم نعرف ما هو دورنا نحن المسيحيين في هذا الشرق ولماذا لا نستطيع أن نقوم بهذا الدور إلا في لبنان وحده». للإجابة عن هذه التساؤلات كان التاريخ العريق لهذا المجتمع في هذه المنطقة حاضراً في ذهن الشيخ بشير ومن هذه الرؤية كان مستحيلاً على المجتمع المسيحي أن يقبل بإزالته من المنطقة كما اعتقد الكثيرون وعملوا له.

يقول الشيخ بشير الجميل: «ثم إن الشعب المسيحي في لبنان أدرك أن لديه تاريخاً قديماً وحضارة مميزة وقيماً خاصة لا تسمح كلها له بمغادرة لبنان والشرق، فاستبسل في الدفاع من أجل البقاء هنا في لبنان. . . والتهجير داخل الوطن هو ظاهرة لبنانية فريدة لأن المهجرين عادة يغادرون بلدانهم» وإصرار المجتمع المسيحي على البقاء حيث هو في منطقته، لا يعني أنه قرر أن يعزل نفسه تماماً

عن محيطه. فهو يدرك أنه لا يستطيع أن يدوم إلا إذا قام بدور فعال مع المجتمعات الأخرى من دون أن يؤدي دوره هذا إلى تسلط فريق على فريق آخر كما هو حاصل في أنظمة كثيرة حيث يقتصر الدور المسيحي على أمور بسيطة جداً تظل دون الحقوق الثابتة التي يجب أن يتمتع بها.

ويقول بشير الجميل: «فبعد عمل أربعين سنة في هذه المنطقة من العالم أصبحنا واعين تماماً، ونحن مصممون على أن نعمل لما يخدم هذه المصالح لأننا كمجتمع مصممون على أن نبقى نعيش أحراراً في هذه المنطقة من العالم، مجتمع منفتح مسؤول له شخصيته. فاسمحوا لنا أن نمارس أقدس حق من حقوقنا وهو حق الدفاع عن النفس، وقد أصبحنا نعرف كيف ندافع عن أنفسنا...».

ويقول بشير في مناسبة أخرى: «نحن نرفض بكل احترام للأشخاص المعنيين أن يكون وضعنا في هذه البقعة من العالم كموضع أقباط مصر أو مسيحيي سوريا يأكلون ويشربون وينامون ويعيشون حياة عادية، إنما بدون أي حق أو حضور في مجتمعهم، نحن نرفض أن نكون ذميين...» لكل هذه الأسباب أراد الشيخ بشير لبنان موطناً للمسيحيين لا وطناً قومياً لهم. أراد لهم الريادة وأراد لهذا المجتمع أن يحافظ على جميع حقوقه وخصوصياته ضامناً إياها ضد أي نية عدوانية تهدف إلى القضاء عليه بصفته مجتمع أقليات في منطقة الأكثرية فيها من المسلمين. في إطار فكرته إنشاء موطن قوي وحر للمسيحيين اللبنانيين، وليس وطناً قومياً مسيحياً، يقول الشيخ بشير الجميل: «إن مجتمعنا المسيحي

يريد أن يعيش على أرض لبنان حراً ومسؤولاً عن نفسه. لا نريد ولا نطلب وطناً قومياً مسيحياً بل نطلب وطناً نعيش على أرضه أحراراً من دون أن نتعرض لحرب إبادة جديدة لأننا لم نعد نتحمل حرب إبادة جديدة. بالنسبة إلينا هذه هي القضية التي نريدها...» يبقى أن نعرف في هذا المقطع الحدود التي رسمها الشيخ بشير لهذا المجتمع في تعاطيه وتفاعلاته مع المجتمع المسلم.

ـ المجتمع المسلم: تحديده ودوره

إذا كان أساس منطلقات بشير الجميل المجتمع الذي ينتمي هو إليه، فلم يكن غائباً عن باله أن أمامه حقيقة ثابتة وهي وجود الفريق المسلم. وإنطلاقاً من أن أي عمل وطني يجب القيام به لا يكون كاملاً إلا بمعرفة كاملة لجميع نواحي هذا العمل، أراد بشير الجميل دوماً معرفة حقيقة هذا المجتمع المسلم الذي يقاسمه العيش. كما تمنى في مناسبات عديدة دوراً بل أدواراً تساهم في بناء مقومات قوية للمجتمع اللبناني ككل.

وفي هذا الإطار يقول بشير الجميل: «الفريق المسلم صار متعطشاً أن يرجع إلى جذوره اللبنانية السابقة لأنه ذاق الأمرّين. المسلم اللبناني اليوم بدأ يشعر أن وضعه غير وضع مسلمي أي بلد آخر. حتى إن شخصيته تتميز عن شخصية أي مسلم عربي آخر. وهو اليوم بدأ يدرك هذا الأمر...» وليس المهم في هذه الحالة أن يدرك المسلم اللبناني حقيقة هويته اللبنانية، المهم أن يعرف أيضاً أن هذه الهوية لا تسلخه عن خصوصيات ومميزات مجتمع المسلم

الذي يطبق هو أيضاً عليه مبدأ التمتع بحرية المعتقد والممارسة. وعليه يدعو الشيخ بشير الجميل المجتمع المسلم إلى القيام بدوره كاملاً في النهوض بلبنان كي تكون هذه العملية غير منقوصة. لقد أراد بشير أن تكون هناك شراكة في المسؤولية بين هذين المجتمعين بعد أن يكون كل منهما قد عرف نفسه وتعرف على اللبناني في نفسه، يقول الشيخ بشير:

«فأنا وشريكي المسلم كلانا في المصير عندما نكون أسياداً ومستقلين سنتفاهم سريعاً مع بعضنا، بعدها نتفق على توزيع المسؤوليات وليس المغانم، لأننا نريد الخروج من المزرعة إلى الوطن. أنا أريد أن أعرف مدى مسؤوليتي كمسيحي والمسلم يجب أن يعرف ما مدى مسؤوليته أيضاً. عندئذ نستطيع أن نلتقي في منتصف الطريق. . .» ولقاء المسلم اللبناني للمسيحي اللبناني في منتصف الطريق يتطلب من المجتمع المسلم أن يكون قد عرف نفسه وموقعه تجاه المجتمع المسيحي. إنها دعوة إلى أن يكون المسلم والمسيحي شريكين في المسؤولية وعلى المستوى نفسه. يجب أخيراً ألا نستغرب إذا رأينا أن الشيخ بشير توجه إلى المجتمع المسلم من موقع طرح الأسئلة عليه. فهو، وإن كان يعرف حق المعرفة الجذور اللبنانية الأصيلة للمجتمعين اللبنانيين، لا يستطيع أن يقوم بالنيابة عن المسلم بمراجعة الضمير فكما فعل المجتمع المسيحي وما يزال جاهداً للتعرف أكثر فأكثر على هويته الحقيقية يطالب الشيخ بشير الجميل المجتمع المسلم بالقيام بعملية البحث نفسها.

ـ تفاعلات الاتصال ووسائلها في المجتمع اللبناني:

إذا كان الرسم الذي وضعه بشير الجميل للمجتمع اللبناني عفوياً وبسيطاً في آن، وإذا كان هذا المجتمع كما وصفناه آنفاً يشكل الهوية اللبنانية بل الميزة الفريدة لهذا البلد في الشرق، فالمسألة الحقيقية هي كيفية التعاطي الحاصل أو الذي يجب أن يحصل بين أجزاء هذا المجتمع. وقد أدرك الشيخ بشير أن الموضوع ليس بالسهولة التي يتصورها البعض بل كان على يقين أن فشل لبنان في الحفاظ على نفسه مرده إلى عدم قدرته على إيجاد وسيلة علمية وواقعية لهذه التفاعلات. ولكن ماذا نقول إذاً عن الصيغة الشهيرة التي قرر اللبنانيون العيش من خلالها؟ للشيخ بشير الجميل في هذا المضمار رأي واضح وهو لا يتعارض أبداً مع روح الصيغة بل هو يتهجم بجرأة على الشكل الذي مشت فيه هذه الصيغة منذ 1943. يقول الشيخ بشير الجميل «الحرب زعزعت إيماننا بكل منطلقاتنا السابقة منذ العام 1943 حتى اليوم واكتشفنا أن كل هذه المنطلقات كانت مهزلة وضحكاً على الذقون».

ومن الملاحظ أن لبشير الجميل موقفاً واضحاً من المنطلقات الأولية التي حددت بمبادئ أقل ما يقال فيها إنها مبادئ عاطفية لم تصمد أمام الأزمات. وفي المقابل إن الشيخ بشير يدعو إلى منطلقات جديدة قائمة على أساس علمي ومدروس ومستمدة من الواقع اللبناني. لهذا رأيناه يعطي الاختصاصيين الضوء الأخضر كي يجتمعوا ويقيموا مشاريع في شتى المجالات. يقول الشيخ بشير:

«إن «القوات اللبنانية» منكبة منذ مدة على وضع دراسات علمية لطريقة بناء مناطق الصمود كافة في لبنان على أسس حديثة تتوافق مع احتياجات التقدم والعمران. ومع النظرة الجديدة إلى المجتمع اللبناني بعد تجربة الحرب. إن الحياة ستكون أجمل في مثلث الصمود بعد انتهاء محنة لبنان. ونطلب في هذه المناسبة من الخبرات والكفايات الذين لديهم أفكار أو مشاريع في إطار الإقتصاد والعمران أن يقدموها إلى الأجهزة المختصة في «القوات اللبنانية».

ولتوضيح معالم هذه التفاعلات التي على أساسها سوف يقوم المجتمع اللبناني سنحاول أن نستكشف في الأسطر التالية طبيعتها في الميادين التالية:

أولاً: التفاعلات ضمن المجتمع الواحد

من البداهة أن يختار بشير الجميل في تحديده لهذه التفاعلات المجتمع المسيحي كنقطة إنطلاق. لقد باشر بترتيب البيت الداخلي قبل أن ينتقل إلى مجالات أوسع وأشمل على صعيد الوطن. لقد أراد بشير الجميل أن يكون هذا المجتمع المسيحي مثالاً يقتدي به جميع اللبنانيين وهذا سبب اهتمامه بكل شاردة وواردة وجهده في الحصول دائماً على تماسك المجتمع المسيحي. لقد دعا بشير الجميل مراراً هذا المجتمع للتغلب على الأخطار التي كانت تحدق به وتهدد كيانه، قال الشيخ بشير: «فيما يمر مجتمعنا الداخلي بأيام صعبة وبحوادث تافهة لا مبرر لها، نعود من خلال هذا الاحتفال فنؤكد اليوم أكثر من أي يوم مضى أن العقل السليم ينبغي أن يكون

في الجسم السليم. إننا في أمس الحاجة اليوم إلى العودة إلى صوابنا وتخطي العقد التي يتخبط فيها البعض، ولنعرف تماماً أن التضحيات التي قدمناها طوال خمس سنوات لا ينبغي للبعض منا ومن ضمن صفوفنا وبسبب عقد يعانونها أن يهددوا كل منجزات المقاومة اللبنانية بالخطر. . .» أن يكون بشير الجميل قد اكتفى بالدعوة فقط إلى هذا التماسك فهذا تصرف لم يتعوده اللبنانيون من قائدهم. وإدراكاً منه لذلك وضع بشير الجميل هذا التماسك في بوتقة عملية أرادها ليس فقط للمجتمع المسيحي بل للمجتمع المسلم أيضاً لكي تكون مستقبلاً أداة تستخدم في عملية ولادة لبنان الجديد. هذه البوتقة تتمثل بجمع الأفراد في أحزاب تسمح لهم بالتعبير في ميادين مختلفة عن طموحاتهم للبنان الذي يودون خدمته. وقد اعترف الشيخ بشير أن هذه التجمعات الحزبية سوف تكون في أغلبيتها على صورة تركيبة المجتمع اللبناني، أي تجمعات حزبية للطوائف كافة. يقول الشيخ بشير: «إنطلاقاً من هذا نرى أن ينتظم الدروز والمسلمون في لبنان في مؤسسات حزبية سياسية تعبر حقيقة عن ذاتيتهم. عند ذاك يلتقون مع المسيحيين اللبنانيين عبر المؤسسات الحزبية التي تعبر عن ذاتيتهم أيضاً. . .»

وأخيراً يشدد بشير الجميل على الناحية الخلقية داخل المجتمع المسيحي لأنها الضمانة الوحيدة التي تؤمن ولادة مواطن صالح يقدر دوره حق التقدير ويعطي لمواطنيته معنىً سامياً ومسؤولاً. ولم يكتف بشير الجميل بإعلان ذلك بل أراد هذه الخلقية ممارسة يومية وعملاً دائماً حتى أنه بدأ في إشاعتها بين مقاتلي «القوات اللبنانية».

تحدث بشير أمام قوى الاحتياط في هذه القوات قائلاً: «عليكم أن تتعودوا منذ الآن على أخلاق رفيعة وعلى جدية في العمل وعلى التحلي بالمسؤولية وهذه مسائل تكتسب بالممارسة والعمل الجدي...» وهو ضمن هذه الدعوة السامية المنبثقة من مبادئ الدين المسيحي نفسه أكد في مناسبات أخرى ضرورة الابتعاد عن الحقد، والتفكير دوماً أن قيمة الإنسان تكمن في قدرته على التسامح والتآلف، كما أن قيمة الإنسان أيضاً هي في قدرته، على الحفاظ على هذه الأخلاق والدفاع عنها لأنها نابعة من شخصيته. يقول بشير الجميل: «إذا كنا نتوق إلى حل المشكلة اللبنانية يجب أن نتخلص أولاً من الحقد المعشعش في صدور بعضنا ومن كل الشوائب التي تعيق تقدمنا ونمونا الطبيعي، والتي تحجب عن أعيننا المسائل الأساسية، والمبدئية والضرورية التي لا يمكن أن نحيا من دونها، أو أن يكون لنا وطن سليم نؤمن بتراثه وحضارته»، ويقول أيضاً في حديثه الصريح إلى اللبنانيين: «نحن يجب أن نتسامح وأن نترفع عن الوسائل والأساليب التي اعتمدتها القبائل والإقطاع والأوضاع الإجتماعية المهترئة ولكن عندما، نصل في وقت من الأوقات ونجد أن الكيان يهدده هؤلاء الجاهليون والقبليون سنضطر إلى الدفاع عن أنفسنا ونقاتل...»، لقد قلنا آنفاً إن هذه الطريقة في التعاطي ضمن المجتمع المسيحي عمل لها بشير الجميل في البيئة التي تحضنه ولكن هذا لا يعني أنه لم يكن في باله رغبة شديدة في نقل هذه الأساليب الضرورية من الإطار المسيحي لتشمل المجتمع اللبناني ككل.

ثانياً: التنظيم بين المجتمع المسيحي والمجتمع المسلم

بعد أن حاولنا في النقطة الأولى من هذا المقطع تبيان طبيعة التفاعلات ضمن المجتمع المسيحي والمجتمع المسلم وهي تفاعلات عمودية، يبقى لنا أن ندرس كيفية حصول الاتصال بين المجتمعين وبذلك نكشف عن الناحية الأفقية في هذه التفاعلات. وهذا الموضوع دقيق إذ إنه يطرح أمامنا فوراً مسألتين أساسيتين: المسألة الأولى هي دراسة الميادين التي تجذب المجتمعين أحدها إلى الآخر.

والمسألة الثانية هي تحليل الميادين التي تبعد هذين المجتمعين بعضهما عن بعض. تبدو نقاط التجاذب والتنافر هذه طبيعية في مجتمع رأينا آنفاً كيفية تركيبته، ولكن يحق لنا كلبنانيين أن نسأل: هل الأزمة الطويلة التي ما نزال نعانيها وليدة هذا التنافر؟ وإذا كان ذلك صحيحاً كيف كان علينا أن نتفادى الوصول إلى النزاع المسلح لحل هذه الفروقات في المجتمع اللبناني؟ بشير الجميل أدرك هذا الواقع وحاول دائماً أن يوضح أمام اللبنانيين مفهومه لهذا التنافر الذي رغم وجوده حقيقة في المجتمع اللبناني لا يجوز أن يهدد الكيان اللبناني بالزوال كما أوشك أن يحدث. يقول الشيخ بشير: «التعددية في لبنان حقيقة أكدت ذاتها في كل المناسبات فما علينا إلا تنظيم هذه التعددية على نحو تآلفي بدلاً من أن يكون على شكل تصادمي. . .» ولكن لكي يكون هذا التنظيم كما تخيله بشير الجميل تنظيماً فعالاً قابلاً للعيش وللصمود أمام الهزات المختلفة، انطلق

الشيخ بشير في عملية تشخيص دقيق لميادين التجاذب والتنافر فأراد أن يقوي الأولى وينظم الثانية بطريقة تحفظ الكيان اللبناني وتجعل مقومات مجتمعه أكثر ثباتاً وواقعية. هذا التشخيص شمل النواحي التالية:

أ ـ **الأمن والحرية**: من يتابع تصاريح بشير الجميل منذ العام 1975 حتى 1982 يرى بوضوح تام هاجسه في تأمين الحرية والأمن لكل المجتمعات الموجودة على أرض الوطن. وهو كي يستطيع القيام بذلك حدد بوضوح تام مفهومه لهما. يقول بشير الجميل: «ونفهم الأمن يحافظ على حرية الإنسان بقيمه وحقوقه ومزاياه ومميزاته ونفهم الحرية تحافظ على أمن المجتمع بدستوره وقوانينه فلا تتحول السلطة على المواطنين ولا تتحول الحرية تمرداً على المجتمع والقوانين». والملاحظ في هذه الفكرة أن الشيخ بشير تعمد خلق تلازم حتمي بين الحرية التي يجب ألا تكون فوق المصلحة العليا للوطن والأمن الذي يضمن استمرار هذه الحرية ويطورها. وإن نقاط التجاذب بين المجتمعين واضحة في تفكيره. فهو لا ينادي بها فقط للمجتمع المسيحي بل ينادي أيضاً بها للمجتمع المسلم، لأنه يعتقد في صميم قلبه وعقله أنهما يشكلان القلب النابض للمجتمع اللبناني المتعدد. غير أن نقطة التجاذب هذه كانت غائبة تماماً على رغم أن في نفس الشيخ بشير إيماناً قوياً بوجودها وإمكانية تحقيقها.

غياب هذه النقطة هو نتيجة مباشرة لانعدام الثقة بين المجتمعين فإذ بالمجتمع المسيحي يعيش في خوف مستمر ولأسباب تاريخية،

وإذ بالمجتمع المسلم يطالب بحقوق متساوية مع المسيحيين وهذا مطلب محق، ولكن من دون الإصغاء إلى جهات خارجية أوهمته أنها هي التي تضمن حماية أكيدة له. لقد رفض الشيخ بشير مراراً هذا الواقع، وإنطلاقاً من إيمانه بتحقيق الثقة بين المجتمعين وبالتالي الأمن والحرية لهما، عمل جاهداً طوال سنين النضال، وأحياناً بصراحة وقساوة، لإيجاد هذه الثقة. وقد أراد دائماً أن يخرج الغريب من لبنان لأنه عرف نواياه في تعميق الهوة بين المسيحي والمسلم، فذلك الغريب ما انفك يزرع في قلب المسلم هذا الخوف من التسلط المسيحي عليه منصباً نفسه البديل في حمايته. يقول الشيخ بشير: «هذا الخوف لأن السوري والفلسطيني يضعان في رأس المسلم اللبناني أنه إذا جاء عندنا فـ«القوات اللبنانية» و«الكتائب» وبشير الجميّل يذبحونه. هذه حجة السوري والفلسطيني لتأمين استمرارية وجودهما في لبنان. هنا أطلب من أخي المسلم اللبناني وأشدد على ذلك وأضع خطين بالأحمر تحته وأقوله له إن 43 سنة من الحياة المشتركة لم تحصل خلالها عندنا حوادث مماثلة قبل أن يأتي الفلسطيني والسوري. يجب ألا يصدق المسلم اللبناني هذه الإشاعة وهذه الدعاية. بالعكس فهناك كليشيه تصنع منذ خمسة أعوام والمسلم اللبناني تحت تأثير الأوضاع يرددها. أقول للمسلم: بشير الجميل سيف بيدك وليس ضدك».

وبما أن المرحلة التي أطلق فيها بشير الجميل هذه الدعوة للمسلم لم تحقق الثقة المطلوبة ضمن إطار الأمن والحرية للمجتمعين، فقد راهن بشير الجميل على المستقبل. وفعلاً رأينا مع

مرور الزمن ونضوج اللبنانيين كافة كيف أن هذا المجتمع المسلم أدرك خطر الوهم الذي كان يعيش فيه وباشر هو أيضاً بالقتال للحصول على حريته وأمنه. يقول بشير الجميل: «ونحن نرى وللمرة الأولى أن اللبناني المسلم السني البيروتي بدأ يدفع فواتير وجوده، وحريته مثلما سبقه إلى دفعها المسيحي منذ سنوات. وكذلك الشيعي في الجنوب. لقد آن الأوان لنا جميعاً كلبنانيين بعدما دفعنا هذه الفواتير ألا نتكل كثيراً على المبادرات بل ينبغي النظر إلى الواقع على ما هو ونلتقي مع بعضنا ونتفاهم معاً لرفع الإحتلالات...» هنا يرفض بشير الجميل رفضاً كلياً الاتكالية ويطرح بالمقابل العيش في أمن وحرية وهما حلم يتحول إلى واقع عندما يقاوم اللبناني المسلم واللبناني المسيحي معاً لطرد الغريب عن الوطن. وحدة الوطن تبدأ بوحدة المقاومة هذا هو السبيل. الأمن لكل فرد ومجتمع. والحرية المسؤولة البعيدة عن الغوغائية التي تحميها دولة قوية يتشارك في مسؤولياتها الجميع هذا هو الهدف. فإذا كان الغرباء قد استغلوا الحرية الغوغائية، في يوم من الأيام، ليجعلوا منها حقل تصادم، فهذا لن يحصل في لبنان، لأن هذه الحرية ستضمنها دولة قوية تحافظ بمرونة على تعددية المجتمع اللبناني. يقول الشيخ بشير الجميل في هذا الإطار: «نحن الذين نريد وحدة الوطن الحقيقية ولكننا نريد هذه الوحدة للبنان سيد وقوي ومستقل حقاً لكل أبنائه على كل أرضه. إنما نريد الحرية للجميع فوق هذه الأرض والحقوق للجميع أيضاً من دون أن يكون لأحد أدنى عقدة».

ب ـ **عن التربية** كان لبشير الجميل وقفة طويلة. وفي وقفته هذه كان يرى من جهة أولى النقاط التي تجذب المجتمعين اللبنانيين بعضهما إلى بعض، ومن جهة ثانية النقاط التي تجعل هذين المجتمعين مختلفين. ولم تكن عند بشير الجميل عقدة عدم الاعتراف بهذه الفروقات لأنها بالنسبة إليه لا تشكل خطراً على المجتمع اللبناني ككل، إذا أحسن تنظيمها والربط فيما بينها. فهو لا يمانع أن يكون لكل مجتمع تراثه وحضارته لأن هذا هو الواقع وهذه هي الحقيقة. وهو يعترف بكل جرأة بحق كل مجتمع أن يفاخر علناً بحضارته وتراثه وتكون هذه ضمن برامج الدراسة. يقول الشيخ بشير: «يجب أن يفهم المسؤولون أن هناك حضارتين في البلد وأن يفهموا أن الشعب يعيش تعددية حضارية. والجامعة اللبنانية وجدت لتبقى وتنمو وتتطور. لا نقبل عودة أبنائنا إلى الدرس في أجواء الجامعة السابقة التي تعلّم كل شيء ما عدا ثقافة لبنان وحضارته وتربيته...»

وقد شدد على رأيه هذا خاصة عندما بدأت فروع الجامعة اللبنانية الثانية تنمو وتتطور إذ كان من المدافعين عنها. في المقابل عرف بشير الجميل حدود هذه التعددية في التربية. لقد عرف أن التربية المتعددة في لبنان ترجع أساساً إلى تاريخ واضح للوجود اللبناني كله، غير أن هذا التاريخ، ولأسباب معروفة لم يعرف طريقه إلى البرامج الدراسية فإذا بالأجيال تجهل تماماً تاريخ لبنان وبالتالي هوية هذا البلد فلا عجب إذا رأينا لسنين عديدة ماضية، اللامبالاة واللامسؤولية أمام مشاكل الوطن. يقول بشير متكلماً عن تدريب

الطلاب: «في نطاق السياسة التي نخططها للبنان الغد، بدأنا بتدريب طلابنا وأردنا من خلال هذا التدريب تغيير الذهنية التي كانت تعالج بها الدولة موضوع التربية في شكل خاص ومستقبل الأجيال في شكل عام. فالبرامج المهترئة التي تفرض على الطلاب والمناهج غير اللبنانية التي تفرض على المعلم، غير الكتب الفارغة من أي مضمون، الغائب الوحيد عنها تاريخ لبنان وأدب لبنان وحضارته، وهذا ما لا نرضى به بعد اليوم، فكفى جاهلية في دولة أوصلنا جهلها إلى ما نحن عليه من حرب ودمار وانهيار مؤسسات وإفلاس في الخزينة...».

إذاً الخطر على لبنان لا يأتي من التعددية في التربية بقدر ما يأتي من الجهل المعتمد بثه ومن الحقيقة المقصود طمسها. ويأتي دور الدولة القوية المستقلة في ضمان ديمومة هذه التربية وحمايتها بل مساعدتها مادياً على النهوض ضمن مؤسسات لبنانية صرفة.

ج ـ الشأن الإقتصادي والإجتماعي:

خلافاً للنقطتين الأوليتين، رأى بشير الجميل أن هذه الناحية في لبنان مجال قابل لجذب المجتمعين اللبنانيين أحدهما إلى الآخر. فهما من دون أي شك يريدان نظام الإقتصاد الحر الذي تمتع لبنان بمزاياه وحسناته طوال سنين عدة. وكما أشرنا سابقاً أراد الشيخ بشير أن يقوي هذا الشأن ويضع له نظاماً واضحاً. فإذا لم يكن على المبدأ العام أي خلاف، فقد نبه إلى أن ممارسة هذا المبدأ على الأرض أدت إلى خلل. فهذه الممارسة وقعت هي أيضاً في فخ

الحرية الغوغائية المتفشية في المجتمع اللبناني وهذا الواقع أدى مراراً إلى حدوث استغلالات كثيرة وإلى تسلط طبقات معينة، وإلى فساد غير مرغوب فيه، سمح لجهات يسارية أن تحاول، بالتخريب وليس بالمشاريع الإصلاحية، قلب الأمور لصالحها. فها نحن نرى الشيخ بشير يأخذ زمام المبادرة بنفسه، ويطرح على صعيد الوطن ككل، تصوراً علمياً للبنية الإقتصادية الإجتماعية اللبنانية، ويجعل من كل لبناني مواطناً مسؤولاً عن هذه البنية داعياً إياه للمشاركة فيها بكل صدق وإخلاص. بهذه الطريقة يكون بشير الجميل قد خلق ترابطاً وثيقاً ما بين الإقتصاد والمجتمع، إذ يقوم المواطن اللبناني بعمله وباستثماراته وتضمن سلامته دولة قوية تراقب عن كثب، وتخطط في المجالات جميعها، يقول الشيخ بشير الجميل: «هذا الميثاق الإجتماعي الجديد يستند إلى خمسة منطلقات: الحرية والتخطيط كقاعدة، الإنتاج وتكافؤ الفرص كنهج، والمشاركة كأسلوب، لا نريد حرية تصل إلى حد الفوضى لأن الفوضى عدوة الحرية، ولا نريد تخطيطاً يصل إلى حد التوجيه الملزم لأن التوجيه الملزم عدو الإنتاج. ولا نريد إنتاجاً متوحشاً يأكل فيه اللبناني أخاه اللبناني، بل نريد إنتاجاً عادلاً يتضامن فيه اللبناني مع أخيه اللبناني فتتحقق العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص.

وكما نريد حرية منظمة في إطار التخطيط، هكذا نريد تخطيطاً يقوي الحرية ولسنا نريد الإنتاج للإنتاج بل نريد الإنتاج من أجل تكافؤ الفرص. فالإنتاج ضمانة لتكافؤ الفرص وتكافؤ الفرص حافز على الإنتاج. ولا تستقيم الحرية والتخطيط والإنتاج وتكافؤ الفرص

إلا من خلال المشاركة كأسلوب وتنظيم وإدارة فالميثاق الإجتماعي يتحقق من خلال مثلث تنظيمي هو: السلطة وأصحاب العمل والعمال. إنها المشاركة وإنه الأسلوب الأمثل لتحقيق المجتمع العصري...» وهذه النظرة تحتم علينا وقفة بسيطة تبين كم كان مهماً لدى بشير الجميل إرساء قواعد حقيقية معينة للإقتصاد الذي ينبع من المجتمع وللمجتمع الذي يستمر وجوده وبقاؤه بالنظام الإقتصادي. فالشيخ بشير جعل بطريقة ذكية جداً هذه المنطلقات الخمسة جسماً حياً واحداً كل عضو فيه بحاجة إلى الآخر. وقد جعلها متضامنة تعطي كل مواطن، مهما كانت انتماءاته الدينية، دوراً محدداً يقوم به. وبذلك نجح بشير الجميل في إيجاد مجال جديد لتفاعل كل المواطنين اللبنانيين لأنه مجال يتعلق بمشاكلهم الحياتية اليومية. ولن نعمد إلى تحليل هذه المنطلقات الخمسة التي أعطى بشير الجميل كلاً منها معنى وشروط نجاحه بل سنكتفي بإيجاز ما أراد أن يوضحه في كل منطلق. بالنسبة إلى الشيخ بشير إن الإقتصاد الحر في مجتمع الحرية - والحرية لا تتجزأ - قائم على قاعدة المبادرة الفردية والملكية الخاصة، والتخطيط وهو الذي يشمل أجزاء الوطن كاملة، يهدف إلى تنظيمها والمشاركة في نموها، والإنتاج هو ما ينبع من الثروة الإنسانية اللبنانية ومن قدرة هذا الإنسان على الإبداع مع أن الثروات الطبيعية اللبنانية قليلة، وتكافؤ الفرص هو الذي يأخذ بعين الاعتبار القدرة الإنتاجية لكل الفرد فيتم اقتطاع نسب تصاعدية من الدخل العام كله لرفع مستوى المجتمع اللبناني، والمشاركة هي التي تجعل جميع المواطنين على

قدم المساواة في مسؤوليتهم وفي إدارتهم لهذا الميثاق الجديد.

د ـ الشأن الإعلامي:

في هذا الموضوع كان لبشير الجميل موقفان صارمان: الأول هو رفض محاربة الواقع الإعلامي الرسمي والمأجور في أثناء الحرب والذي كان يبث بين أفراد المجتمع أخباراً إما ملفقة وإما مأجورة تساعد على جعل نقاط التنافر بين المجتمعين نقاطاً تصادمية نتيجتها الحتمية زوال الكيان وذوبان الهوية اللبنانية. والثاني هو هاجس قول الحقيقة دائماً. ولكن كثيراً ما تساءل المواطن: «عن أي حقيقة يتكلم الشيخ بشير؟ أليست الحقيقة في النهاية مسألة نسبية وليست مطلقة!» بشير الجميل لم يشأ فلسفة الحقيقة. كل ما كان يطلبه أن تكون لوسائل الإعلام الجرأة الكافية لكشف الأمور كما هي، فلا نجعل العالم يتوهم أننا نتكل على أمر معين بينما نحن نعي تماماً العكس، ولا نجعل الرأي العام يعتقد أننا نتكلم على عدو بينما نحن نعي العكس أيضاً. يريد بشير الجميل أن تستعمل المفردات بمعانيها الحقيقية، فالصديق هو من يحترم ميزاتنا وهويتنا، والعدو هو من يريد أن يقضي على ميزاتنا وهويتنا. هذه الطريقة في رأي بشير الجميل، هي الوحيدة التي تعطي مجتمعنا المناعة الكافية والقوة اللازمة لفرض الاحترام على الغير، إذا كان هذا الغير يعتقد أن باستطاعته فرض هيمنته على لبنان. ويقول في هذا الموضوع: «. . . إن منطقنا وحضارتنا ومجتمعنا الديمقراطي الحقيقي لا يمكن أن تنجو من كل هذه التجارب والمحن إلا عندما نتمتع بالوعي الحقيقي ونقول الحق ونسمي الأمور بأسمائها الحقيقية

فبهذه الطريقة على الأقل يعرفون كيف يجب أن يتعاطوا معنا ونعرف نحن كيف يجب أن نتعاطى معهم. . .» غير أن قول الحقيقة هذا لا يكون ممكناً عندما تنشر في لبنان جهات إعلامية تابعة لبعض البلدان القريبة أو البعيدة والتي لا هدف لها إلا تمرير عقائد تخريبية معينة بعيدة تمام البعد عن المصلحة الوطنية. ولذا دعا في خطابه المتلفز في صيف العام 1982 هذه الوسائل إلى مغادرة لبنان قبل أن يطردها اللبنانيون طرداً. وبالمقابل دعا الصحافة اللبنانية في الخارج إلى الرجوع إلى لبنان كي تساهم في تطوير هذا الشأن الإعلامي ورقيه، في إطار النظام الديمقراطي الحر المسؤول الذي سوف يكون الشريان الحيوي للبنان.

هـ ـ التصدي للمشاكل اليومية:

إلى جانب اهتمامه بالمقومات الأساسية للمجتمع اللبناني، كان بشير الجميل يعرف تماماً أن السبيل الوحيد لنجاح مشروعه هو التصدي الدائم والفعال للمشاكل اليومية الإجتماعية التي كانت تحصل من وقت إلى آخر والتي جاءت كلها نتيجة مباشرة للحرب الطويلة التي غاص فيها لبنان. فكم هو جميل أن يطلق الإنسان نظريات متطورة وجذابة بينما هو عاجز عن إيجاد حل لمعضلة طارئة تحصل عنده. بشير الجميل لم يكن من هذه الطينة من الناس فهو يعي تماماً أنه مهما كانت المشاريع المستقبلية والمواثيق الإجتماعية كبيرة فهي لا تكون قابلة للتنفيذ إذا تراكمت عليها مشاكل تؤلف مع الزمن أخطاراً جسيمة. وهذا ما حمله على الاهتمام شخصياً بإيجاد حلول سريعة وعملية لمشاكل عمالية

وإقتصادية وإعداد العدة اللازمة لتفادي وقوعها مجدداً. والأمثلة على ذلك كثيرة وكثيرة جداً نذكر منها: تدخله لحل قضية مستشفى أوتيل ديو ولحل مشكلة اعتصام عمال العصفورية، ولحسم الخلاف في قطاع النسيج حول دفع الشهر الثالث عشر، ولإيجاد مخرج لمعاناة سائقي السيارات العمومية، ولتحسين وضع المعاقين، إلى ما هنالك من إجتماعات متواصلة حاول بشير الجميل من خلالها المساعدة على تخفيف وطأة الحرب لكي ينصرف لاحقاً وبسرعة إلى البناء. والجدير بالذكر أن الشيخ بشير لم يحصر اهتمامه في حل المعضلات خاصة لفئة معينة من اللبنانيين بل كان يعرف تمام المعرفة أن هذه المعضلات رغم سيئاتها كانت تجمع اللبنانيين في المصيبة فأراد بحلها أن يجمعهم في الرضاء.

و ـ الاهتمام بالأجيال الطالعة:

لم ينس الشيخ بشير الجميل أنه مهما كان نجاح لبنان الحاضر فهذا النجاح يبقى ناقصاً إذا لم تهيأ أجيال تحمل على عاتقها هموم المسيرة. وهو في اهتمامه هذا لم يتوجه حصراً إلى مجتمع واحد، بل شاء أن تكون دعوته موجهة إلى الجميع. أكثر من ذلك لقد برهن أن الاهتمام بالأجيال الصاعدة هو ممارسة وليس كلاماً. وكما جرت العادة عنده بدأ بالمجتمع المسيحي، فجمع الأطفال في مخيمات توعية، الهدف منها تربية جيل يعرف بلاده فيتعلق بها منذ صغره. هذه المخيمات التي كانت تقوم بها مؤسسة «هيلب ليبانون» والتي كانت تستقبل دائماً الشيخ بشير بشغف كبير ليحدثها عن لبنان وعن طريق استكشافه والكشف عن خفاياه. غير أن الشيخ بشير في

هذا المجال لم يشأ احتكار هذه العملية الدقيقة فقد كان يعرف تماماً أن البداية هي في البيت اللبناني حيث العائلة، حيث المرأة. فلم يترك مناسبة إلا وتوجه فيها إلى المرأة اللبنانية التي هي أساس كل المجتمعات. يقول الشيخ بشير: «إن للأم دوراً مهماً وأساسياً في بناء المجتمع اللبناني إذ إن كل مجتمع يفقد قيمه الإنسانية ولا تعود تفيده المعالجات مهما تنوعت. مستقبل لبنان أمانة في أعناق الأمهات والأخوات والزوجات. أنا أدعو الجميع إلى شبك الخناصر للخروج من الأزمة التي قطعنا منها أشواطاً، والتي بدأت بالانتقال إلى غيرنا. فعاجلاً أو آجلاً نحن واصلون إلى الهدف الذي كنا نسعى إليه وناضلنا من أجله خمس سنوات...».

يبقى أن نقول أن بشير الجميل أراد هذه المجالات كلها عنصراً يشد اللبنانيين بعضهم إلى بعض فهو لم يعترف بحق المرأة في ممارسة دورها المسيحي فقط منكراً لها حقها في المجتمع المسلم، بل أراد دوماً أن يكون هذا الدور شاملاً الجميع على أسس صحيحة قريبة من الواقع اللبناني.

- الخلاصة:

من محاولة التأمل في تفكير بشير الجميل تقودنا، كخلاصة، إلى التشديد على الأمور التالية:

أولاً: عدم التخفي وراء أوهام عشناها طوال سنين بل التمتع بالقدرة على قول الحقيقة كما هي في لبنان. والحقيقة كما هي في لبنان تمثل بمجتمع تعددي تعيش فيه جماعات حضارية مختلفة.

ثانياً: عدم الاكتفاء بقبول هذا الواقع بل القيام بجهود كثيفة لتنظيم وجود هذه المجتمعات على أسس ثابتة في الميادين التي تجذب هذه المجتمعات بعضها إلى بعضها، وبجهود متحركة في الميادين التي تختلف فيها المجتمعات ولكن هذه الأسس تبقى فارغة من معناها إذا لم تقم دولة قوية تسهر على تطويرها من جهة وتضمن استمراريتها من جهة أخرى من دون أن تتحول في أي يوم إلى تصادم أو تناحر.

في هذا المجال نذكر خلاصة ملفتة للنظر والاهتمام وردت في كتاب: «Béchir Gemayel ou l'esprit d'un peuple» للأب سليم عبو، تقول إن بشير الجميل رغم اعتقاده أن الحل الأنسب للمجتمع اللبناني هو مجتمع علماني مركزي فإنه قد رأى أن هذا الهدف مستحيل التحقيق إلا في مرحلة طويلة الأمد. المجتمع القابل الآن للعيش هو هذا الذي يعيش تعدديته ضمن دولة قوية، فبين الدولة المركزية الضعيفة التي خبرناها منذ العام 1943 والدولة التعددية القوية اختار بشير الجميل الدولة الثانية.

ـ لبنان والدول العربية:

يظن الكثيرون أن بشير الجميل وقف من البلاد العربية موقف عداء. ويرجع مثل هذا الظن إلى أن الكثيرين لم يميزوا ثلاثة مستويات في نظرة الشيخ بشير إلى علاقة لبنان بالبلاد العربية.

والمستوى الأول الذي انطلق منه الشيخ بشير تاريخي يقوم على

نظرته إلى علاقات لبنان بمحيطه والماضي. ويمكن القول إن هذا المستوى تاريخي حضاري. وعليه اعتبر الشيخ بشير أن الحضارة اللبنانية ترقى إلى ستة آلاف سنة وهذا ما عبر عنه بقوله.

«. . . نحنا عمرنا 6 آلاف سنة حضارة، وهالست آلاف سنة حضارة نحنا منفتخر فيا ومنعرف كيف بدنا نعمل لنحافظ عليها».

ونستنج، استناداً إلى قول الشيخ بشير، أن تاريخ الحضارة اللبنانية سابق لتاريخ الديانتين المسيحية والإسلامية. والشيخ بشير، كمسيحي، انطلق في نظرته إلى التاريخ من نشأة الديانة المسيحية، وهذا ما عبر عنه بإشارته إلى اضطهاد الرومان الوثنيين في ذلك الوقت للمسيحيين، فقال: «. . . نحنا يللي اليوم عم نشهد لكل مسيحيي العالم كيف معقول تكون الشهادة مثل ما كانوا المسيحيين الأول على أيام روما كمان يموتوا منشان ليشهدوا للدين المسيحي وللمعتقد المسيحي».

ولم يغفل بشير ما تعرض له المسيحيون من اضطهاد عبر التاريخ وخصوصاً في عهد الأتراك، فدعا إلى أن يكون لبنان وطناً فيه «نقدر نعيش وراسنا مرفوع، بدون ما يجي حدا يقلنا «أشمل» مثل ما كانوا على أيام الأتراك يقولولنا. . .».

أما المستوى الثاني الذي نظر منه الشيخ بشير إلى علاقة لبنان بالبلاد العربية فهو المستوى القانوني، أي مجموعة القواعد التي تنظم علاقة الدولة اللبنانية بالدول العربية. ويحب ألا ننسى أن الشيخ بشير محام أي رجل قانون، وأنه عندما سئل في مقابلة

صحافية أجرتها معه إحدى الصحف اللبنانية بتاريخ 23 حزيران/ يونيو عام 1981: «هل كنت ترغب في أن تكون شخصاً آخر؟» أجاب «نعم، بشير الجميل المحامي».

والدولة، تحديداً، مؤسسة أي شخصية معنوية قوامها مجموعة من القوانين، إنها، كما يقول الحقوقيون مؤسسة المؤسسات، وهم يعنون بقولهم هذا أن الدولة هي المؤسسة العليا التي تنظم شؤون سائر المؤسسات الإجتماعية، ومن صفات الدولة، كمؤسسة، الوحدة والسلطة في الداخل، والسيادة في الخارج أي في علاقاتها بالدول الأخرى. وهذه الصفات الثلاث، أي الوحدة والسلطة والسيادة، ركن إليها الشيخ بشير في تعامله مع جميع الدول أكانت عربية أم غير عربية، فرفض تفتيت وحدة الدولة بتحويلها إلى مجموعة من الدويلات، ولم يقبل داخل لبنان إلا بسلطة الدولة اللبنانية، وأبى أن تنتقص أي دولة من سيادة الدولة اللبنانية.

وهذه الأمور جعلها الشيخ بشير في رأس اهتماماته، وقد عبر عنها بكلمة ألقاها في الاحتفال بالذكرى الخامسة والأربعين لتأسيس «حزب الكتائب اللبنانية»، فقال إن «استرداد لبنان سيادته على كل أراضيه واستعادة الدولة اللبنانية سلطاتها كاملة وتمكنها من ممارستها في شكل شامل وثابت هما الأساس لأي حل للأزمة اللبنانية».

ومن ضمن هذا التصور، وخلافاً لما يظنه الكثيرون، أكد الشيخ بشير «انتماء لبنان الطبيعي إلى محيطه وانتساب الدولة اللبنانية إلى جامعة الدول العربية».

ولم يكتف الشيخ بشير بهذا القول بل أكد في خطبة ألقاها في 27 آب/أغسطس عام 1981 انفتاح لبنان على العالم العربي، وارتباطه ارتباطاً وثيقاً به. ولكن ما هي الأمور التي رفضها الشيخ بشير في تعامله مع الدول العربية؟ لقد رفض تدخلها في شؤون لبنان الداخلية فقال: «نحن لا نتدخل في شؤون أحد، بينما غيرنا يتدخل في شؤوننا».

ورفض الانتقاص من سلطة الدولة اللبنانية، فقال: «كل الأرض اللبنانية تدخل ضمن السيادة والإستقلال والوحدة»، ورفض أخيراً الوصايات على لبنان بكل أشكالها ومن أي مصدر أتت لأن «ما نريده هو أن نكون مستقلين فعلاً في بلدنا، من دون أن يسمح وزير خارجية بلد عربي أو غير عربي لنفسه بأن ينصب نفسه ولياً علينا».

أما المستوى الثالث فهو المستوى العملي أو مستوى الحلول العملية التي رأى بشير الجميل في تطبيقها حلاً لمجمل القضايا اللبنانية. والشيخ بشير طوال نضاله الوطني تجنب التنظير الفكري الضبابي، وحارب متاهات السياسة، فتصدى لها بسلاحين، وهما: الموقف المبدئي والحل العملي.

وعندما سئل ذات يوم أن يحدد نفسه بالاستناد إلى تيار فكري معين أجاب: «لست مفكراً، وإنني أحدد نفسي بعملي. أنا قريب من النظرة الإنسانية إلى الحياة... من الفلسفة الشخصانية التي تميز الإنسان بكرامته واستقامته». وإذا عطفنا المنحى العملي على

المنحى المبدئي في قول الشيخ بشير تبين لنا أنه سعى بالممارسة الفعلية إلى ما يحقق إنسانية الإنسان وكرامته إنطلاقاً من معيار خلقي وهو معيار الاستقامة. وهذا الأمر لم يدركه الكثيرون وخاصة أولئك الذين ناصبوه العداء لأنهم أرادوا تحقيق مصالحهم على حساب مصلحة لبنان وكرامة اللبنانيين، فراحوا يتهمونه بالعمالة لهذا الطرف أو ذاك علماً بأنه صاحب قضية ومبدأ لا يستطيع أن يكون عميلاً لأحد، وبأنه لم يعمل إلا لما فيه المصلحة الوطنية. وهذا الموقف المبدئي أعلنه الشيخ بشير أكثر من مرة، وقد عبر عنه بصراحة تامة في 27 حزيران/ يونيو عام 1980 إذ قال: «نحن لسنا عملاء لأحد، نحن لبنانيون وأينما تكون مصلحتنا وتقضي علينا بأن نمشي نمشي، ليس عندنا أي حرج. ولسنا خائفين من أحد. نحن لبنانيون، وكلبنانيين نريد أن نحقق مصالحنا».

ويحق القول إن بشير الجميل لم يعاد أحداً رغبةً منه في العداء بل تصدى لجميع الذين هددوا مصلحة لبنان بوعي منهم أو بدون وعي. وقد هادن جميع الذين تصدى لهم يوم بدلوا موقفهم من القضية اللبنانية، فأبدوا تفهماً لأسبابها وأهدافها وهذا الحكم صحيح بالنسبة إلى الدول العربية، والقضية الفلسطينية، وإسرائيل، والدول الأوروبية بما فيها فرنسا وروسيا، ودول القارة الأميركية وفي طليعتها الولايات المتحدة. فالشيخ بشير جابه هذه الدول والفئات بمقدار إساءتها إلى القضية اللبنانية، وانفتح عليها بمقدار دعمها أو عدم تهديدها لقضية لبنان.

- لبنان والولايات المتحدة الأميركية:

كانت علاقات لبنان بالولايات المتحدة الأميركية قضية هامة جداً، بالنسبة للشيخ بشير وهي قضية شغلته كثيراً واستأثرت باهتمامه. فقد اتهم الشيخ بشير صراحة الولايات المتحدة بالعمل، في مرحلة من مراحل الحرب اللبنانية، على تقسيم لبنان، وجاء اتهامه في معرض رده على الذين اتهموه شخصياً بالسعي إلى التقسيم، فقال: «هناك أصحاب نوايا سيئة يتهموننا بالتقسيم. ويوم نستولي على الحكم في المنطقة الشرقية، فهذا يعني تقسيم لبنان. ويعني أن الأميركيين سيكونون مسرورين لأنهم يكونون أعطوا الفلسطينيين قطعة من لبنان، ويمكن أن يأخذ السوري قطعة أخرى والإسرائيلي قطعة ثالثة، ثم يفرض علينا العيش في كسروان أو الهجرة».

وقضية تقسيم لبنان تطرق إليها الشيخ بشير أكثر من مرة، وله في الصدد هذا موقف مشهور رد به على مشروع هنري كيسنجر قائلاً: «بإمكان هنري كيسنجر أن يقدم للفلسطينيين إحدى الولايات الأميركية إذا كان فعلاً يحب الفلسطيني إلى هذه الدرجة، ولا يحق له أن يقرر مصير شعب لا ينتمي إليه على حساب أرض لا يملكها».

واتهام بشير الجميل لم يقتصر على السعي إلى تقسيم لبنان لحل المشكلة الفلسطينية بل تناول أيضاً عمل الأميركيين ضد المصلحة اللبنانية، وعزمهم على إجلاء اللبنانيين من وطنهم. لقد «كان الأميركيون... يمررون قضايا كثيرة ضد مصالحنا... تحل

قضية فلسطين، تعطى سوريا قطعة من لبنان بدل الجولان، إسرائيل تأخذ قطعة، والمسيحيون يبقون بين المتن وكسروان، والذي لا يعجبه فليذهب إلى كاليفورنيا مع اللاجئين الفيتناميين».

وإضافة إلى ذلك رأى الشيخ بشير أن الأميركيين اعتبروا اللبنانيين شعباً قاصراً يحتاج إلى من يمارس الوصاية عليه، وهذا الأمر عبر عنه بقوله: «هناك من يتهمنا بأننا انعزاليون، ويتهمنا الأميركيون بأننا «سخفاء» لا نستحق أن نحكم أنفسنا بأنفسنا، فهم وحدهم يستحقون هذه الصفات».

وأكد الشيخ بشير أن أميركا أيدت، في وقت من الأوقات، الاعتداء على المناطق اللبنانية المسيحية بل أنكرت على هذه المناطق حقها في الدفاع عن النفس، فقال: «يوم كانت منطقة الأشرفية تحت القصف، وكنا نُذبح ونختبئ في الملاجئ، وكان أولادنا يموتون جوعاً، يومها كانت أميركا تستنكر مقاومتنا وثباتنا، وتؤيد الاعتداء علينا».

واعتبر الشيخ بشير المقاومة اللبنانية، في وجه من وجوهها تصدياً لأميركا التي أرادت إكراه اللبنانيين على قبول مشاريعها: «نحن نواجه الأميركي الذي يريد رأسنا لأنه يريد حل قضية كبيرة. الأميركي يريد تحطيمنا حتى يتمكن من تمرير قراره وتنفيذه». وأضاف مخاطباً المقاتلين اللبنانيين: «إنكم تتدربون لأن الأميركيين يحاولون أن يفرضوا عليكم تقسيم بلادكم، تتدربون لأن كل الغرب يتآمر علينا لتقسيم بلادنا».

هذا هو الجانب السلبي من العلاقات اللبنانية ـ الأميركية، ويبقى أن نرى كيف تحولت تلك العلاقات لتتخذ طابعاً إيجابياً.

يرجع تقارب وجهات النظر بين الولايات المتحدة والشيخ بشير إلى تبدل موقف الولايات المتحدة من القضية اللبنانية بالنسبة إلى علاقتها بمشكلة الشرق الأوسط، فقد رأت الولايات المتحدة أول الأمر أن القضية اللبنانية جزء من مشكلة الشرق الأوسط وعليه يجب أن يتقدم حل هذه المشكلة على حل القضية اللبنانية لأنها فرع من أصل، في حين رأى الشيخ بشير أن حل المشكلة اللبنانية هو المدخل لحل مشكلة الشرق الأوسط، لأن ربط القضية اللبنانية بقضية الشرق الأوسط يعني عملياً تأخير حل القضية اللبنانية إلى أمد لا يعرف مداه، وتعريض لبنان لمخاطر عدة أهمها حل قضية الشرق الأوسط على حساب لبنان، وكذلك لأن الشرق الأوسط لن يعرف الاستقرار إلا إذا استقر لبنان أولاً. وهذا الموقف عبر عنه الشيخ بشير بقوله: «نحن قديسو هذا الشرق وشياطينه، نحن صليبه وحريته، نحن نوره وناره، قادرون على إحراقه إن أحرقوا أصابعنا، وقادرون على إنارته إن تركونا على حريتنا، فحذار من أي حل لقضية لبنان وأزمة المنطقة لا يأخذ بعين الاعتبار ثوابت تاريخ المنطقة وإفرازات حرب لبنان».

ولكن بعدما أعلن الكسندر هيغ وزير خارجية الولايات المتحدة السابق، إن إعادة الأمن والسلام إلى لبنان يعيدها في الوقت نفسه إلى كل بلدان المنطقة، أعلن الشيخ بشير تأييده لموقف الولايات المتحدة الجديد. فقال: «إن السيد الكسندر هيغ لا يخطئ بإعلانه

مثل هذا الموقف عالياً. فنحن لم نزل منذ سبعة أعوام نردد القول نفسه».

ولم يسقط بشير الجميل، في موقفه من الولايات المتحدة، دور الجالية اللبنانية المقيمة هناك، فرأى أن للجالية اللبنانية دوراً في الولايات المتحدة نفسها. وميز في هذا الصدد مرحلتين: مرحلة لم يكن فيها للجالية اللبنانية أي دور، ومرحلة إيجابية طرح فيها اللبنانيون قضية وطنهم، وأسهموا في تبديل السياسة الأميركية تجاه لبنان، فقال: «قبل سنتين لم نكن موجودين في الساحة الأميركية. الفلسطينيون لهم (لوبي) واليهود والأكراد والأقباط... نحن يذهب الواحد منا يجمع قرشين لقبة الكنيسة أو لمدرسة الضيعة. عندما بدأ وجودنا هنالك يتكثف طرحت القضية».

ولم يقتصر موقف الشيخ بشير على هذا الأمر فحسب، إنما دعا إلى تنظيم الاغتراب اللبناني في الولايات المتحدة لأنها تظل ـ وفق رأيه ـ القوة الفاعلة في الشرق الأوسط، فقال: «هناك حاجة إلى تنظيم الاغتراب اللبناني على أساس علمي وحديث، لخلق (لوبي) للقضية اللبنانية في أميركا لأنها مصدر الثقل في الصراع الدائر في الشرق الأوسط».

وقد شدد الشيخ بشير على قيام علاقات حسنة مع الولايات المتحدة في لبنان نفسه، وذلك عبر السفير فيليب حبيب والسفارة الأميركية في بيروت لتأمين الدعم السياسي للقضية اللبنانية، وأكد وجود مثل هذه العلاقات بقوله: «... نحن على علاقات طيبة جداً

مع فيليب حبيب، ومع السفارة الأميركية في بيروت، ومع الحكومة الأميركية عبر مكاتبنا في الخارج وفي الولايات المتحدة الأميركية، نحن على علاقة وثيقة مع كل مراكز الثقل في السياسة العالمية».

وفي ما يختص بمهمة السفير فيليب حبيب في لبنان أبدى الشيخ بشير رغبته في أن تستمر تلك المهمة إذ قال: «أتمنى أن يستمر السفير حبيب في مهمته في لبنان حتى ننتهي من كل المشاكل التي نعاني منها، لأننا كلبنانيين في حاجة ماسة إلى كل صداقاتنا في الخارج حتى تساعدنا على النهوض من كبوتنا، والوقوف على قدمينا».

وإن اهتمام بشير الجميل بحل القضية اللبنانية لم يحل دون اهتمامه بحل قضية الشرق الأوسط حلاً سلمياً، ويظهر موقفه هذا في تأييده المعاهدة المصرية ـ الإسرائيلية لأنها «أظهرت توق شعوب المنطقة للسلام»، ولأن «إنجازها تم لمصلحة الطرفين اللذين وقعاها». !

ـ لبنان والدول الأوروبية:

ساءت العلاقات بين الدول الأوروبية ولبنان لأن هذه الدول أرادت حل قضية الشرق الأوسط على حساب لبنان وحساب المسيحيين فيه، كما أنها سعت إلى تأمين مصالحها في الدول العربية على حساب المصلحة اللبنانية، وهذان الأمران أشار إليهما الشيخ بشير بقوله:

«أوروبا ودول العالم ليست قادرة على هضم الوجود

المسيحي في هذه النقطة من العالم، لأنه يحول دون تنفيذ كل مخططاتها».

وكذلك قال: «الأميركيون والغرب لم يستوعبوا بعد أن ما نقوم به هو دفاع عنهم وعن حضارتهم. إنهم يحاولون اليوم بيعنا ببرميل نفط أو بأي شيء...»

وهذان الأمران حملا بشير على إدانة الغرب بقوله: «إن الغرب ينحط اليوم بسياسته وأخلاقه وإقتصاده».

ولم يستثن الشيخ بشير فرنسا من إدانته تلك، وأظهر رأيه صراحة في تصديه لمواقف دو غيرنغو وزير خارجية فرنسا الأسبق: «كنا نُضرب دائماً هنا. وكان دو غيرنغو ومونديل ثائرين علينا، من أين لكم الحق أن تصمدوا، أنتم عصابات ويجب تأديبكم».

ولكن الشيخ بشير، على الرغم من كل ذلك، أكد انتماء لبنان إلى الديمقراطية الغربية إذ قال: «نحن جزء من العالم الحر»، وأعرب عن تمسكه بالعلاقات الفرنسية ـ اللبنانية، لأن العلاقات بين الشعبين الفرنسي واللبناني تقوم على عاطفة قديمة، مخلصة ومتجردة. ولأن لبنان يشارك فرنسا في نزوعها إلى الحرية والعدل.

وثمة دولة أوروبية حظيت العلاقات معها باهتمام الشيخ بشير، وهي ألمانيا الغربية، فقد رأى أن هذه الدولة تستطيع الإسهام في توطيد إستقلال لبنان، وسيادته الوطنية، وسلامة أراضيه. وأبرز أوجه التشابه بين ما تسعى إليه الأحزاب المسيحية الألمانية وما يسعى

إليه هو شخصياً بالنسبة إلى الحرية، والتضامن، والعدالة، والكرامة الإنسانية، والديمقراطية، والتعددية، والأمن الإجتماعي.

وأوضح الشيخ بشير تصوره لطبيعة العلاقات بين لبنان والإتحاد السوفياتي، فميز الناحية العقائدية من العلاقات التي يمكن أن تقوم بين روسيا ولبنان كدولتين. «إن في روسيا حزباً عقائدياً، وهناك خلاف عقائدي بيننا وبين الإتحاد السوفياتي. ولكن هذا الخلاف لا يحول دون قيام روسيا بدورها في حل الأزمة اللبنانية. فالسوفيات عندهم في لبنان دور يريدون أن يلعبوه، ويمكنهم أن يقوموا هم والأميركيون به شرط أن يدركوا أن لبنان ليس أرضاً سائبة وليس مقاطعة أميركية أو سوفياتية».

ومع إن أهمية الدور الأميركي والسوفياتي في حل القضية اللبنانية بالغ الأثر في الشرق الأوسط، لم يشأ الشيخ بشير أن يبقي حل القضية اللبنانية وقفاً على أميركا وروسيا أو أي دولة أخرى بمفردها فقد طمح إلى حل دولي للقضية اللبنانية، لذلك دعا إلى «أن يضمن الوجود اللبناني السياسي الجديد كل الأطراف والدول التي كانت لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بأحداث لبنان، وأهمها سوريا والدول العربية وأميركا والإتحاد السوفياتي والدول الكبرى والأمم المتحدة».

ـ لبنان وسوريا:

ترجع مخاوف بشير الجميل من سوريا إلى أسباب عدة، وأهمها رغبة الدولة السورية في ضم لبنان أو جعله يدور في فلكها

إذا تعذر عليها ضمه. وقد أوضح الشيخ بشير إن «الكتب المدرسية في سوريا تتعمد الإشارة إلى أن لبنان كان جزءاً من سوريا الكبرى». وهذا الأمر رفضه الشيخ بشير لأن «اللبنانيين يرفضون قيام سوريا الكبرى على حساب لبنان».

وفي ما يختص بدخول الجيش السوري الأراضي اللبنانية أوجز الشيخ بشير الأهداف التي أعلنتها سوريا لتسويق وجود القوات السورية على الأراضي اللبنانية بثلاثة أمور:

أولاً: وقف المجازر الدائرة في الجبل والتقاتل بين اللبنانيين.

ثانياً: مساعدة الدولة اللبنانية على إعادة النظام والأمن إلى البلاد.

ثالثاً: ضبط منظمة التحرير الفلسطينية لتسهيل حل النزاع العربي ـ الإسرائيلي.

ولكن الدولة السورية، عوضاً من تحقيق الأهداف المذكورة سعت إلى «وضع يدها» على لبنان. وهي بدلاً من تقريب اللبنانيين بعضهم إلى بعض صارت «معطلاً لإرادة اللبنانيين». كما أنها لم تدعم الدولة اللبنانية بل راحت تفرض مشيئتها في «الجيش أو الأمن العام أو القضاء وكل أجهزة الدولة». وإضافة إلى ذلك فقد حولت لبنان إلى ميدان صراع بين «مصر القابلة بالحل السلمي» و«سوريا الرافضة للصلح المنفرد».

وفي رأي بشير الجميل إن سوريا لم تحقق أياً من الأهداف التي من أجلها دخلت لبنان بل إن وجودها في لبنان صار يشكل خطراً

على وحدته لأنها أقحمته طرفاً في الصراع الدائر بينها وبين إسرائيل، فهي «تدعي أن البقاع منطقة إستراتيجية يتوقف عليها أمن سوريا»، وإسرائيل «تدعي أن البقاع منطقة إستراتيجية يتوقف عليها أمن إسرائيل».

في حين رأى بشير أن تولي السلطات اللبنانية مسؤولية الأمن في البقاع يمكنه أن يطمئن الجميع. ويدعم وحدة لبنان، وينقذ سيادة الدولة اللبنانية على أرضها، لأن لبنان القوي هو وحده القادر على تأمين حدود جيرانه. وإنطلاقاً من هذا التصور أيد الشيخ بشير «أي اتصال ممكن أن يؤدي إلى الخير والتفاهم، مع الدولة السورية»، شرط أن يقوم هذا الاتصال على المبادئ التالية: «لا إتفاقات خاصة مع سوريا، ولا إتفاق أمني أو سياسي أو عسكري أو إقتصادي».

وموقف الشيخ بشير هذا أملته إعتبارات السيادة اللبنانية، فلبنان دولة وسوريا دولة. والعلاقة بينهما يجب أن تكون «من الند إلى الند»، ولبنان يقيم علاقات مع سائر الدول العربية والعالمية، وهو لا يريد أن يميز دولة عن دولة في تعامله لأنه بذلك يدخل طرفاً في صراعات لا مصلحة له فيها، ولذلك إن «المطلوب أن تكون العلاقة مع سوريا مثل العلاقة مع أي دولة عربية أو عالمية أو أخرى...». ولبنان من ناحيته يتعهد بأمرين:

أولاً: عدم التدخل في الصراعات الدائرة في سوريا.

ثانياً: ألا يكون مصدر قلق أمني على سوريا، إن كان من

الجماعة المضطهدين السوريين في لبنان أم من الأخطار العسكرية التي تهدد الجبهة السورية.

ومقابل هذين التعهدين، على سوريا أن تتخلى عن سعيها إلى «الاستيلاء على جزء من لبنان لأن لبنان لا يستطيع الانضمام إلى أي جزء غير لبناني وغير أصيل منه وفيه، وعليها أيضاً أن تسحب جيشها من لبنان».

- لبنان وإسرائيل:

حدد بشير الجميل موقفه المبدئي من إسرائيل بقوله: «هذا جوابنا بالنسبة إلى التعامل مع إسرائيل: نحن لسنا عملاء لأحد، نحن لبنانيون». وفسر وجود السلاح الإسرائيلي في لبنان بقوله «وإذا افترضنا أن السلاح توافر في قرى لبنانية، فلربما تكون هذه القرية قد حشرت وطلبت السلاح من إسرائيل، والإنسان عندما يقع في ضيق فقد يستنجد بالشياطين»!!

وأضاف: «وإذا عمت ظاهرة الاستنجاد بإسرائيل فالأمر سيكون خطيراً».

وأعلن تمسكه بالجنوب اللبناني، فدعا إلى «العمل على المحافظة على الهوية اللبنانية للجنوب من خلال مبادرة الدولة إلى تأمين كل الخدمات الإجتماعية والتربوية والإغاثية المتعثرة أو المقطوعة، توطئة لاسترداد الدولة سيادتها الكاملة على الجنوب بكل أشكالها».

وفي ما يختص بالصراع السوري ـ الفلسطيني ـ الإسرائيلي على الأرض اللبنانية رأى الشيخ بشير أن الفئات الثلاث تتصارع لفرض الحل الذي يناسبها إنطلاقاً من الوضع اللبناني، بينما اختار الشيخ بشير الحل الذي يمكن اللبنانيين من استعادة أرضهم وإنقاذ شعبهم، وهذا ما أشار إليه بقوله: «المسألة مسألة سباق بين العامل السوري والعامل الفلسطيني والعامل الإسرائيلي، من يسبق الآخر يحل جذرياً الوضع اللبناني القائم. ونحن قرارنا متخذ: نريد استعادة سيادة أرضنا وحرية شعبنا».

وقبل الاجتياح الإسرائيلي دعا اللبنانيين إلى حل مشكلاتهم بالحوار في ما بينهم فقال: «نحن نريد الوصول إلى حل بالحوار، لأننا إذا وصلنا بالإكراه فإن ذلك لا يعني أنه الحل...» وحث اللبنانيين على عدم انتظار مجيء الجيش الإسرائيلي للشروع في حل المشكلة اللبنانية لأن «... هذا الجيش ربما يجيء وربما لا يجيء وهو إذا جاء فلربما كان مجيئه في غير مصلحتنا، وربما لا يجيء من خلال إعتباراتنا نحن».

وحين رجح قيام إسرائيل باجتياح لبنان نبه إلى ذلك بقوله: «... ينبغي أن نضع في إعتباراتنا أن العملية الإسرائيلية واردة في وقت يحددونه هم»، ثم عاد وكرر «... إن إسرائيل، إذا دخلت فإن دخولها لن يكون لإنقاذي، إنما لمصلحتها هي ولاعتبارات محض إسرائيلية. وقلت أيضاً إن هذا يبدو احتمالاً وارداً ليس لسواد عيني إنما لأمن الإسرائيليين».

وقبل حصول الاجتياح الإسرائيلي حدد موقفه بقوله: «. . . أما نحن فقرارنا هو الالتفاف حول الرئيس سركيس ووضع كل إمكاناتنا بتصرفه والتعاون معه وعدم الانجرار عسكرياً وسياسياً». وبعد حصول الاجتياح الإسرائيلي قال إن «معركة إسرائيل ليست معركتي، فالإسرائيليون دخلوا لأجل أنفسهم وليس لأجلنا».

وعندما سُئل عن رأيه في توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل حدد موقفه إنطلاقاً من التصورات التالية:

أولاً: لم يشأ الانفراد باتخاذ أي قرار في هذا الصدد.

ثانياً: ضرورة وجود حكومة لبنانية قوية وقادرة على مواجهة هذا الأمر.

ثالثاً: تفاهم اللبنانيين حول هذه القضية.

رابعاً: التفاهم مع الدول العربية الصديقة.

خامساً: التفاهم مع الدول العالمية الصديقة.

وهذه التصورات أدرجها الشيخ بشير ضمن مبدأين:

أولاً: عدم التخلي عن أي شبر كان من الأرض اللبنانية لأي كان.

ثانياً: إعتبار الوجود الإسرائيلي المسلح على أرض لبنان وجوداً غريباً لأن «. . . هذا الوجود مع الوجودات الغريبة المسلحة الأخرى على أرض لبنان يجب أن ينتهي وأن يوضع حد له، اليوم قبل الغد، وكلما أسرعنا كلما كان ذلك أفضل».

ـ لبنان والقضية الفلسطينية:

لم يقف بشير الجميل من القضية الفلسطينية موقفاً عدائياً صادراً عن حقد أو رغبة في التشفي أو الانتقام.. ومنطقه في هذا الصدد واضح بالنسبة إلى الذين يواجهون الواقع بالمنطق والجرأة والتجرد. لقد أدرك الشيخ بشير أن في المجتمع اللبناني تناقضات، وأن وجود المقاومة الفلسطينية المسلحة في لبنان، شأنه أن يفجر تلك التناقضات، كما أنه وعى أن بنية المجتمع اللبناني طائفية، وإن الواقع المجتمعي اللبناني واقع جماعات وطوائف.

«ولقد ثبت للمؤرخ وللباحث الإجتماعي، على نحو قاطع، إن كل جماعة متمسكة بخصوصيتها وإن كل إدعاء مخالف، يشكل تزويراً لحقيقة الواقع السوسيولوجي ـ الإسلامي والمسيحي على السواء».

وعليه يكون الوجود المسلح الفلسطيني في لبنان سبباً من أسباب تفجير التناقضات بين اللبنانيين، وعاملاً يدك بنية المجتمع اللبناني ويحول دون تنظيمها «على نحو تآلفي بدلاً من أن يكون على شكل تصادمي».

لهذا السبب حمل الشيخ بشير على المقاومة الفلسطينية لاستغلالها التناقضات اللبنانية التي لم تتمكن الصيغة السابقة من تخفيفها وتهذيبها، وإذا تتبعنا موقف بشير الجميل من المقاومة الفلسطينية وجدناه يتبع خطاً تصاعدياً. فقد دعاهم إلى التصرف كضيوف في لبنان، وحثهم على ضبط وجودهم فيه واحترام سيادة الدولة اللبنانية، وهذه الأمور عبر عنها بقوله: «إن الفلسطينيين

ضيوف وعليهم أن يتعاملوا على أساس أنهم ضيوف لا أسياد، أو دولة ضمن الدولة وجيش فوق الجيش». كما أنه دعا في عيد «حزب الكتائب» الخامس والأربعين إلى «... انضباط منظمة التحرير الفلسطينية بكل فصائلها والأطر المتفرعة عنها بمقتضيات السيادة اللبنانية الشاملة والانتقال بالعلاقات اللبنانية ـ الفلسطينية من حال العداء إلى حال الثقة بما يتناسب مع متطلبات مرحلية الوجود الفلسطيني في لبنان».

وتلفت إشارة الشيخ بشير إلى مرحلية الوجود الفلسطيني في لبنان لأن ما حاربه فعلاً هو تحول هذه المرحلية إلى إقامة دائمة أي إلى توطين. وقد أكد الشيخ بشير عدم عدائه المبدئي للفلسطينيين مركّزاً اهتمامه فقط بالقضية اللبنانية، إذ قال: «... لا نريد أن نرميهم في البحر ونصفيهم، بل نريد شيئاً واحداً هو أن يبحثوا عن وطن لهم خارج الوطن اللبناني». إلا أنه أدرك أن الوجود الفلسطيني في لبنان تحول إلى وجود استيطاني، لذلك دعا منظمة التحرير الفلسطينية إلى إزالة «... كل معالم التوطين التي تحققت حتى الآن على الأرض والتي تسعى المنظمة إلى إخفائها عن الرأي العام الداخلي والعربي والدولي عبر تصريحات تتنافى والواقع القائم والذي نراه ونشاهده كل يوم».

ونظر الشيخ بشير في عاقبة التوطين، فرأى أنه سيؤدي إلى تقسيم لبنان، ونبه الفلسطينيين أنفسهم إلى أن العالم لن يتحمس «لإيجاد كيان فلسطيني، طالما هو يجد الفلسطينيين ينشئون دولة على جزء من الأرض اللبنانية»، وقد حمّل الشيخ بشير القيادة

الفلسطينية مسؤولية ما سينجم عن سياستها الرامية إلى ربط مصير جنوب لبنان بمصير الضفة الغربية. ورداً على سؤال قال: «إذا عمت ظاهرة الاستنجاد بإسرائيل فالأمر سيكون خطيراً، ولكن من المسؤول عن ذلك؟ القيادة الفلسطينية وحدها هي المسؤولة». لذلك دعا المقاومة الفلسطينية إلى الخروج من لبنان.

هذه هي أفكار وتطلعات الرئيس السابق المنتخب الشيخ بشير الجميل، وقد أوردناها كما جاءت من المقربين إليه، ولن نكون الحكم على تلك المرحلة وإنما التاريخ هو الحكم الأول والأخير إن كُتب بأمانة.

ـ من نفذ عملية الاغتيال؟

في 14 أيلول/سبتمبر عام 1982 تم اغتيال الرئيس بشير الجميل، وبعدما أفاق اللبنانيون من هول الكارثة، بدأ السؤال: من نفذ الجريمة؟ ولماذا؟ من الذي اغتال بشير الجميل؟

بدأت التحقيقات، وكانت النتائج المذهلة: اغتيال بشير الجميل كان بناءً على قرار من «الحزب القومي السوري» على أثر إجتماع خصص لهذا الأمر.

ولم يكن «الحزب القومي» وحيداً في الساحة بل كان له شركاء، ولقي المساعدة من استخبارات دولية معينة لم يرد التحقيق الإفصاح عنها.

واختير حبيب الشرتوني لتنفيذ الجريمة لأنه قومي سوري

عقائدي يمكن الركون إليه في عملية من هذا النوع، ولأنه يسكن في البناء الكائن في بيت الكتائب في الأشرفية مما يسهل عليه عمليته.

وعلم أن الشرتوني مارس مهمة حراسة مركز «الحزب القوي السوري» في عاليه في العامين 1976 و1977، ثم سافر ليتابع دراسته في فرنسا لمدة أربع سنوات، عاد بعدها ليسكن في بيروت الشرقية، وليتردد إلى مبنى بيت الكتائب، إضافة إلى أنه يتكلم ثلاث لغات بطلاقة، حتى أن أهله لم يكونوا على علم بما خطط له.

الحزب القومي كان يتعقب تحركات الجميل بواسطة عملائه، وحين اتخذ القرار بالعملية اتصل نبيل العلم بحبيب الشرتوني الذي وافاه إلى منزله الكائن في بيروت الغربية حيث سلم الشرتوني المتفجرات ووسيلة التفجير التي هي عبارة عن حقيبة سنترال جيني، ورافقه إلى الطبقة السفلية لبناء في المنطقة الغربية، ودربه على استعمال هذه المتفجرات المتطورة. رقم المفتاح (51) هذا الرقم كان الشيفرة التي تم على أساسها التفجير.

نقل المتفجرات كان بواسطة سيارة والد الشرتوني الذي نقل كمية المتفجرات من منزل نبيل العلم إلى منزله في الناصرة قبل يومين من وقوع الحادث. ثم نقل حبيب هذه المتفجرات إلى منزل جده الكائن فوق بيت الكتائب بواسطة حقيبة ثياب، وبما أنه من سكان هذا المنزل لم يشتبه به أحد، أوصل هذه الحقيبة إلى الطبقة التي تعلو بيت الكتائب ليلاً، ووضعها في صندوق على (التتخيتة)

حيث حضرها في انتظار القيام بعملية التفجير.

في أثناء تنفيذ العملية، لم يلق الشرتوني أي مساعدة، فقد انتظر وصول الرئيس إلى بيت الكتائب، ثم اتصل بشقيقته طالباً منها الخروج بحجة ألم في يده يمنعه من قيادة السيارة، وبعد خروجها قام بعملية التفجير، ورمى جهاز التفجير في قطعة أرض في الناصرة بعدما فخخه لينفجر بمن يعثر عليه.

وحاول الشرتوني أن يجد شقيقته قبل فراره من المنطقة، واعتقد بأن بقاءه في المنطقة يبعد عنه الشبهات فقرر البقاء في منزله في الناصرة في انتظار هدوء الوضع.

في هذا الوقت كانت الأجهزة الأمنية في «القوات اللبنانية» بدأت بالتحقيق في الموضوع، وعلمت أن حبيب الشرتوني يسكن في البناء الذي يقع فيه بيت الكتائب، إضافة إلى انتمائه السابق إلى «الحزب القومي السوري»، فأعطيت التعليمات الفورية إلى كل الحواجز على مداخل بيروت لمنع فراره، وتوجه فريق من المحققين إلى موقع الانفجار حيث شوهدت شقيقة الشرتوني تلطم رأسها وتبكي، ولما سئلت عن مكان وجود شقيقها، أفادت بأنه اتصل بها لتقابله قبل الانفجار قرب ساحة ساسين. بعدها توجهت فرقة من «القوات اللبنانية» إلى منزل الشرتوني وألقت القبض عليه، والغريب في الأمر أنه لم يبد أي انفعال أو خوف وكأنه كان يتوقع انكشاف أمره، واعترف بجريمته وبدأ يسرد وقائعها في هدوء تام[1].

---

(1) مستوحاة من «موقع الرئيس بشير الجميل الإلكتروني».

هكذا اغتيل قائد «القوات اللبنانية» الأسبق ورئيس جمهورية لبنان المنتخب «حديثاً»، مع العلم بأنه لم يكن قد تسلم بعد مقاليد الحكم.

«الحزب القومي السوري» برر عملية الاغتيال بأن بشير الجميل أوصلته إسرائيل إلى سدة الرئاسة، ويجب تصفيته.

الشيخ راغب حرب
(1952 ـ 1984)

تكبر الأشياء عندما نفقدها.. ومنها الإنسان، ويصبح كبيراً جداً عندما يستشهد.. فيملأ النفس.. ويزداد فيها عظمة وسمواً، وهذه الرفعة التي يستشعرها الحيّ في الميّت ناتجة عن استيقاظ النفس على حقيقة الفقيد ونظرتها إليه نظرة خالية من المحاسد والمطامع.. فتكون ثاقبة صافية تحيط به وتستوعبه، وهذه الرفعة ناتجة ـ أيضا ـ من الفراغ الذي يتركه الفقيد بعد ذهابه ومفارقته لموقعه، فيظهر لأنصاف عارفيه ما كان خافياً عليهم ممن أحبوا، وهي ناتجة ـ أيضاً ـ من سيل الذكريات الجميلة الرائعة التي يستثيرها الفراق.. فيبدو منها ما كان مختزناً في باطن الذهن ينتظر المحرِّض ليظهر ويبدو.. وترى الشهيد سامياً عندما يكون موته تاجاً قوي الوهج.. باهر السطوع.. يشير إلى ما يشبه الأوحدية والتفرد في صفات وسجايا.. أرادها الله مثلاً وقدوة.. فاختارها وتوّجها، فيصبح الاستشهاد سبباً للبحث عن هذه السجايا لنسجلها.. لنعاينها.. بعد غياب الكثير منها في أجواء رفع الكلفة.. وعبث الحياة.. وربما التنافس.. الذي قد يحبّه الله تعالى.

- أسرته:

أسرة المرء جزء منه.. في الوقت الذي هو جزء منها، وكما والده كذلك جدّه.. رحمهما الله تعالى.. قد عاشا على تراب جبل عامل وشاركا في إعماره، وقد كانت هذه الأسرة تمتهن الزراعة وتعتاش منها مثل معظم الناس، وإن كان قد سافر والده إلى فلسطين في بواكير شبابه وعزّ رجولته ليعمل فيها حمّالاً مثل العديد من الرجال الذين سافروا إلى فلسطين وعملوا في الزراعة أو التجارة أو الخدمات، ولكنه سرعان ما استقر في بلدته جبشيت ليتزوج قريبته وابنة عمه والتي أصبحت أم الشهيد.. بعد ذلك، فينصرف معها إلى زراعة أرضه حبوباً ثم بعد ذلك تبغاً.

قبل أن يولد الشهيد أحب والده أن يسميه راغب مع قلة من يسمى بهذا الاسم، وقد يكون متأثراً بشخصية رجل من آل حرب عرف بالخير والكرم والوجاهة. وكان قد قضى في حرب تركيا.

- طفولته:

كان ثمرة زواج الوالدين ولادة راغب بعد عام من زواجهما وذلك في صيف العام 1952م. ونشأ راغب كما ينشأ أي ولد من أترابه في لهوه وفي لعبه.

وتتذكر أمه بواكير طفولته فتقول إنه كان يحب مساعدة إخوته وأمه ويعطف عليهم، وكان أثيراً عند والده، حبيباً له..

أترابه لا يتذكرون فيه شيئاً مميزاً فيما بين الثانية والرابعة.. حيث تمضي طفولته على رسلها هنيّة راضية، ولكن ثَمّة ما يلفت

النظر، وهو عفّته المبكرة عن تناول أرزاق الناس التي ألف الصبيان غزوها في سنواتهم الأولى. فقلما كانت تنجو شجرة أو بيضة أو (صخرة) من عبث الأطفال وسطوهم، بينما راغب لم يذكر له فعل من هذا يذم به.

وقد يكون ملفتاً للنظر أن يألَف مجالس الرجال في هذه السن المبكرة، وكأنه يتطلع فيها إلى مستقبله الذي جعله جليساً مشهوراً.

ـ صباه:

إن سمات الشيخ راغب سرعان ما توالت بالظهور، فقد دخل المدرسة في سن السابعة، المدرسة الرسمية الموجودة في جبشيت، وحتى المرحلة الإبتدائية فقط. ومن أراد دراسة المرحلة التكميلية فلا بد من ذهابه إلى النبطية.

في المدرسة يدخل الطفل عالماً جديداً، تبدو فيه المواهب وتتبلور الصفات، ولكن راغب لم يكن مميزاً بنحو صارخ. كان معقولاً في تحصيله العلمي، ويتمتع بمستوى جيّد من الذكاء جعل أستاذه مرة يبشّر أباه أن راغب قد قرأ اليوم جريدة. وكان في الصف الثالث، ويزهو الأب بولده فيفاخر به، ولولا أهمية ذلك لما أنس الأستاذ ولا افتخر الوالد، بل ولا تذكرها تربه الذي حدّث بذلك.

ولكن الذي ذكرته أمه ـ وقليلاً ما تذكرت من صباه ـ أنه كان يكره اللغة الفرنسية ويضيق بها ذرعاً ويبدي انزعاجه من الدولة الفرنسية، بينما يؤكد تربه أنه كان يسخر من هذه اللغة.. ويسأل

أستاذه.. استحقاراً للمادة.. عن معنى (قبقاب) أو (جلال) أو ما يشبه ذلك من الكلمات السخيفة. كذلك فإنه كان يبدي انزعاجه ممن يستعمل بعض الكلمات الفرنسية في كلامه العادي.

وفي هذه الفترة ظهرت على الشهيد ميزة نادرة في أولاد جيله.. سيّما مع المعلمين الذين كانت لهم هيبة شديدة في نفوس الناس والطلاب. هذه الميزة رباطة الجأش وحسن التخلص، فقد كان في المدارس عرفٌ يمنع مراجعة الدروس في المدرسة أيام الامتحانات. وقد صدف أن أستاذ صفه كان عنده امتحان جامعي، فبدأ يراجع دروسه داخل الصف، وتساهل مع الطلاب فسمح لهم بمراجعة الدرس، وبينما هم على هذه الحالة وإذ بالمدير يطرق الباب بعنف فاصفر لون الجميع خشية من سوء العاقبة وارتبكوا بين أن يفتحوا الباب فوراً أو يتمهلوا لإعادة الكتب إلى الحقائب. وكاد أحد الأولاد أن يفتح الباب ويفضح الأمر...! فتدارك راغب الأمر فاستوقفه وطلب من الجميع إغلاق كتبهم وإعادتها إلى الحقائب وبعد ذلك فتح الباب واعتذر للمدير عن التأخر وقضي الأمر.

وفي مرة أخرى طلب منهم أستاذهم كتابة مائة سطر قصاصاً لهم، وهو تكليف مزعج عادة، وبدأ الطلاب بكتابة القصاص، ولكن الشيخ راغب سرعان ما قدم أوراقه، ومجرد أن رآها الأستاذ ابتسم ضاحكاً وأعفاه من القصاص. بعدما اكتشف أن الشهيد كتب سطراً واحداً في أول كل صفحة ثم يملأ باقي الصفحة بعلامة (0)..!

أجواء جبشيت فيما بين عامي 1965 و1967 لم يكن فيها شيء

مميز، فلم يكن فيها عالم ديني يشيع وجوده جواً دينياً، ولم يكن فيها حالة إجتماعية تذكر بها وتشتهر، بل كانت في ذلك قرية عادية. أما الحالة السياسية فقد شهدت وجوداً مهماً للقوميين السوريين، تمثل بإنشاء ميليشيا عسكرية كان أفرادها يخرجون باستعراضات مسلحة، الأمر الذي دفع الصبية لتقليدهم في أسلحة خشبية واستعراضات مشابهة. ولكنها حالة سرعان ما زالت بعد هجمة النظام على القوميين السوريين والقضاء عليهم. فلم تترك أثراً راسخاً في أجواء جبشيت ولا في أذهان بنيها.

ولكن يبدو أن ثمة طروحات مبكرة حول مشكلة التبغ وتحسين وضع المزارع، خاصة في مدينة النبطية التي عاش فيها الشهيد سنتين دارساً. فكان أن أبدا في صباه عطف على هذه المطالب ومناصرة لها، كذلك بدا عليه الوعي السياسي في هذه المرحلة.

وقد يكون لعناية جبشيت المحدودة بمجالس العزاء وتنظيم مواكب اللطم وأشعارها ما عكس أثراً على علاقة الشهيد الوثيقة بالإمام الحسين عليه السلام، فقد حدّثت أمه أنه حضر مواكب النبطية في عاشوراء في سن العاشرة. وأنه كان يحثها على الإنفاق عن روح الإمام الحسين عليه السلام في سن مبكرة، وقد يكون لحضوره مجالس الشيخ محمد مهدي شمس الدين حول الثورة الحسينية ما عمّق في نفسه الولاء المميز للإمام الحسين عليه السلام، ليصبح سمة قوية فيه.

وفي فترة الصبا، بدت على الشهيد بوادر تدين وإيمان قل وجودها فيمن هم في سنه، بل هي لم تكن ظاهرة في مجتمع جبشيت، وقد بدا ذلك في اهتمامه بدروس الدين التي كان يتلقاها

في المدرسة، وفي مواظبته على الصلاة، وعلى أدائها في المسجد، وكثيراً ما كان إخوته يحاولون إقناعه بالصلاة في البيت فيصرّ إلاّ على أدائها في المسجد. مضافاً إلى ما بدا من الشهيد من حب لمجالس العلم والسهرات الدينية التي كان يحييها بعض العلماء الكبار في جبشيت.

ـ مراهقته:

في هذه الفترة تبلور الكثير من صفاته، وهي التي اتسمت بشيء من المواجهة والصراع مع الآخرين الذين رأوا في بعضها نشازاً غير مألوف ممن هم في مثل سنه وفي زمان مثل زمانه.

انفتاحه المبكر على المجالس ومجتمع الناس وحبه للمحاورة والجدال انعكس على المدرسة فضاق بها ذرعاً فتركها فيما بين الرابعة عشر والخامسة عشر، وفي نفسه شوق شديد إلى طلب العلوم الدينية. بعد أن لم يجد في مواد المرحلة التكميلية ما يشبع حبه للعلم، وقد تأكد هذا الأمر لدى انصرافه عن المشاركة الفعالة في الزراعة التي كان الناس يرغبون العمل فيها. وكان الأهل يأملون أن يساعدهم أولادهم فيها، ولكن نزعته الإجتماعية أبت عليه الإغراق في هذه الأعمال وأبت عليه إلا أن يكون واحداً من أبرز رواد المجالس والسهرات.

وطبيعي أن لا يمر هذا الأمر دون أن يجلب انزعاج أبيه وتغامز الناس في راغب، فلم يكن مألوفاً أن يرى شاب حدث مراهق، إلا بين مشاتل التبغ وأكوام أوراقه من منتصف الليل حتى وقت متأخر من النهار. فاشتهر نعته بالبطالة والفشل والثرثرة ونحو ذلك،

بينما روحه المتوثبة للإصلاح تأبى عليه إلا أن يخوض هذا المخاض وكأنه مدفوع بقوة قاهرة تعجزه عن المقاومة.

لكن راغب في العام 1967 كان يعيش النكسة وبدايات تشكيل المقاومة الفلسطينية، وضجيج إنتصار المقاومة الجزائرية. وهو المسلم الذي كان يدهش رفاقه وأصحابه بطروحات متقدمة تأثرت بأجواء عدد من شباب «جمعية أسرة التآخي الخيرية» بالإضافة إلى مطالعاته الغزيرة، وذاكرته القوية فضلاً عن ميزة الشخصية من الجرأة ورباطة الجأش وسرعة البديهة والإيمان. كلّ ذلك ساهم بسطوع صفاته وتبلور اتجاهاته لتجعله مبرزاً بين جملة من أفراد جيله في اندفاعه في العمل الإسلامي الثوري والمنظّم، فيما بين سنته الرابعة عشرة وما بعدها من سنوات المراهقة التي تتميز طبيعياً بالحماس.

كانت ثقة الشهيد بنفسه تدفعه إلى محاورة أقطاب في الفكر اليساري وينال إعجابهم بسعة إطلاعه وحسن محاورته وفهمه.

ويتحمّس لشؤون العمل الإسلامي وشجونه، فتنشىء هذه الجماعة تكتلاً يحتوي على مندوب من كل قرية من النبطية وما جاورها، فيجلسون في لقاءات أسبوعية يستعرضون مشاكل العمل ويتواصون فيما ينبغي أن يعملوا، وينصرف كلٌ إلى قريته.

ونما هذا التكتل حين فكّر الشهيد في إنشاء حزب إسلامي يسميه «حزب الطليعة الإسلامية»، وكتب بيده ميثاقه وأكّد على ضرورة احتوائه على صفة الثورية الإسلامية. وكثّف نشاط هذه الجماعة حتى نجحت بفرط تجمعات لـ «حزب البعث» في جبشيت، في هذه المرحلة المبكرة من نشاطها.

ومن الطبيعي أن يترافق هذا النشاط الإسلامي مع مناصرة قوية للقضايا الإسلامية والعربية المطروحة في تلك الأيام، فيناصر الشهيد الثورة الجزائرية ويتحمّس لإنتصارها، كذلك هو يناصر القضية الفلسطينية ويشتد في الحماس للثورة الفلسطينية في أولى بداياتها ولقضيتها العادلة.

وعلى المستوى اللبناني، وفي هذه المرحلة من شبابه كان يجاهر بكراهيته للكيان اللبناني ونظامه، ويحتج على ظلم السلطة، ويعتبر العَلَم اللبناني رمزاً للتسلط الفرنسي والتبعية للاستعمار. وتوّج ذلك كلّه بتمزيق هويته اللبنانية وألقاها على الأرض.

ويبدو أن ما كان يشهده من ظلم السلطة خاصة لمزارعي التبغ، كون هذه الزراعة حيوية جداً في معاش الإنسان، جعل عنده هذه الحساسية المفرطة والمبكرة من النظام، ووجهه إلى مناصرة قضية التبغ بقوة وفعالية، مضافاً إلى ما عنده من اعتقاد بأحقية الإسلام بحكم الحياة في هذه الفترة المبكرة من حياته.

وفي كل عمله هذا لم يكن ينسى ثورة الإمام الحسين عليه السلام، فهي قد بدأت تكبر في قلبه تدريجياً حتى غدت ميزة وجزءاً من ثقافته يستشهد به في العديد من المناسبات، ويفيض في الحديث عنه في مجالسه.

وبسفر الشهيد راغب إلى بيروت تنقضي هذه المرحلة التي عاشها في بلدته. بين أهله وأترابه وأبناء بلدته والتي لم يغب عنها كثيراً.

ـ طلبـه للعلـم:

1 ـ في بيروت:

في أوائل العام 1969 جاء راغب حرب إلى بيروت مستوطناً لطلب العلم، وطبيعي أن يستقر في الشطر الشرقي من بيروت حيث كان موطن الشيخ محمد مهدي شمس الدين في حي الدكوانة إماماً لمسجدها، والسيد محمد حسين فضل الله في حي النبعة إماماً لمسجدها.. وكلاهما كان الأبرز في العمل الإسلامي في ذلك الحين، وكان لكل منهما حوزة علميّة ناشئة.. يقصدها طلاب العلوم الدينية.

ولا شك أنه بقدومه إلى بيروت وجد وسطه الذي طالما حلم به في صباه، فقد تجمعت في قلبه كل آماله الدينية والإجتماعية والسياسية لتتحقق دفعة واحدة في بيروت، وليجد نفسه قرب من أحبهم من العلماء ومن الرجال المؤمنين الذين تتلمذ عليهم من بعد، فيكون بذلك في أحسن حالاته النفسية.

وهو في الفترة القصيرة التي قاربت العام التي قضاها في النبعة لم يتغير كثيرا، فحماسه..واهتماماته..ومزاجه..ونمط سلوكه..ظلّ كما هو، يفكّر بقضايا المسلمين العامة، ويناصر القضية الفلسطينية بكل قوة، سيما خلال المواجهات التي كانت تحصل بين النظام اللبناني وبين المنظمات الفلسطينية، وخوضه في شتى مجالات الحوار، ومشاركته في المناسبات والاحتفالات التي كان يدعى إليها في ذلك الوقت والتي كان يشارك أمثال الشيخ عبد الله العلايلي، والشيخ الزغبي والدكتور أسعد علي، والأستاذ

بولس سلامة.. فكان يخرج من هذه الاحتفالات مبهوراً بسيل الأفكار والتعابير الراقية التي سمعها، فيحفظ منها مقاطع يرددها في المجالس التي يحل فيها.

وقد بدا لمن عرفه حاضر البديهة حسن الإجابة.. كما بدا غير مألوف كثيراً في مزاجه وطبائعه، الأمر الذي دفع بعض أساتذته إلى الإكثار من نصحه وتوجيهه، وأنّى لروحه المتمردة أن تستجيب للكثير من النصائح في الوقت الذي تريد هذه الروح أن تبني فرداً مميزاً.

وفي هذه الفترة أشبع شوقه لزوج عمته أبي علي فحص.. وأكثر من مجالسته.. وتشبّع بالعديد من اهتماماته الثقافية والسياسية، حيث تميّز أبو علي بسعة الإطلاع وتنوع الاهتمامات، كما أشبع شوقه لغير أبي علي من الرجال الذين أحس تميزهم عن عصرهم وزمانهم.. ورأى فيهم معلمين وملهمين له.

ويبدو أن تحصيله العلمي آنذاك كان قليلاً، فقد قضى وقتاً قصيراً في النبعة قارب السنة أو زاد عنها قليلاً، وفي بدايات طلب العلوم الدينية لا يتعلم الطالب أموراً هامة تؤثر على شخصيته وتضيف إليها شيئاً جديداً سيما على شخصية نافذة مثل شخصية الشهيد الذي لم يكن يدع شيئا يمرّ دون أن يخضعه للتحليل والنقد.. بما في ذلك الدروس التي كان يأخذها.

كذلك فإن من المستبعد أن يكون قد تأثر كثيراً بأحدٍ من أساتذته، وإن رغبته بالسفر إلى النجف الأشرف قد تشير إلى عدم شعوره بالراحة كثيراً، كون النبعة لا تشبع رغبته بالانفتاح على علم

مميز، وحوزة النجف أرحب آفاقاً وأولى بطموحه من حوزة صغيرة ناشئة، كما أن السفر إلى النجف يبقى رغبة تلح على كل طالب علم، كونها هي آخر الغايات التي يرمي إليها مهاجراً في سبيل المعرفة.

2 ـ هجرته إلى النجف:

يبدو أنه لم تجتمع عوامل كثيرة لتدفع راغب إلى الهجرة، فهو يريد أن يطلب العلم.. ويبدو أنه لم يكن ميالا لأن يصبح مجتهداً، بحدود العلم عنه تنتهي عند العمل. وعند خدمة الناس والقيام بشؤونهم المقدور عليها، وزملاؤه لم يلمسوا منه ذلك الحماس الطاغي والعشق الكامل للعلم بمقاييس الحوزات العلمية، فقد كانت ألفته لمجالس الحوار ورغبته في الإصلاح والتوجيه أكثر من رغبته بالعلم المجرد الأكاديمي، ولأجله امتزج جلوسه للدرس بحنين إلى ساحة العمل. وكأنه أحب لو يطوي مراحل الدرس بأقصى سرعة ليوفر أداة العمل القوية ويرتد عائداً إلى ربوع جبشيت متحمساً لها وللعمل فيها.

وقد ظهر ذلك في طريقة عيشه فلم يكن يطيق فراق إخوانه، فهو عندهم جوّال عليهم، يرفع الكلفة فيقصدك ساهراً أو مغذياً، ويصادقك فتتعمق صداقتك ومحبتك في قلبه، ولم يقتصر في علاقته على اللبنانيين من الطلاب بل انفتح بقوة وحماس على عدد من الأخوة العراقيين بنحو ملفت للنظر. ودون أن يكون وراء ذلك تكتل حزبي، بل هي روحه التي تحب أن ترصد ساحات العمل لتعرف ما يجري فيها.

وانفتاحه على الإيرانيين كان محدوداً ولكن عندما كان الإمام الخميني يقوم ببعض النشاطات السياسية فإنه كان يواكبها وينفعل بها، فقد اهتم بكرّاس أصدره الإمام بمناسبة احتفالات الشاه بمرور ألفي عام على تأسيس قوروش لدولة الفرس وكان عنوان هذا الكرّاس «التناقض الأساسي بين الإسلام والإمبراطورية»، فلم يكتف بالاستفادة منه بل أرسله إلى أخوته في جبشيت ليطلعوا عليه، كما أرسل لهم كتاب «الحكومة الإسلامية» الذي كان قد صدر حديثاً. وهذه العناية بإشراك إخوانه لها دلالتها في توجهه العملي المبكر، وفي هذا الامتزاج بين العلم وبين العناية بالنشاط الإسلامي.

وهو لم يظهر عليه شيء مميز حينها بالنسبة لقضية الثورة الإسلامية في إيران. ففي بداية السبعينات لم يكن للإمام نشاط صارخ في هذا الاتجاه ولم يكن يظهر لطلاب العلوم منه أكثر من كونه واحداً من كبار العلماء ومراجع التقليد مضافاً إلى صعوبة انفتاح الطلبة العرب على أجواء الأخوة الإيرانيين بسبب اللغة، ولكن عناية الشهيد بما يصدر عن الإمام باللغة العربية دليل على سعة آفاقه وتطلعاته الإسلامية.

وقد خاف زملاؤه بانفتاحه على بعض طلاب العلم الذين كان لهم جو خاص يجعلهم أقرب إلى التيار العلماني «التقدمي» من قربهم لمعظم طلاب العلم بأجوائهم الرسالية النقية، وكانوا شبه معزولين بسبب ما هم عليه، وتكون العلاقة معهم موجبة للاستنقاص والنقد، ولكنه ـ وبجرأته ـ اقتحم هذا الجو وانفتح على

بعض رموزه دون حرج وبقصد فهمهم ومحاولة إصلاحهم، ولم يكن يبالي بانتقادات زملائه، في الوقت الذي لم يوهن ذلك من مقامه وحرمته.

كذلك فإن هذه الروح المميزة التي تخلط العلم بالعمل بدت في علاقته بالشهيد الصدر رضوان الله عليه، فهو في بدايات السبعينات لم يكن بمستوى حضور دروس الشهيد الصدر العالية واستيعابها. فكان من رواد ديوانه الذي يجلس فيه يومياً للقاء الناس والإجابة عن أسئلتهم المتنوعة والتي كان يقصد لأجلها من جميع أنحاء العراق بل ومن خارجه أيضاً.

الشيخ راغب حرب كان يجلس في معظم أيام الأسبوع في ديوان الشهيد ليسمع ألواناً من المعرفة المقرونة بالمعاناة ومشاكل الناس حيث تكون عملاً وحياة في الوقت التي هي اكتساب وعلن، مع ملاحظة أن معظم طلاب العلوم الدينية لم يكونوا مستشعرين لأهمية هذا اللون من التعلم. ولا يقصدون هذه المجالس إلا في أوقات محددة من الأسبوع أو في المناسبات أو يترددون من دون انتظام.

وكان ملفتاً الجهد الذي كان يبذله في خدمة العمل الإسلامي في لبنان أثناء وجوده في النجف الأشرف، فهو كان على علاقة وطيدة بعدد من إخوانه في منطقة النبطية عندما كانوا يعملون للإسلام ويدعون إلى الله تعالى، وهو لم يدع هذه العلاقة ولا أهملها، بل ظلّ يعتبر نفسه معنيّاً بها وجزءاً منها، وكان أحد أبرز نشاطاته على هذا الصعيد أنه كان يهتم بجمع الكتب وإرسالها إلى

جبشيت لإنشاء مكتبة إسلامية عامة فيها، وكان يجمع هذه الكتب في صناديق ويرسلها مع الزوار العائدين إلى لبنان.

على مستوى التحصيل العلمي، فإن الحصيلة التي عاد بها إلى لبنان الشهيد الشيخ راغب حرب كانت بداية إطلالة على مرحلة السطوح. ففي صيف العام 1974 ـ وهو العام الذي عاد فيه إلى مسقط رأسه جبشيت ـ كان في أوائل كتاب الكفاية وأواسط اللمعة الدمشقية، وهو خلال السنين الثلاث التي قضى معظمها في النجف الأشرف قد درس المنطق والنحو والبلاغة وأصول فقه المظفر والشرائع. وكان يبدي ملاحظات على بعض الكتب الدراسية وأساليب تدريسها، مما يشير إلى ذهنيته الناقدة التي سلف التنويه بها.

وكان ثمة ندوة خطابية لجملة من طلبة العلوم اتفقوا على أن يتدربوا من خلالها على الخطابة فيخطب أحدهم برفاقه وينقده رفاقه ويصححون أخطاءه، وكان الشهيد ـ كما يؤكد بعض إخوانه ـ في هذه الندوة، والذي يظهر أنه عاش فترته النجفية بنحو عادي وربما كان جو الإرهاب الذي تمارسه السلطة البعثية، وجو الاسترخاء العلمي مسؤولان عن عدم ظهور الشهيد بأمور صارخة كالتي كانت تتبدى في لبنان، وإن لم يخل ذلك عن الظهور في مجالسه مع أقربائه.

وانفتاحه على أجواء العراقيين وعيشه في أجواء الطلاب الذين كانوا يُصَنّفون في المتحركين والمنفتحين على الأجواء الرسالية والعملية والتي لا ترتاح إليها مخابرات النظام، والتي كانت هذه

الأجواء محسوبة على الشهيد الصدر. ومن ثم أجواء «حزب الدعوة الإسلامية»، مضافاً لتقليد راغب حرب للشهيد الصدر وتتلمذه على بعض تلاميذه.

كل ذلك شارك في تأصيل المسار الذي كان محدداً سابقاً والذي ظلّ عليه شهيدنا حتى آخر يوم من أيام حياته، المسار الذي يأخذ بالاعتبار مشاكل المسلمين وهمومهم ومواجهتهم لأعدائهم وخصومهم وتوظيف الفكر الإسلامي لخدمة الأمة وتحقيق آمالها.. مثلما هو واقع هذا الفكر.

وفي النجف الأشرف وامتداداً لاهتمامه بثورة الإمام الحسين عليه السلام فقد بدا مبهوراً جداً بمراسيم عاشوراء المهيبة التي كان يعتني بها الشعب العراقي عناية فائقة، وأبرز ما كان يتوقف عنده الشعر الشعبي العراقي الحسيني الذي كان يلقى في مناسبات وفيات الأئمة ومواليدهم وبالأخص في شهر محرّم، وكان يلقيه في مقامات الأئمة فحول الشعراء الشعبيين في قصائد خالدة، وكان الشهيد يتأثر بذلك ويحفظ منه مقاطع مهمة، ويرصد تأثيره على الناس، ويختزن ذلك في قلبه تعاطفاً قوياً مع ثورة الحسين وانشداداً مميزاً إليها.

ولقد كان الشهيد يكثر من زيارة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء ويبدو أنه ذهب في بعض المرات ماشياً على الأقدام من النجف إلى كربلاء مثلما كان معمولاً به في العراق في مناسبات الزيارات الكبرى.

تزوج الشهيد في صيف العام 1972م. وكان من جملة الحضور في عقد زواجه السيد محمد حسين فضل الله والشيخ محمد مهدي

شمس الدين وعدد من العلماء الآخرين، وقد عقد له على ابنة عمه المرحوم أبي مالك في بيتها في النبطية، وكان الشهيد يفاخر ويبدي ارتياحه وسروره لحضور هذا العدد من العلماء.

والظاهر أن الشهيد بعد زواجه حاول السكن في بيروت وترك النجف والاستمرار في طلب العلم في النبعة. واستأجر لهذا الغرض بيتاً في سن الفيل، ولا نعلم الأسباب التي دفعته لاتخاذ هذا القرار. ويبدو أن وراءه بعض الاعتبارات العائلية الشخصية ممزوجة بحنينه القوي إلى أقرانه وزملائه في العمل الإسلامي مضافاً إلى ما كان يشعر به ساكن العراق من غربة وقهر في ظل النظام البعثي.

وهو وإن عدل عن السكن في سن الفيل ورجع إلى النجف الأشرف في نفس العام، إلا أنه لم يبق بعد ذلك كثيراً حيث ترك النجف واستقر في لبنان بعد ذلك بحوالي السنة والنصف. ويبدو أنه كان في معظم الفترة التي قضاها في النجف يعاني من الفقر وشظف العيش حتى بعد زواجه، بل حتى يوم استشهاده.

- في ساحة العمل:

ساحة العمل التي دخلها الشهيد في منطقة النبطية كانت جزءاً من ساحة العمل الإسلامي في لبنان، وكان ثمة نهج حديث في العمل الإسلامي يأخذ في كثير من ملامحه سمات الحركة الإسلامية العالمية المتواجدة في كثير من بلدان العالم الإسلامي، ويأخذ في سماته الأخرى ملامح النهضة الإسلامية الحديثة التي تكونت في العراق في أواخر الخمسينات وبداية الستينات والتي كان من رموزها عدد من العلماء والمثقفين أمثال الشهيد الصدر والشيخ أسد حيدر

والشيخ مرتضى آل ياسين والشيخ محمد أمين زين الدين والشيخ محمد رضا المظفر والسيد محمد تقي الحكيم والأستاذ أحمد أمين والشيخ الأصفي والشيخ محمد مهدي شمس الدين والسيد محمد حسين فضل الله وآخرون. وهي المجموعة التي استشعرت خطر الفكر الغربي وحضارته وتصدت له وحاولت القيام بنشاط سياسي أفرز لدى البعض من هؤلاء «حزب الدعوة الإسلامية»، وقامت هذه الجماعة سواء منها التي عاشت إطاراً حزبياً أو التي ظلت خارج الأطر الحزبية بدور مهم وفاعل على صعيد الفكر والعمل انعكس تياراً إسلامياً قوياً.

وكما باقي ساحات العمل الإسلامي (الشيعية) في مثل إيران والخليج والسعودية كذلك لبنان فإنه قد تأثر بهذا الجو الجديد وبدأ العمل الإسلامي فيه يأخذ أبعاده الكاملة والصحيحة على أثر تواجد فضل الله وشمس الدين والصدر في ربوع لبنان ومعهم ثلة من العلماء الذين يعيشون أجواءهم، وذلك في أواسط الستينات.

ـ بدايات عمل الشهيد في جبل عامل:

أول همّ يواجه الداعية إلى الله هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على مستوى إخوانه وأهل بلده، فلا بد أن يتوجه إلى إصلاحهم وتهذيب نفوسهم من خلال السهرات والدروس والمواعظ والمواظبة على صلاة الجماعة، وهذا هو الأمر الطبيعي الذي بدأه الشهيد في بلدته جبشيت.

لقد سكن في بيت أهله لفترة من الزمن، ثم سكن في بيت جدته، وبعدها في الشرقية في منزل موقوف لسكن العالم الديني

ثم بعدها في بيت عمته. ثم استأجر بيتاً أخلاه سريعاً لإنشاء مستوصف فيه، ولم يستقر في منزل يملكه إلا في أواخر حياته وبعد معاناة طويلة.

ولقد كان المسجد حبيباً إلى نفسه يصرّ على الصلاة فيه ويتفقد احتياجاته وبالأخص المصاحف القديمة التي تناثرت أوراقها، فيجمع هذه المصاحف ويأخذها إلي من يجلدها، ويولي عناية خاصة بمكتبة المسجد يضيف عليها ـ إن وجدت ـ ويحسنّها، أو ينشئ مكتبة جديدة في حال عدم وجودها، فضلاً عن عنايته بعمارتها وتوسيعها.

بداية خطبه ودروسه كانت بداية بسيطة وصعبة، فكان يحير في تهيئة الخطب والدروس حتى أنه في خطب الجمعة كان يلقيها عن الورق، وهكذا حتى استقامت له الأمور وأصبح من الخطباء المفوهين والمتمرسين.

أنشأ ما اشتهر (بسهرة الشاي) التي كانت تقام كل ليلة جمعة ويدفع كل واحد من الحاضرين ليرة مقابل كأس الشاي الذي يشربه مساهمة في بناء مسجد (شيت)، وكانت تعمر هذه السهرات بألوان الأحاديث البسيطة حتى أثمرت واحداً من أضخم المساجد في لبنان.

كان يركز كثيراً على القرآن الكريم فيما يقدم للناس من أحاديث، فيقرأ في بداية السهرة أو الخطبة أو الدرس آيات من القرآن الكريم، ثم يشرع في تفسيرها دون تكلف وجهد ودون اعتماد كثير على كتب التفاسير بل يحاول أن يفهم هو القرآن وكأنه يخاطب به الآن، بعيداً عن خلافات المفسرين واجتهاداتهم،

ثم يتناول في حديثه مشاكل الناس وشؤون السياسة والفكر، ويركز في الاستشهاد على الثورة الحسينية والأخذ من أحداثها دروساً وعبرة يعرضها أمام مستمعيه بروح العاشق الوله لا بروح المعلم الممتهن.

في بدايات العمل اعتنى بالصغار مثلما اعتنى بالكبار، بل كان من المحتم عليه أن يعتني بالصغار لأن رهان القوى المعادية للإسلام كان على الأحداث الذين يصطادونهم في المدارس وفي النشاطات الكشفية، فكان لا بد للإسلاميين أن يهتموا بهؤلاء الأحداث لأنهم هم الشباب الذين صنعوا اليوم هذا المد الإسلامي القوي والأصولي، ولقد كان يفكر فيما ينبغي أن يفعل لهم كي يعيشوا أجواء الإسلام من قبيل تدريس الدين في المدارس، وجمعهم في نشاطات كشفية ورياضية، وتشجيعهم على الصلاة والحضور إلى المساجد، وتحفيظهم القرآن والأناشيد.

لم تصل المواجهة مع اليسار إلى حد التوتر المسلح إلا بعد بداية الأحداث اللبنانية أي بعد 13 نيسان سنة 1975، وبعدما بدا أن الحركة الوطنية قد استوعبت الساحة سياسياً وعسكرياً، فلم تبرز قوة منافسة لهم إطلاقاً، وإذا كان للمؤمنين وجود ما فإنه وجود شعبي غير مكتمل سياسياً ولا عسكرياً. سرعان ما قمع وأمكن تطويقه، في الوقت الذي جعله هذا القمع يستيقظ على ضرورة أن يكون وجوداً مهماً قادراً على صون نفسه. الأمر الذي ولدت معه حركة «أمل» وولدت معه وجودات عسكرية منسجمة مع أطر فكرية إسلامية أخرى.

وهكذا بدأ الصراع الفكري الذي ولّد أحقاداً عند اليسار وغيظاً من الانبعاث الإسلامي بدأ يأخذ عند اضطراب حبل الأمن في بيروت وغيرها من المناطق اللبنانية طابع الإرهاب السياسي المسلح الذي يمارس بكل استهانة على جماعات المؤمنين الناشئة، والذي تم التصدي له فوراً بأكثر من وسيلة.

كانت اليقظة والحذر هو الذي ساد العلاقة مع اليسار، واستدعى ذلك في كثير من الأحيان أن يظهر المؤمنون بمظاهر القوة كي لا يستضعفوا، فكان الشهيد رحمه الله مضطراً في بعض الأحيان لأن ينقل قطعة السلاح الواحدة إلى عدة بلدان في عدة أيام ليظهر أن المؤمنين مسلحون، فلا يستسهل الآخرون الاعتداء عليهم، وعندما تحصل مشكلة معينة كان المؤمنون يستنفرون من مختلف القرى ويتعاونون على التصدي للمشكلة، وظهر ذلك أكثر ما يكون عندما حاول اليسار مهاجمة منزل الشيخ حسين كوراني في الشرقية. فكان تحرك المؤمنين السريع مدعاة لإفشال الهجوم ومدعاة لمزيد من الاهتمام بتبريد المواجهة مع اليسار. وكان للشهيد راغب حرب دور مميز في الحالتين.

- علاقته وموقفه من الحركات والأحزاب في الساحة الإسلامية:

ترافق ذلك مع إعلان إنشاء «حركة المحرومين» و«أفواج المقاومة اللبنانية» وتعاون الإمام الصدر مع سوريا. الأمر الذي شجّع «الحركة الوطنية» على ضرب المنتسبين إلى الحركة بسبب العداء مع سوريا، ولما كان الأمر في بدايته غير متميز فقد صار المؤمنون وكأنهم جميعاً في «حركة المحرومين» وموضع نقمة

اليسار، الواقع كذلك. حيث بدأت تتبلور فيما بعد صيغة عملية أخرى ويتكوّن معها تيّار آخر كانت له ملامح تمايز منذ البدايات.

وأمام هذا الواقع، كان يفكر في وسائل لجمع المؤمنين على أسباب القوة المادية والفكرية المنظمة القادرة على مواجهة الخصوم. ولم تكن «حركة المحرومين» ـ كتنظيم ـ قد أعلنت بعد، وقد حدّث بعض أقرانه أنه منذ وطئت قدماه جبشيت عائداً من النجف بدأ يفكر في تكوين تنظيم إسلامي على الأقل على مستوى جبشيت والجوار، وعنّ على باله بعث الحياة والتجديد في تنظيم أيام الصبا الذي سماه «حزب الطليعة الثورية الإسلامية» أو ما يشبه هذا الاسم، وظلّ هذا هاجسه حتى تسامع بأن الإمام الصدر بصدد تكوين تنظيم إسلامي فقصده زائراً مع بعض الأخوة.

يقول الشهيد: كان الإمام الصدر مستلقياً عندما دخلنا عليه فجلس وأحسن استقبالنا، وكان عنده الدكتور شمران. وعندما فُتح الحديث حول موضوع التنظيم، أخرج الإمام الصدر مسودة الميثاق من حقيبة كانت موضوعة قربه وقال هذه هي النسخة الأولى من ميثاق «حركة المحرومين» وأنتم من أوائل الأفراد الذين يطّلعون عليه. وبدأ يقرأ والشهيد يناقشه ويستوضحه حتى انتهى. وكانت حصيلة ملاحظات الشهيد على الميثاق أنه ليس فيه تصريح بأن الإسلام هو أساس هذا التنظيم، فأجابه الإمام الصدر بأن هذا الميثاق مرحلي، كما لاحظ على ذكر القومية العربية وكأن الإمام الصدر أجابه بأننا نعيش في محيط عربي لا بد من الإشارة إليه وإن كنّا لا نتبنى الطرح القومي.

وعندما أعلنت «حركة المحرومين» توقف الشهيد عن التفكير بإنشاء تنظيم إسلامي ولكنه لم يتحمس كثيراً للدخول في الحركة. ولكنه بعد ذلك بفترة، وفي حدود سنة 1976 وافق على التعاون مع قيادة منطقة النبطية الذين كانوا من زملائه ومريديه وإخوانه بالعمل، وهم دخلوا في الحركة آنذاك باعتبارها حقلاً من حقول العمل الجاهز لا بد من التعاون معه. وقد وافق الشهيد على ذلك بعدما أصر على عدم الانتساب الكامل إليها، وهكذا كان. فقد كان أشبه بموجِّه ثقافي، يهيئ له زملاؤه الحلقات وهو يعطي فيها الدروس، ولكنه لم يستمر معهم طويلاً.

ويبدو أنه في نفس الوقت كان يعيش محاولة للتعرف على «حزب الدعوة الإسلامية»، وكان يقصد لهذا الغرض الشيخ علي كوراني الذي قَدِم حديثاً من الكويت إلى بيروت وسكن في الغبيري. يقول أحد إخوانه: لقد شهدت جلسات عديدة له مع الشيخ علي عامر بالحوار في مختلف الشؤون وكنت أنا أصغي إليه وهو يشتد في محاورته. وأعجب من هذه الروح الناقدة التي بين جنبيه. وكان الشيخ علي يصرّ على عدم علاقته بالدعوة ومع ذلك يستمر الحوار ربما لأن الشهيد كان يعرف ـ أو يشعر ـ أن الشيخ علي عنده شيء معيّن وأن من واجبه التعرف عليه كاملاً.

والظاهر أن هذه العلاقات أثمرت أو أمور أخرى ساهمت ـ فرغب حزب الدعوة سراً ـ في الاتصال به بعد ذلك بعدة سنين أي في حدود عام 1977 أو 1978، لكنه لم يكن مقتنعاً بها تماماً مع أنه شارك في تكوين بعض الخلايا في منطقة النبطية. وكما دخل

فإنه سرعان ما خرج وإن كان في جملة أفكاره قريباً منهم ومن طروحاتهم بل وفي عموم نشاطاته لم يكن بعيداً عنهم أولاً وآخراً. وإن لم يعرف ذلك، وسبب ذلك أن الجو الإسلامي الذي وجد في منطقة النبطية وغيرها قبل مجيء الشهيد، واستمر بعده كانت الدعوة في لبنان المتواكبة مع مجيء السيد محمد حسين والشيخ محمد مهدي لم تكن بعيدة عن تأثير الدعوة فيها.. حيث نما معظم جيل الشيخ الشهيد في أجواء وأفكار هذا الحزب وتأثيراته. وظل هذا التقارب الطبيعي قائماً حتى وفاته دون أن يكون قائماً على علاقة تنظيمية حزبية.

في نفس السياق ومن أجل نفس الغرض وحرصاً منه على فهم مواقف الآخرين ومنطلقاتهم كان يحرص على علاقته المميزة بالشيخ شمس الدين. يقول أحد زملائه: طالما تصل إلى حد التجرؤ على الشيخ نفسه، ولكن الشيخ كان يظهر الأناة والصبر عليه حباً له وحرصاً على تعريفه موقفه، وربما لشعوره بأن رأيه يزداد تبلوراً مع محاور عنيد مثل الشهيد. وظل هذا ديدنه مع الشيخ حتى وفاته، رغم أنه لم يقتنع بضرورة الدخول في حركة أمل أو في أجواء المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى، بل ظل محافظاً على إستقلاليته التي جعلته أقرب إلى الخط الإسلامي الآخر، الذي كان يصر على طرح الإسلام بلا رتوش وعلى إقامة الدولة الإسلامية وما أشبه ذلك. رحمة الله عليه ورضوانه.

ولم تخل حياته من محاولات أخرى لإنشاء تنظيم إسلامي ولكنها لم تستمر أيضاً. حتى اشتهر في آخر حياته بكرهه للتنظيمات

وإيمانه بعدم ضرورتها كما سيأتي الحديث عن هذا الموضوع في حينه.

ـ إقامته لأول مرّة صلاة جمعة في جبل عامل:

الشيء الثاني الذي اعتمده لجمع المؤمنين هو صلاة الجمعة، حيث رأى فيها ـ على قلة العلماء المتواجدين في منطقة النبطية ـ الفرصة لجمع المؤمنين من عدة بلدان، والتواجد في مكان واحد تحت عنوان ديني، فمضافاً إلى فضل هذه الصلاة وثوابها العظيم كانت النتائج المرتجاة منها كبيرة، والتي ليس أقلها تعارف المؤمنين وتعاونهم ونمو الحسّ الإجتماعي عندهم، وظهورهم بمظهر القوة والعزة.

وطرح الشؤون السياسية المختلفة في منبرها، ونشوء جماعة متميزة ذات تربية متجانسة، ومن هنا فإن استشعاره لأهميتها كان عظيماً في وقت لم تكن تقام إلا في برج البراجنة في بيروت بإمامة الشيخ محمد الصادقي.

وفي البداية كان طرحها ناشزاً والتجاوب معها محدوداً، باعتبار أن فقهاء مذهب أهل البيت عليهم السلام يعتبرون أن وجوب إقامتها مقترن بحالة وجود حاكم إسلامي عادل يتمثل في الإمام أو من يمثله. وفي عصر الغيبة فإن إقامتها ـ على رأي بعض الفقهاء ـ هي من باب الوجوب التخييري، حتى أنه على مستوى جبشيت كان ينتظر فترة من الوقت ليكتمل نصابها خمسة أو سبعة أحدهم الإمام نفسه، وفي بداية 1976 كان الشهيد بالكاد يحسن الخطبة فكان يكتبها على الورقة ليلقيها على خمسة أفراد.

ولكن جرأته وروح المغامرة فيه لم تثنه عن الاستمرار فيها والإصرار عليها حتى صارت خلال عامين واحدة من أبرز معالم العمل الإسلامي في الجنوب، فضلاً عن منطقة النبطية، وصارت تتوسع باستمرار حتى صار يحضرها الأخوة المؤمنون من النبطية وكفر رمّان والشرقيّة وحبّوش والنميريّة وحاروف والدوير وعدشيت وعبّا وكفرصير وغيرها من القرى حيث يجدون فيها واحة أسبوعية يتفيأون ظلالها ويستفيدون منها فوائد جمّة.

وكان حماسه لها غير مقتصر على إقامتها في جبشيت، بل كان يشتد في دعوة إخوانه العلماء إلى إقامتها في كل لبنان. ولم ينقضِ هذا الجهد من دون طائل فسرعان ما اشتهرت إقامتها في العديد من الأماكن بعد حوالي السنتين من إقامته لها، فصارت تقام في بعلبك وفي كفرحتّى وفي حارة صيدا وفي السكسكيّة وفي صدّيقين وفي الطيبة وفي جباع إضافة إلى قرى أخرى.

وقد نمت صلاة الجمعة نمواً عظيماً قبيل وأثناء الإحتلال الصهيوني للجنوب، وصارت من أهم أدوات المواجهة للعدو الصهيوني إن من حيث كونها توفر حشداً ضخماً جامعاً للعديد من قرى النبطية، أو من حيث كونها غطاءاً دينياً يصعب على العدو منعه والتأثير عليه، فكان يعلن على منبرها العديد من المواقف السياسية الهامة.

ـ مرحلة النضوج:

صحيح أن هذه البدايات كانت في جبشيت ولكن مرحلة النضج لم تنحصر في جبشيت، فقد تميّز الشهيد في معظم مراحل عمله

بالتوسع في العديد من قرى النبطية بل وفي عموم الجنوب، وهو حتى عندما استقر في الشرقية وقضى فيها بضع سنوات فإنه لم ينقطع عن جبشيت إطلاقاً، بل على العكس ظلت أهم أعماله في جبشيت وكانت الشرقية أشبه ما يكون بموطن سكنه. فجبشيت هي مركز صلاة الجمعة ومركز الثقل في العمل الإسلامي لمنطقة النبطية بشكل عام.

وتجربته في الشرقية غنية جداً، إن تعتبر الشرقية قاعدة لليسار في النبطية بسبب تواجد موسى شعيب فيها، (أحد رموز البعث العراقي آنذاك)، في الوقت الذي كانت تعتبر من أهم المواقع الدينية في النبطية، وقد سبّب ذلك صراعاً حاداً انعكس في بعض سلبياته على علاقة الناس بالمؤمنين واقتضى علاجاً حكيماً وهادئاً، فكان مجيء الشهيد وسكنه فيها ودعمه من قبل الشيخ محمد مهدي وعموم المؤمنين ذا أثر إيجابي ومهم في تدعيم الحالة الإسلامية وتخطي الصعوبات والمشاكل القديمة التي عالجها الشهيد بكثير من الصبر والأناة والحكمة، وأخيراً ظل اليسار ينحسر حتى بقي له أفراد معدودون ليس في الشرقية وحدها بل في العديد من القرى التي ينمو فيها العمل الديني.

وفي صدد المواجهة مع اليسار كان الشهيد يبذل الجهود المكثفة بالتعاون مع بعض العاملين القدامى والمجرّبين من أجل رصد نشاط اليساريين وأعدادهم ونقاط ضعفهم وتعيين أماكن السهرات في القرى والمواضيع التي ينبغي طرحها وما أشبه ذلك من الأمور.

ـ أسلوبه في العمل:

كلما تعمقت تجربة الشهيد العملية كلما أصبح يتميز بأسلوب خاص. فلم يكن يستعمل الطريقة الشائعة عند العلماء والتي يركز فيها العالم نشاطه على قرية معينة أو حي معين في مدينة ويلتزم بصلاة الجماعة في مسجدها ويبني حوله جماعة من المؤمنين يربيهم ويدرسهم حتى يصل بهم إلى مستوى جيد ومركز. لم يألف الشهيد هذا الأسلوب، بل كان متوسعاً في عمله على كثير من البلدان يزور هذا ويسهر في هذه البلدة ويصلي في تلك، ويعطي دروساً هنا ودروساً هناك حتى أنه كان يرتبط بالعديد من القرى في الشهر ويبقى جوالاً عليها، ولم يكن يرد دعوة إلى قرى أخرى بعيدة.. لزيارة أو مناسبة فيذهب إلى بعض قرى صور وغيرها. وعندما كان يسأل عن ذلك كان يقول: «إني لا أريد بناء نخبة مثقفة وإنما أريد بناء شعب مسلم يعيش في حياته الأعراف الإجتماعية الإسلامية».

وقد أصر على هذه الطريقة طوال حياته وإن كان قد انتقدها في بعض المراحل واستشعر النقص في الكوادر المؤمنة التي كان لا بد له من بنائها خلال عمله، وهذه الطريقة هي التي تتلاءم مع طبعه الذي يحب التنوع والتجوال ولقاء الناس والعيش المسترسل معهم، مضافاً إلى أنه بهذه الطريقة غطى حاجة منطقة النبطية الدينية التي قل فيها العلماء في تلك الفترة، وهذه الطريقة هي التي ساعدت على صيرورة الشهيد معروفاً وزعيماً شعبياً بعد ذلك.

وفي مطالعته لم يكن الشهيد مكثراً فلم يتأت له الظرف والوقت كي يطالع، وكان يركز في ثقافته على القرآن الكريم يستهديه

ويستلهمه، ولم يكن يحضّر لخطبه، كما أنه كان يعتمد محاور فكرية أو إجتماعية ويتناولها في أحاديثه لفترة طويلة قد تمتد أشهراً في القرى التي يسهر فيها أو يحيي مناسباتها، بهدف إيصال هذه الفكرة إلى جميع الناس الذين يمكن أن يستمعوا إليه، وفي خطبة كان يمتاز بالوضوح والأسلوب التعبيري العفوي والسهل. وكان قوي الحضور عند الناس طليّ الحديث متنوعاً في حديثه سمحاً مهذباً.

ومن ميزاته حسه الإجتماعي المفرط والذي كان من أقوى سماته على الإطلاق، وهو كان جزءاً من أسلوبه في العمل، فكنت تؤخذ بسجاياه البسيطة الطيبة عندما يزورك مسترسلاً صادقاً فيرفع الكلفة، يجلس كيف يشاء، وينزع ثيابه الرسمية ويتمدد، وقد يذهب إلى المطبخ فيحضر ما يجده ويبدأ بالطعام، ويحادثك في كل شيء سيما في شؤون الحياة والإقتصاد التي كان يركز عليها ضمن أفكار إسلامية هادفة.

هذا الحس هو الذي دفعه إلى بناء مبرّة السيدة زينب عليها السلام والاهتمام البالغ بها، حتى أنه أسكن طلابها في بيته بسبب بعض المستجدات التي اقتضت نقلهم من مكانهم، وكان يباشر معظم الأمور بنفسه سواء في المكان المؤقت تحت الحسينية أو في المشروع الأصلي الذي بوشر فيه ورعاه حتى اكتماله، وكان يزور الأيتام ويمازحهم ويبقى معهم فترة من الوقت يلاعبهم ويحفّظهم الأناشيد وما أشبه ذلك. ومن ذلك أيضاً عنايته التامة ببناء مسجد ضخم تقام فيه صلاة الجمعة، ولطالما سعى وعمل بيديه في هذا

المسجد ولكن لم يمتد به العمر ليرى هذا الإنجاز الكبير.

أما حبه للناس ورغبته في زيارتهم ودماثة خلقه معهم فأمر أشهر من أن يذكر وأكثر من أن يحصى. ولقد حدِّث عن رجل ذكره بسوء ونال منه، فما كان منه إلا أن عاجله بزيارة ودية جعلته خجلاً محرجاً منه ولا بد حسُنَت علاقته به، وهي أخلاق أهل البيت عليهم السلام في دفع السيئة بالحسنة **﴿فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾**.

كان للثورة الحسينية مكانة كبيرة إن على صعيد الاستشهاد بها أو على صعيد الممارسة لمراسيمها، فكان يقرأ المصرع في بعض السنين، ويشارك في المسرات، ويشجع بعض الشباب على قراءة التعزية، ويحفظ بعض الأشعار الحسينية الفصيحة والعامية، وكان يطيب له الحديث في هذه الموضوعات ويفيض فيها.

وكان يستشعر في بعض الأحيان ضرورة الاستزادة من العلم، ولكن لم يتح له المجال ليفعل ذلك، وقد حاول أن يجمع بين العمل والعلم في بيروت، فالتزم بدرس في المكاسب عند الشيخ شمس الدين ثم التزم بعد ذلك بدرس آخر لديه في الجزء الثاني من الكفاية وكلا الدرسين لم يستمرا إلا قليلاً. وهو نفسه لم يجدد المحاولة بعد ذلك، وإن كانت تداعبه رغبة تبقى من دون تحقيق.

ـ بعض مواقفه السياسية:

يندر أن يمر خطاب أو حديث له دون أن يتطرق إلى موضوع يهم المسلمين، وأكثر ما يكون ذلك في السياسة. ولم يكن يخلو

بلد من بلدان المسلمين من مشكلة سياسية، فعلى مستوى لبنان كان يركز على فساد النظام وضرورة تغييره.. وأنه بدون ذلك لا تنتهي المشكلات، ويعتبر أن المسلمين يتعرضون لمؤامرة صليبية يهودية مزدوجة، وأنه لا بد من قتال إسرائيل والموارنة من أجل استقرار الوضع في لبنان.

وكثيراً ما ركز على ضرورة إقامة الدولة الإسلامية في عموم المنطقة، وأن لبنان أصغر من أن يستوعب دولة إسلامية بعيداً عن محيطه، ويعتبر هذا من المحاور الأساسية في نشاطه وأفكاره السياسية.

وقد خاصم اليسار بقوة، ورفض جميع طروحاته الفكرية سيّما منها القومية، وكان يصل في حديثه عن ذلك إلى حد السخرية. وكان يشدد على وحدة المسلمين، وقد رفض انفصال الصحراء الغربية مثلاً عن المغرب. وكان يذكر ذلك في خطبه.

وكانت مسألة الاستعمار محوراً في فكره السياسي، يتتبعها ويحذّر منه ومن مخططاته ويركز على إسرائيل والقضية الفلسطينية، ويدعو إلى جعل قضية فلسطين قضية إسلامية عامة، وينتقد التخاذل العربي تجاه فلسطين، ويدعو إلى تحصين الجنوب من مخاطر الغزو الصهيوني، وتنشيط الزراعة وبناء الملاجئ. وفعل كل ما من شأنه المساهمة في صمود المسلمين في جبل عامل، وهو من أجل ذلك بنى ملجأ في بيته في الشرقية على أثر تعرضها لبعض القصف، وكان يدعو إلى أن يقيم كل بيتين أو ثلاثة بيوت ملجأ قربهم، وألاّ ينتظروا الدولة أو غيرها لتبني لهم الملاجئ.

وكان يتحمس لقضية الحركة الإسلامية في العراق ولقضايا كل حركات التحرر الإسلامية، وكان العداء للبعث جزءاً بارزاً من نشاطه السياسي حتى بلغ الذروة والقمة مع إنتصار الثورة الإسلامية في إيران واستشهاد المرجع محمد باقر الصدر (رض).

- بعض اهتماماته:

لكل واحد من الناس اهتمامات خاصة به تكشف جانباً من شخصيته ونلقي ضوءاً على طبيعته، وبعض هذه الاهتمامات ذا مضمون فكري وبعضها شخصي يتعلق بالمزاج، والشهيد راغب حرب كان فيه العديد من هذه الأمور ونذكر فيما يلي بعضا منها:

1 - في شؤون الزواج: كان يشجع على زواج الثانية بقوة وإلحاح، وكان يرغب في فعل ذلك ويحمس من يفعله. وكان يحب الإكثار من الأولاد وينتقد بشدة جمعية تنظيم الأسرة وغيرها من المؤسسات والدعوات التي تشجع على تنظيم الأسرة وتحديد النسل. ويعتبرها ذات أهداف مشبوهة.

وكان مقتنعاً بأن أكثر المشكلات الزوجية إنما تحصل بين الخاطبين بسبب طول فترة الخطوبة، ولذا كان يدعو إلى إلغاء الخطبة وإجراء الزفاف مباشرة.

وكان يرى أن العالم الديني ينبغي أن لا يفوت مناسبة إجتماع الناس على عرس للتحدث إليهم لا سيما النساء. ويرى ذلك فرصة مهمة لوعظ النساء اللواتي يكنّ في أبهى مظاهرهن، وهو نوع من إنكار المنكر لا يصح أن تفوت فرصته.

وكان يحب أن يلقّب أولاده أو يكنّيهم التزاماً بالمستحب الوارد في الشريعة، فقد لقّب ولده أحمد بـ (فتى الإسلام). وقد يكون لقّب بعض بناته، وكان يبدي اهتماماً بذلك.

2 ـ لقد أغرم الشهيد رحمه الله بتربية الماشية على أنواعها. وبما أن المتوفر في بلادنا هو الماعز أكثر من غيره فقد وجه هذه الرغبة إلى الماعز واشترى بعضها، وكان يرغب في التعرف على مصطلحات الرعاة وأسماء الماعز وأعمارها وكيف تعرف الصحيحة والسمينة من غيرهما.

وقد استشهد وهو يملك بعض الأغنام في بيت أهله برعاية أمه، وكانت أثيرة لديه جداً، وقد كان يعدّ بعضها من أجل ذبحها عند دخول القوات الإسلامية مدينة البصرة. ولكنه مات قبل تحقق هذه الأمنية.

3 ـ كان يهوى اقتناء السيوف وتعلم قواعد وطرق استعمالها في القتال. وقد اشتدت هذه الرغبة عنده بعد المواجهة التي حصلت بالسيوف مع الإسرائيليين في عاشوراء النبطية.

4 ـ لم يكن له في طعامه وهندامه نمط خاص يتقيد به، وكان يأكل في أي وقت يجوع فيه، ولكنه كان عادياً في طعامه فلم يكن مكثراً.

ويعجبه من الشراب الشاي، يشربه حلواً وبارداً، ولم يكن يكره القهوة.

وفي هندامه لم يكن متأنقاً ولا مسرفاً، ولم يلتزم بجميع الثياب التي يلتزم بها العلماء، فقد كان واحداً من ندرة لم تلتزم بلبس

(الجبة) واستبدل بها (الدشداشة) التي لم يكن مألوفاً الظهور بها والاقتصار عليها.

وقد أغرم بحمل العصا لما فيها من الاستحباب والفوائد، وعنه أخذها عدد من العلماء الشباب والتزموا بحملها.

وقد اقتنى العديد من السيارات المتواضعة، خلال حياته وكان سائقاً ماهراً، يحب استعمال البدائل العربية للكلمات الأجنبية التي تسمى بها قطع السيارات ومصطلحات قيادتها، ولم يكن يعتني بالسيارة كثيراً، ويقول إنها صنعت لخدمتك.. فإذا تلف منها شيء يصلّح، ولا ينبغي العناية بها على حساب الهدف منها.

ـ أخلاقه:

لقد مرّ ذكر العديد من سجاياه خلال الكلام السابق، وقد ظهر منه ما خلاصته أن الشهيد رحمه الله كان يتمثل الخلق الإسلامي في جميع أعماله، فعلى مستوى علاقته بالله تعالى كان مؤمناً ملتزماً بأحكام الإسلام حريصاً عليها بما في ذلك بعض المستحبات. وكان أكثر ما يحرص على صلاة الجمعة والجماعة وارتياد المساجد والعناية بها وعمارتها، ويحب الدعاء وقراءة القرآن ومجالس العزاء الحسينية.

وعلى مستوى علاقته بالناس، فإنه كان حريصاً على هدايتهم ونصحهم وسعادتهم وأمنهم يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها. وكان حديثه ذا حلاوة هادئاً رزيناً ذا مهابة، جاداً في أموره حسن العشرة مسارعاً إلى خدمة إخوانه عطوفاً عليهم، عفيف

اللسان واليد، زاهداً في الدنيا، شجاعاً، ذكياً، حاضر البديهة، عارفاً بأمور الناس، شديداً في ذات الله،كثير البرّ لأهله وأبويه. وقد بدا ذلك خلال مرض أبيه الذي استمر أشهراً طويلة، حيث لم يترك فرصة في خدمته إلا استغلها، وكان مرض السرطان الذي أصيب به يحتاج إلى مراجعات متكررة إلى بيروت ومداومة علاج خاص وغذاء معين. فكان الشهيد حاضراً دائماً إلى جانبه يؤنسه ويحضر له الدواء بنفسه، ويذهب معه إلى الطبيب حتى أنه عطّل معظم أعماله والتزاماته وظلّ إلى جانبه حتى توفي والده في مرضه وهو قرير العين بما بدا له من تفاني ولده في خدمته.

أما عنايته بجدته وأمه وعماته وخالاته وعموم أقاربه فهو أوضح من أن يذكر.

ـ الشيخ راغب حرب وبزوغ فجر الثورة الإسلامية:

قبل بزوغ الثورة الإسلامية في إيران، كانت الحالة الإسلامية في مناطق كثيرة من العالم الإسلامي، ولا سيما في لبنان، لا تزال مترددة، ومرتبكة، تعاني من فقدان الخط الواضح الذي يحكم مسارها ومنه المشروع السياسي الذي يحدد منطلقاتها، وكانت بأمسّ الحاجة للقيادة الرشيدة التي تسدّد خطاها.

وكثيراً ما كانت هذه الحالة تجاري الواقع السياسي القائم وتخضع لتطوراته، إذ أن الرؤيا عند أبنائها، إلا ما ندر منهم، لم تكن واضحة كل الوضوح. فكنت ترى في أكثر الأحيان، مواقف ارتجالية غير مدروسة ولا متزنة، تتحرك بوحي الانفعال وردّات الفعل، فالناقم على اليسار مثلا، على توجهاته وأساليب

عمله تدفعه نقمته من حيث لا يدري ليرتمي بأحضان اليمين، والمتضرر من سياسة اليمين وبرامجه، يجد نفسه من حيث لا يدري وقد ارتمى بأحضان اليسار.

ويظل المسلم متردداً بين هذا وذاك، يبحث عن وجوده الحر ومستقبله الكريم ولكنه عبثاً يحاول، فلا يجد في كليهما ما يلبي طموحه ويحقق أمنياته، وهو في هذه الصورة كالظمآن يبحث عن ماء عذب يروي به غليله حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ولكن، مع إطلالة الثورة الإسلامية في إيران، أشرقت شمس الإسلام تبعث الدفء في نفوس المسلمين، وراحت ترسل أشعتها لتنير بضوئها الوقاد كل زاوية من زوايا العالم الإسلامي. وتتنامى في ظل إنتصار الثورة الإسلامية المباركة في إيران الحالة الإسلامية، ويشتد عودها فيجد المسلمون أنفسهم بعد ضياع طويل، عانوا خلاله أصنافاً كثيرة من العذاب وألواناً عديدة من البؤس والشقاء.

يجد المسلمون أنفسهم، وتزول الغشاوة عن أعينهم، فتتضح لديهم الأمور، وتصبح جلية بينة ويستهدون إلى معالم الطريق.

فها هو المشروع السياسي الذي عانت الحالة الإسلامية من فقدانه زمناً طويلاً، يولد مع ولادة الثورة الإسلامية التي كتبته بدماء شهدائها الأبرار.

وها هي القيادة الرشيدة التي حرم منها المسلمون مدة طويلة من الزمن تعود من جديد.

لقد جاءت القيادة الإسلامية بعد انقطاع طويل، جاءت لتقود

الساحة وتتصدى لكل المشكلات التي تواجه الأمة. وأصبحت الحالة الإسلامية بهذا الفضل الإلهي العظيم، أصبحت رقماً صعباً في المعادلة الدولية، بعد أن كانت مهمشة، وغدت العامل القوي الذي يغير الواقع السياسي وصنعه كيفما يشاء، ويرسم له خطوطه وعناوينه.

صحيح أن الشيخ راغب حرب كان يعيش في عمق الحالة الإسلامية التي كانت قبل إنتصار الثورة الإسلامية، وبزوغ فجرها، ولكنه رغم كل ذلك كان مع قلة قليلة من إخوانه، مميزاً عن الواقع الذي يعيش فيه، مميزاً بنظراته الثاقبة، وحسه الإسلامي الأصيل. لقد كان ملفتاً للجميع ملفتاً بوضوح خطه وبيان نهجه وصفاء إيمانه وعظيم إخلاصه.

لقد كان من أوائل العاملين الإسلاميين المتقدمين بطرحهم للإسلام، فقبل إنتصار الثورة الإسلامية بسنوات كان يحمل الأفكار والشعارات نفسها التي حملتها هذه الثورة المظفرة ومنها: الحكومة الإسلامية، وحدة المسلمين، تحرير القدس محاربة الاستكبار، الجبهة العالمية للمستضعفين. وكنا نراه في بعض الحالات، يستخدم تسميات خاصة به لظواهر معينة، فعندما يتحدث عن المؤامرات التي تتعرض لها الأمة من قبل الاستعمار وأذنابه، يعبِّر عن ذلك بالتحالف اليهودي النصراني العالمي. وعندما يتحدث عن الإمام الخميني، يعبِّر عنه (بأمير المسلمين)، هذا بالإضافة إلى تعبيرات أخرى أطلقها، وتسميات موجودة كرسها، كل ذلك ضمن اتجاه لأسلمة الحياة عند الناس.

كان يؤكد للناس أن الحل والخلاص لن يكون إلا بالإسلام والكل يذكر عبارته الشهيرة، التي كان يرددها دائماً في خطبه، وخاصة في الجماعات وهي: «لا غد أفضل إلا بالإسلام».

وقد كان الشيخ الشهيد يقوم بتوجيهات إسلامية هادفة يحاول من خلالها، تجذير الإسلام في قلوب الناس وعقولهم، وتعشيقهم به ليدخل الدين إلى كل ناحية من نواحي حياتهم.

ولهذا كان شيخنا الشهيد أول من لبّى نداء الثورة الإسلامية، وتجاوب معها وابتهج لإنتصاراتها، وهو بحق، يعتبر من أوائل المبايعين للإمام الخميني حفظه الله،فلقد تحدث في إحدى خطب الجمعة في جبشيت، بعد إنتصار الثورة مباشرة قائلاً: «إننا من على هذا المنبر، ومن هذه الحسينية، نعلن تأييدنا الكامل للثورة الإسلامية المباركة في إيران ونبايع قائدها، نائب الإمام روح الله الخميني قائداً للمسلمين وأميراً عليهم».

لقد رأى الشيخ أن الإمام الخميني حقق حلم المؤمنين بإقامة الدولة الإسلامية، لذلك اعتبر أن الجمهورية الإسلامية في إيران هي بداية لتحقيق الدولة الإسلامية الواحدة، التي تحرر وتوحد كل بلاد المسلمين، وكثيراً ما كان يردد «نحن جزء من إيران وإيران جزء منا».

كان الشيخ حرب يعتبر أن الإسلام مر بحالة الغربة مرتين، فكان يقول أن عصر الغربة الأولى، هو فترة ما قبل الفتح، وأن عصر الغربة الثانية، بدأ بعد انهيار الدولة الإسلامية (الشكلية)، على يد الدول الاستعمارية بعد هزيمة تركيا وتفتت العالم الإسلامي، وقد

اعتبر عصر الغربة الثانية انتهى بإنتصار الثورة الإسلامية في إيران وقيام جمهوريتها.

وقد بلغ تفاعل الشيخ مع الثورة حداً كبيراً إذ لم يترك مناسبة إلا واتخذ فيها من الشعب الإيراني، وقيادته وثورته، مثلاً يضربه للناس، بهدف تربيتهم على نهج هذه الثورة، خاصة وأنه كان يقول أن دوراً مماثلاً ينتظرنا، وأننا في موقع واحد في مواجهة الاستكبار العالمي وصنائعه، ففي البداية يجدر أن نعرف تلك الصورة الجميلة التي عبر بها عن فرحته وغبطته بالإنتصار فقد عبر عن ذلك بالفجر والنور. ثم عندما تحدث عن الدولة التي أنشأتها الثورة، وذلك بعد زيارة قام بها للجمهورية، قال: «كانت الدولة الإسلامية حلماً في خيالنا.. تخيلناها كثيراً، وفق الآيات والشريعة والسنّة. والإنسان عندما يتخيل أمراً يحبه، يصوره بأبهى صوره وأروعها، وعندما يتحقق الخيال لا يمكن أن يكون بمستوى جمال الخيال، وإنما يحمل الواقع نسبة من روعة الصورة. أما في موضوع دولة الإسلام فقد جاءت طبق ما تخيلناه عنها قبل حلول تباشيرها، تماماً بلا نقصان. إنها الأصالة وروعة التجسيد للفكر». ثم قال للناس «إن هذه الدولة تعرضت لعدد من المؤامرات لو تعرضت أية دولة لواحدة منها لانهارت ومع ذلك صمدت وانتصرت في كل الميادين».

كان معجباً بالصمود الذي أظهره الشعب الإيراني، عندما فرضت عليه أميركا وحلفاؤها الحصار الإقتصادي، حيث توجه الشعب بتخطيط من القيادة الإسلامية الثورية وبمبادرات من الشباب

المسلم الناشط، إلى ميادين العمل والإنتاج الزراعي والصناعي واستطاع أن يسد كثيراً من احتياجاته بفترة وجيزة، كان يقول: «إن الشعب الإيراني شعب حي» وكان يشجع على الاعتماد على الذات في مواجهة الظروف القاسية التي نمر بها، وكثيراً ما حذّر الناس من الاعتماد على مجلس الأمن. وجامعة الدول العربية، والمنظمات الدولية وحذّرهم من الشعور بالضعف أمام قوى الفكر لأننا نعتمد على الله الذي وعدنا بالنصر، فكان يقول: «أنظروا إلى عبد الله الخميني كيف واجه قوى البغي باعتماده على الله، وإخلاصه له، فمنّ الله عليه بالنصر والعزّة». وقال أيضا: «هذا العبد الصالح، أراد العالم كله أن يذله ولكن الله تعالى أراد له العزة فاعتز ولم ينل أحد منه شيئاً».

كذلك حدّد الشيخ موقفه من الحرب الظالمة التي شنّها عملاء أميركا ضد دولة الإسلام، إنطلاقاً من الأراضي العراقية، فأعلن تأييده ودعمه الكامل لثورة الإسلام ضد نظام صدام حسين والذي يتسلط على رقاب الشعب، رغم أن الكلمة الحرة كانت مخنوقة في ذلك الوقت والرأي الشجاع مصادراً، وذلك لأن للنظام البعثي في مناطقنا عملاء قد احترفوا الجريمة ومارسوا مع حلفائهم أبشع أساليب الإجرام بحق المؤمنين، رغم ذلك كان الشيخ الشهيد يقول كلمته بوضوح، ويقف بصلابة وشموخ وإباء. ومن جملة الآراء التي أبداها حول تلك الحرب رأي الإمام ومقولته الشهيرة: «الخير فيما وقع» وكان يعد بالنصر، ويؤكد أن هذه الدولة منتصرة لا محالة، وقد قال في هذا المجال «هذه الراية النبوية، ستبقى مرتفعة ولن تسقط أبداً حتى يتسلمها منه الإمام المهدي (عج)».

بكلمة موجزة نستطيع القول أن الشيخ الشهيد، قد حول منبر جبشيت، ومنابر المنطقة التي كان علمها ورائدها، حوّلها إلى مركز إعلام للثورة الإسلامية، هذه المواقف كانت بارزة واضحة صادقة، مميزة عن مواقف اليأس ومواقف الاتهام للثورة وقيادتها بالتسرع وطلب المستحيل، ومواقف الشماتة التي أظهرها كثير من المنافقين والحاسدين.

وهكذا تبلور موقف الشيخ المخلص، وموقف جميع أنصار الثورة الإسلامية، عندما بدأ الزحف المضاد، وتوالت الإنتصارات وتحررت الأراضي الإسلامية المحتلة، واندحرت الجيوش المعتدية وبدأت بالتقهقر، ومع كل إنتصار كنّا نرى الشيخ يزداد تأكيداً لمواقفه وترسيخاً لقناعاته، ويقارن بين هذه الإنتصارات وإنتصارات الإسلام الأولى بقيادة النبي ﷺ.

كان يحاول دائماً أن يعايش الثورة بكل تفصيلاتها ويومياتها، وينقل إلى الناس ما يسمع وما يشاهد من صور مشرقة وضاء لشعب مؤمن كريم معطاء وشجاع، لا يكل ولا يمل ولا يتراجع. ثم يربط الشيخ هذه الصورة النبيلة والمظاهر الراقية بالنبع، بالقرآن بالمصنع، إذ كان يردد «أن هذه الثورة صنعت على عين الله، فهي خالصة لوجه الله، ولذلك فهي صافية نقيّة لا يشوبها شيء».

ومن الأمثلة الرائعة التي ضربها عن الشعب الإيراني المسلم، الواثق بقيادته المتمثلة بالفقيه العادل روح الله الخميني وتعلق هذا الشعب بالقائد الملهم، وحفاظه على الدقة في تنفيذ تعليماته واعتبارها واجبة شرعياً، ذلك المثل الذي ضربته إحدى المزارع

النائية في الريف الإيراني البعيد، عندما وجّه الإمام الخميني الأمر للناس بالنزول إلى الشوارع تحدياً لقرار منع التجول الذي فرضته الحكومة قبل انهيارها، فإذا بسكان هذه المزرعة يخرجون جميعهم ويجلسون على قارعة الطريق، مدة طويلة من النهار، ويصادف مرور بعض الصحفيين هناك، فيسألون الناس لماذا أنتم معتصمون هنا؟ لا أهمية لتنفيذكم ذلك، لأن وسائل الإعلام لا تصل إليكم ولا تنقل أخباركم، فكان جوابهم، الإمام أخبرنا بذلك ونحن ننفّذ ولا شأن لنا فيما وراء ذلك.

كان الشيخ معجباً جداً بهؤلاء المؤمنين وفطرتهم الصافية التي لم تتلوث، فعرفوا مكانة الولي الفقيه، واعتبروا أمره كأحكام الشريعة، وكان يريد من الشعب هنا أن يصل إلى هذا المستوى الرائع من التعامل مع الحكم الشرعي والموقف الإسلامي.

لقد جنّد الشيخ الشهيد كل إمكاناته وطاقاته، واستخدم كل مواهبه التي خصه الله بها، من أجل المساهمة الفعالة في نصرة الثورة الإسلامية، فكان يتبنى مواقفها العادلة ويدافع عنها بقوة، ويهاجم أعداءها، جميع أعدائها سواء كانوا قوى عالمية أو أنظمة حكم محلية أو أحزاب ومؤسسات حتى الإيرانية منها، كان يهاجم أعداء الثورة بعنف ويسميهم بالأسماء دون وجل أو تردد كأنه هو الثورة.

كان يشعر بأن هذه الثورة هي ثمرة جهاد المؤمنين، ودماء الأولياء والصالحين، وأحلام المستضعفين فيجب الحفاظ عليه. وكم ندد بالأبواق الإعلامية التي تبث سمومها لتشويه الحقائق،

والجمعيات والمؤسسات التي تحمل أسماء براقة، والدول التي ترفع شعار حقوق الإنسان وتسحق الإنسان كل يوم ألف مرة.

كم ندد بكل هؤلاء عندما أقاموا الدنيا ولم يقعدوها من أجل حفنة من الجواسيس والقتلة والمجرمين أعدمتهم الثورة بعد محاكمة إسلامية دقيقة، وفي نفس الوقت لم تطلق هذه الأبواق كلمة إدانة للجرائم التي ارتكبت بحق الشعب الإيراني المظلوم والشعب العراقي المسحوق والشعب الفلسطيني المشرد وشعب لبنان الذي تتوالى عليه المحن والمذابح.. يتألمون لمجموعة من الفسقة البغاة، ولا تتحرك عواطفهم للجياع الذين لا يجدون قوت يومهم فيموتون جوعاً.

وللمشردين في سائر أنحاء الأرض الذين لا يجدون ما يأويهم، وللأحرار الذين يتلظون بسياط الجلادين في أقبية التعذيب في مناطق كثيرة من العالم الإسلامي. نعم كان الشيخ ثورة متحركة يحمل هموم المسلمين والمستضعفين تماماً كما تحملها ثورة الإسلام في إيران.

ـ نظرته للإمام الخميني:

لقد كان ينظر إلى الإمام الخميني، نظرته للوليّ الواجب الطاعة ونظرته للقائد العبقري المقدام، كان معجباً به إلى حد العشق والوله، يدعو له في خطبه وخاصة في الجمعات، يدعو له بالنصر والعزة وطول العمر وإتمام النصر. نعم لقد بايعه منذ اللحظات الأولى للإنتصار وجمع تواقيع المؤمنين، وأرسل برقية البيعة التي تعتبر الأولى من نوعها، وكرر الأحاديث التي تفرض على المؤمنين

مبايعة الحاكم المسلم العادل حيث أورد قول الرسول ﷺ: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة الجاهلية»، كان يقول: «في هذه الأيام، الخميني هو المقياس.. مقياس الإيمان والنفاق» وكم كان يهتف بدعوة أستاذه الشهيد محمد باقر الصدر: «ذوبوا في الإمام الخميني كما ذاب هو في الإسلام».

ونورد هنا جزءاً من خطبة للشيخ الشهيد ألقاها في صلاة الجمعة في حسينية بلدته جبشيت عام 1402 هـ الموافق 14 أيار/مايو سنة 1982 أي قبل الإحتلال الإسرائيلي للبنان بثلاثة أسابيع فقط. يبين هذا الجزء ثقته الكبيرة بهذه الثورة، ثقة لا حدود لها ويتحدث عن صور عديدة فيها نقية وصافية منددا بمحاولات الردة التي تحركت للنيل من هذه الثورة، ومن قيادتها، حتى ولو كانت هذه المحاولات ترتدي في بعض الأحيان عباءة الإسلام ومما جاء في تلك الخطبة:

«الجهل في أي مسألة من مسائل الحياة، الجهل في أي نوع من أنواع المشاكل، يجعل أي قدرة مهما كانت كبيرة، معطلة وغير قادرة على أن تفعل شيئا. وأول الجهل الذي أصابنا به هو جهلنا بديننا، جهلنا بأنفسنا وبربنا، جهلنا بقرآننا، وبمصطلحات إسلامنا. أيها الناس لا أريد أن أتحدث طويلاً في متاهات النظرية، وإنما أنتقل مباشرة لأقارن بين أنموذجين موجودين في العالم، الأنموذج الإسلامي الحق والأنموذج الذي لا يحمل من الإسلام إلا الاسم. أقارن بين إخواننا المسلمين في إيران الذين يخوضون الآن معارك فرضت عليهم من دول العالم كلها ومن قوى الاستكبار كلها،

ويواجهون بقوة ليس لها نظير، وبعزم وإرادة ليس لهما مثيل. إذا حاولنا أن نقارن بين هؤلاء وبيننا.. بين أهلنا هنا وفي باقي البلدان من العالم الإسلامي وبين هؤلاء الذين ينزل الله عليهم نصره باستمرار، نجد أن أولى الفروقات هي أنهم يعرفون ربهم حق المعرفة ولا نعرف ربنا حق المعرفة. يعرفون دينهم حق المعرفة ولا نعرف ديننا. يعرفون النبي ﷺ حق المعرفة ولا نعرف نبينا. يعرفون الأئمة عليهم السلام حق المعرفة ولا نعرف أئمتنا. نحنن نشهد أن لا إله إلا الله ثم نجد أن أعمالنا تشهد أن هناك آلهة كثيرة غير الله. نشهد أن محمداً رسول ﷺ عبد الله ورسوله، ثم نجد أعمالنا تشهد أن كل الساقطين أنبياء لنا من دون رسول الله،لماذا؟ هناك فساد في عقولنا وقلوبنا ومعرفتنا. .الجهل. فنحن لا نعرف الله فلا نعرف كيف نتعامل معه، كيف نعبده وكيف نطيعه ولا نعصيه، نعتذر بشتى المعاذير التي نظن أنها تبرر لنا تهربنا من واقعنا السيء، واقعنا الأليم واقعنا المر، بينما إذا رأيت أحداً من هؤلاء الناس (الإيرانيين) تجده يعرف كل صفة من صفات الله حق المعرفة.

أقول الآن قبل أن آتي إليكم، كنت أستمع من خلال المذياع إلى خطيب الجمعة في طهران، كان يقول: «كنت في الجبهة مع بعض مسؤولي حرس الثورة الإسلامية، أخذ يحدثني كيف أنه لا يرمي هو، ولا يرمي عناصره وإنما الله هو الذي يرمي، يقول عما أخذ يحدثني هذا الرجل أحسست أن نور الله تعالى قُذِف في قلبه فأصبح يعي آيات الله وعياً كاملاً. نحن كم نقرأ هذا الآية الكريمة ﴿**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**﴾ هل يستطيع الكثيرون منا أن يقولوا أن في قلوبهم وضوح لمسألة رمي الله بأيدي

المؤمنين». وبعد أن تحدث الشيخ الشهيد في هذه الخطبة عن علاقة المسلم الإيراني بالله والرسول والأئمة وصاحب الأمر، وقدّم الأمثلة الحية على ذلك تابع قائلاً: «تعالوا نعترف بأننا لا نعرف شيئا وليأت علماؤنا أيضا فليعترفوا أننا لا نعرف شيئا. قلت لكم مرة عندما وقفت لزيارة هذا البلد الكريم، عندما وقفت بين جماهير المستضعفين في صلاة الجمعة أحسست، بأني لا أعرف الله ولا رسوله ولا الأئمة، إذا قست نفسي بهؤلاء الناس الذين ينظرون إلى هذه المواضيع بعين اليقين، ونحن حتى الآن لا نعرف موقع المرجع الديني. ولا نعرف ولي الأمر. عندنا كل الأمور تناقش باللغو والباطل. والذي يتحدث بلسان الحق يجد نفسه غريباً، لأن الغبار يعمي عيون الناس، هذا الجهل إلى متى سيستمر؟ لما لا تعلمون؟ ولا تأتون بأبنائكم إلى المسجد ليتعلموا؟ نحن نمضي بينكم أياماً ثم ننصرف. وغيرنا يمضي بينكم أياماً ثم ينصرف. ماذا نتحدث عن إخواننا في إيران؟ لا أستطيع أن أتحدث عن إنتصاراتهم، إنتصاراتهم تخرِس، وسوف تسمعون بإنتصارات جديدة وأرقام مذهلة قريبة إن شاء الله.

المشكلة الثانية التي أريد أن أتحدث عنها، هي النفاق، وقد تحدثت كثيراً عن المنافقين. المنافق لا يستطيع أن يعيش في جو العلم، إنما يستمر في جو الجهل. فأبو الحسن بني صدر، هذا المنافق الكبير، لم يستطع العيش في إيران، حتى وهو في موقع السلطة، لم يستطع الاستمرار، كان الله يريهم إياه على حقيقته لآن عندهم البصائر وصدق النية. أما عندنا فالنفاق سائر وبسرعة، أسياد المواقف عندنا هم المنافقون، لأنهم يتسترون بجهلنا، هذا البلد

الذي اسمه لبنان، بني منذ أربعين سنة، هل يستطيع أحد أن يسمي لي غير منافق كان يقود هذا البلد؟ الجهل والنفاق جعلا كل الأراذل والسفلة والفاسقين أسياداً، وجعلا الأحرار هم العبيد. عودوا إلى الإسلام بالعلم والإخلاص.. يجب أن نعرف مصلحتنا، من هم قادتنا!! من هم أولياء الأمر فينا!! يجب أن يعي أنه من اتبع غير عبد الله الخميني فقد ضل.

منذ أسبوعين حدث ما كان خطراً على الإمام والثورة، وتحدثت عن ذلك في الأسبوع الماضي. والآن لا بد من التحدث بوضوح لأن الكثيرين ما زالوا يتحرجون من هذا الحديث.

في كثير من الأحيان كان الظُّلاّم وأولياء السلطان يتغطون بمظاهر التقوى.. التقوى نحن نعرفها.. نحن نعرف حدّ التقوى.. التقوى تعني خشية الله فقط، والرغبة فيما عند الله فقط، واحترام أولياء الله فقط.

أي حرج في الحديث عن مجموعة خرجت على الإمام العادل؟ حتى ولو كان في هذه المجموعة عالم.. نحن نتحرج لأننا لا نعرف موقع الخميني في ديننا، لا نعرف أنه نائب الإمام، لذلك نحن نستشكل فنقول، هو عالم وهذا عالم أيضا.. لا.. فالقصة قصة إنسان خرج على أمير المسلمين العادل.

باسم العمائم يريدون أن يخنقوا الإسلام.. الاستعمار ألم يجد حبلاً آخر غير العمائم واللحى لكي يختنق به الإسلام؟

العمامة التي لا تقول نعم للخميني، نسقطها ونحرقها. عندما أقول للناس من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية. بماذا

أبرر للعالم أن يموت ميتة الجاهلية. لا أريد أن أتحدث عن المفاهيم والفكر.. تعالوا نتعلم أين هي حدود الله.. هذه حدود الله.. قائدنا الحجة، نائبه الخميني، من لم يبايع هذا الرجل فقد تاه عن طريق الهدى، نقول للمستعمرين: إن الإسلام الذي لم تستطيعوا أن تخنقوه بالصاروخ والمدفع، فلن تستطيعوا خنقه بالعمامة.. نحن مع ولي الأمر، ونبايعه ما دام على نهج الله وخط الرسول، وليست المسألة مسألة شخص وإنما هي مسألة الإسلام».

بهذه الروحية العالية، وهذا الإخلاص الكبير كان ينظر الشيخ الشهيد إلى الثورة الإسلامية الرائدة يرى في إطلالتها بزوغ الفجر وزوال عصر الغربة وفي دعوتها ورسالتها، دعوة الأنبياء والصديقين. والصالحين ورسالتهم.. وكثيراً ما كان يغمر الفرح قلبه، والغبطة تغمر فؤاده، عندما تتناهى إلى مسامعه أنباء الإنتصارات على جبهة الحق ضد الباطل. لقد كان الحنين دائما يشده والشوق يضطرم في صدره لزيارة أرض الإسلام التي يلبيها بشغف عند أول دعوة توجه إليه، فيأنس هناك بأفيائها الظليلة، ويطمئن لمسيرتها الظافرة، ويزداد حبوراً عندما يرى معالم الإسلام بارزة في الساحات وبادية على الوجوه. لقد زارها مراراً وخلال انعقاد المؤتمرات الإسلامية يزورها متعرفاً، منشرحاً يلتقي مع قادتها وعلى رأسهم إمام الأمة الإمام الخميني ثم يعود وفي جعبته أخبار كثيرة سمعها، ومواقف مشرفة رآها، وقصصاً جميلة شاهدها، يعود إلى هنا ليحدث أهله وأبناء شعبه عن أحسن وأجمل ما سمع ورأى وشاهد، لقد كان شيخنا الشهيد ناطقاً باسم الثورة هنا يدعو الناس للارتباط بقيادتها، والالتزام بخطها الإسلامي الأصيل، ويعتبر نفسه

ممثلاً لها ولسان حالها. ولقد نجح إلى حد كبير بفضل حجته القوية أن يجمع الناس حولها، وحول قيادتها الحكيمة والشجاعة.

لقد كان الشيخ الشهيد يسعى بجهد ليس له مثيل لإرساء القواعد والأسس الإسلامية في مجتمع.

ـ مواقفه من النظام اللبناني:

وفي وقت كانت فيه الساحة اللبنانية حبلى بالأحداث زاخرة بشتى المواقف المتصارعة والملتهبة، كانت للشهيد آراء ومواقف إسلامية عميقة في مضمونها، ومنها موقفه من النظام اللبناني، فقبل أي موقف عند الحكومات والمؤسسات في لبنان، كان له موقف من الكيان اللبناني المستقل والكيانات العربية والإسلامية الأخرى أيضاً، إذ كان يؤمن أن هذه الدويلات قائمة على أنقاض الدولة الإسلامية، وأن بقاءها هو على حساب الإسلام، وأن لبنان هذا قائم على أكتاف المسلمين والمستضعفين فيه. وفي فترة ما بين إنتصار الثورة الإسلامية وبداية الإحتلال الإسرائيلي للبنان تبلورت هذه الآراء وتقدمت، وقد طرح الشيخ بوضوح رأيه حول وجوب النهضة الإسلامية في لبنان على خطى الإمام الخميني.

ومن هنا انطلق في موقف مميز بالنسبة للحرب الداخلية في لبنان، فهو لم يطرح محاربة المسيحيين ولا طردهم بل طرح أن يحكم لبنان بنظام إسلامي يكفل للمسلم والنصراني حقوقهما. كان ضد هذه الحرب وكان يعتبر أن القوى النافذة عند المسيحيين أحزاباً عميلة للغرب، وأحزاباً كافرة، لا تؤمن بدين بل تتخذ شعار المسيحية، لأهداف تتناقض وتعاليم المسيح عليه السلام.

ولكنه في نفس الوقت كان يعتبر أن القوى التي تقف في الجهة المقابلة، أي في الشارع الإسلامي، ليست قوى إسلامية، ولا تمثل المسلمين، لأنها لا تحمل روحية الإسلام، ولا تطرح هذا الدين، بل تحاربه وتنكل بالمؤمنين. لذلك كان يرفض زج المؤمنين في حرب تكون هزيمتها لنا ونصرها لغيرنا. وكثيراً ما انتقد هذه الحرب التي تلتهم كل شيء، والتي تذهب فيها الضحايا بلا طائل، وكان يقول: «آلاف الضحايا، وعشرات الآلاف، ماذا حققنا من خلالها؟ هذا العدد الكبير من القتلى كان كافياً لو سقط في الظروف المناسبة، والخط الصحيح والتوجه السليم والموقع الصحيح في مواجهة إسرائيل، كان كافياً لتحرير فلسطين». ومسألة تحرير القدس وفلسطين كانت همّاً إسلامياً يشغل قلبه ويأخذ حيزاً كبيراً من توجيهاته وخطبه ونقاشاته ووقتاً طويلاً من جهده وعمله.

وفي ذلك الوقت كان الخطر الصهيوني يهدد أرض الجنوب وشعبه، وكانت اعتداءاته المتكررة تطال جزءاً كبيراً منه وتحوله إلى أرض محروقة بعد ما تزرعه قصفاً وقتلاً وتدميراً، كان الشيخ الشهيد يقف بهمة عالية وعزيمة لا تلين، ليدفع الناس باتجاه التصدي للعدوان الصهيوني، فيشد عزائمهم ويرفع معنوياتهم. لقد كان يعتبر أن إسرائيل تريد إحتلال الجنوب، ولكن بلا سكان، لذلك تقصف المدن والقرى بعنف وشراسة لتهجير أهلها وسكانها. ولقد تحدث في إحدى خطب الجمعة في جبشيت موجهاً كلامه لشعب الجنوب، بعد موجة عنيفة من الاعتداءات قائلاً: «ماذا تستطيع إسرائيل أن تفعل بنا.. تقتل العشرات؟ تهدم البيوت؟ المهم أن يعيش من يبقى بكرامة. كان المقصود من القصف تهجيركم، وهذه

خطة اليهود كما فعلوا عام 1948 في فلسطين. ذبحوا عدة مئات من الفلسطينيين في دير ياسين وغيرها، فهرب من أجل ذلك أكثر من مليون إنسان، فاحتل اليهود فلسطين بلا عناء. أما اليوم فقد حاولوا القيام بنفس العمل فقتلوا بمدافعهم وهدّموا ولكنكم صمدتم فهزمتموهم».

وفي تلك الآونة كان الحديث حول دخول الجيش اللبناني إلى الجنوب يتكاثر ويتزايد، والناس حيرى بين مؤيد ومعارض، وقد تبرع البعض بالقول أنه مستعد للسير أمام هذا الجيش ليدخل إلى الجنوب، وطلب من الشيخ موقف من القضية فأورد رأيه في إحدى الخطب قائلاً: «مسألة دخول الجيش لا تمثل عندنا مطلباً، ولكن من واجبه أن يدافع عن الجنوب ضد هجمات العدو، فما الذي يمنعه من الدخول؟ يتذرعون بالمقاومة الفلسطينية، وأحزاب الحركة الوطنية، قولوا لي أين هي الحركة الوطنية؟ هل هنا حركة وطنية؟

وإذا كان الجيش يريد الدخول ومنعه أحد من ذلك، فلماذا لا يقاتل؟ لماذا اسمه جيش؟ هل يريد أن نفتح له مقاهي على الطرقات، ونسقيه الشراب ونرمي عليه الزهور؟ كل جيش يقاتل، ولماذا لا يقاتل هذا الجيش من أجل مصلحة الناس؟ أنظروا عندما أرسلت الدولة بعض الفرق الصغيرة من الجيش، لم يحاربه إلا حلفاؤه في الميليشيات الحدودية.

ـ موقفه أثناء الفتنة التي سبقت الإحتلال الإسرائيلي:

إزاء كل ذلك بدأت تظهر في ساحة الجنوب بوادر فتنة عمياء، تنذر باقتتال داخلي بين حركة «أمل» والتنظيمات الفلسطينية

المتواجدة على أرض الجنوب ومن معها من أحزاب الحركة الوطنية نتيجة تضارب في المواقف وتجاوزات عديدة، وقد اشتعلت بالفعل نار الفتنة ودارت معارك في مناطق عديدة شحنت نفوس المتنازعين بالحقد والبغضاء.

أمام هذه الأوضاع تحرك الشيخ الشهيد ليضع حداً لهذه المآسي بتوجيهاته وتصرفاته، صحيح أنه كان يدرك، بأن قادة التنظيمات والأحزاب انتهازيون ومتاجرون، لا يبتغون سوى الحفاظ على أوسمتهم. ولكنه كان يرى في نفس الوقت الخطر الكبير الذي ستتركه بصمات الاقتتال الداخلي، فكان يدأب على تهدئة النفوس، وترطيب الأجواء وتحصين الجبهة الداخلية في ظل راية الإسلام، استعداداً لمواجهة الهجمة الصهيونية القادمة. لم يوفق لذلك خاصة وأن أجهزة المخابرات كانت ترصد الساحة وتترقبها لحظة بلحظة، وهي باستمرار تصب الزيت على النار تمهيداً لمخططها الجديد، موقعة المزيد من الدمار والخراب، فتبلغ بالناس مرحلة اليأس من جراء سخونة الواقع وفساده، ويكفرون بكل شيء وكأنهم قد استسلموا للمخطط الصهيوني الجديد.

وفي تلك الفترة بالتحديد يتوجه الشيخ الشهيد إلى طهران تلبية لدعوة وجهت إليه، من أجل حضور مؤتمر إسلامي حول المستضعفين، في وقت كانت فيه المعارك الجانبية تشتد وتتصاعد يوماً بعد يوم، هنا عرف العدو أن الحروب المريرة قد أنهكت المجتمع اللبناني، وخصوصاً المجتمع الجنوبي وأنّ الشعب قد وصل إلى مرحلة اليأس وكفر بواقعه، ولن يقوى بعد على

المقاومة، ولن يستطيع المواجهة، فزحف بجيوشه الجرارة، وآلاته العسكرية المدمرة، ليصنع وسط ذهول الكثيرين وتراجعهم، وخوفهم واستسلامهم واقعاً جديداً على الساحة اللبنانية، ألا وهو واقع الإحتلال الإسرائيلي.

ـ شيخ الشهداء ومعركته مع اليهود:

قبل يوم واحد من الاجتياح الإسرائيلي للبنان توجه الشيخ إلى الجمهورية الإسلامية لحضور مؤتمر إسلامي حول المستضعفين، كان سيقام في تلك الفترة. وهناك في وصلته أخبار الاجتياح الإسرائيلي وشكّلت صدمة كبيرة له خاصة لأنه خارج لبنان. الأخبار والتفاصيل قليلة ولكنها مرعبة ومقلقة.

بعد انتهاء أعمال المؤتمر وبعد انقشاع الغيوم وظهور حقيقة المعطيات الجديدة لواقع الإحتلال المرير لجبل عامل ولجزء من لبنان، كان قرار الشيخ العودة إلى الجنوب لمتابعة جهاده إلى جانب إخوانه المؤمنين أبناء هذه الأرض التي تربى فيها، وترعرع عليها.

عن عودته يقول في مذكراته: الأحد (3 شوال 1402هـ) «نمت هذه الليلة في بيت محمد العوطة في علي النهري وصباحاً ركبت السيارة إلى زحلة ومنها إلى صوفر وانتقلت مشياً على الأقدام عبر حاجز قوات الإحتلال الإسرائيلي حيث واجهت ولأول مرة هذا الأمر فشعرت بحقد شديد نحوهم فأشحت بوجهي عنهم، ثم استأجرت سيارة عبر كيفون فبيصور فعرمون. وفي صيدا دفعت للسيارة 500 ليرة لبنانية وركبت سيارة أجرة إلى جبشيت حيث

وصلت إليها عصراً وكان اللقاء حاراً جداً وغير متوقع، وحدثني من زارني عن تفاصيل ما جرى على البلدة والمنطقة. وسررت عندما بلغني أن صلاة الجمعة لم تتوقف وكذلك سهرات رمضان، وسرني أني رأيت عند دخول القرية لافتة تبارك بالعيد عيد الفطر السعيد».

عاد الشيخ إلى بلدته ومنطقته ليرى واقعاً جديداً مؤلماً يخيم ويسود، واقع الهزيمة والانسحاق الكامل أمام الآلة العسكرية الصهيونية المتغطرسة، واقع الإحتلال يرمي بثقله على صدور الناس، فعلاً لقد قلب العدو الأمور رأساً على عقب. منذ وصوله علم الشيخ أن هناك قراراً يحظر التجول ليلاً. ولم يكن ليستطيع تقبل هذا الأمر المرير. ومع هذا كان قلبه كبيراً لم يدع مجالاً فيه لليأس، كان إيمانه بالله أكبر وعزيمته أقوى من كل الآلة العسكرية العدوّة. لقد بادر فوراً لأخذ موقعه الطبيعي كعالم يفترض أن يكون في طليعة الناس أمامهم في السراء والضراء.

دعوته الأولى إلى المؤمنين كانت التزام المسجد والتواجد الدائم فيه حتى في صلاتي المغرب والعشاء وفي ظل أجواء منع التجول.

وفي دعوته الثانية وأثناء «الجمعة» ذكّر بأحكام الإسلام وبحرمة التعاون مع أعداء الله،وقد لاحظ بانشراح الازدحام في هذه الجمعة وهذا يعني أن الناس أخذت تكسر حالة الخوف لتحل محلها حالة الرفض والمواجهة.

ولم يكن الشيخ لينغلق في بلدته في أجواء الإحتلال بل تابع تجواله على القرى المجاورة، ليتابع دوره في الدعوة إلى الله. وفي

إحدى جولاته في قرية النميرية ألقى كلمة في الحسينية، أعلن فيها «ضرورة عدم الخضوع للإحتلال مهما كلف ذلك من ثمن» وقد كان هذا الكلام يعتبر في حينه فريداً في جرأته لأن الجار لم يكن ليجرؤ على الكلام ضد الإحتلال أمام جاره، وفي وقت رحب فيه المنافقون بالإحتلال وأبدوا له المودة واعتبروه المخلّص والمنقذ ولكنّ اليهود لم يلبثوا طويلاً حتى أثبتوا للجميع بأنهم ليسوا إلا جيش إحتلال معادٍ يعمل بكل ما أوتي من قوة لوضع يده وبشكل نهائي على هذه الأرض المحتلة لتصبح كمثيلاتها من الأراضي المحتلة أرضاً منسية لا تذكر إلا بالمناسبات ولا يتحدث عنها إلا لرفع العتب.

في هذه الأثناء وضمن هذه السياسة قامت إسرائيل بإنشاء ما سمي بـ «جيش لبنان الحر» وهو عبارة عن ميليشيا في كل قرية حيث يتم اختيار عشرة عناصر على الأقل من شباب القرية ليشكلوا هذا الجيش.

وقد حاولت هذه الميليشيا أن تمسك بزمام الأمور في القرى التي أُنشِئت فيها وقد جوبهت بتصد ورفض من قبل الأهالي الذين رأوا فيها صورة ممسوخة عن الجيش الإسرائيلي.

ـ بداية مواجهاته للعدو اليهودي:

كيف بدأت هذه المواجهات؟ كان الشيخ قد أخذ دوره منذ عودته من إيران ليتابع مسيرة جهاده الدؤوب وأخذت منابر الجمعة ومنابر الحسينيات في القرى المجاورة والسهرات التي كانت تقام في البيوت وفي المساجد. أخذت تشكل هذه الأماكن مراكز للتعبئة ضد

إسرائيل، هذا الكيان الغاصب الذي يمثل بالنسبة للمسلمين الخنجر المسلول منذ عهد رسول الله ﷺ ضد الإسلام والمسلمين، لذلك وعلى قاعدة مرحلة بناء العقيدة التي مارسها الشيخ قبل الإحلال لم يجد صعوبة في أن يبين للناس أن إسرائيل شر مطلق وأن الحكم الشرعي هو حرمة التعامل معها وأنه في النهاية يجب طردها من أرضنا فكانت له كلماته المشهورة والتي سنأتي على ذكر بعضها إن شاء الله في سياق الحديث.

وقد رأى فعلاً ولمس تجاوب المؤمنين معه ومنذ البداية. وللإجابة على السؤال كيف بدأت المواجهة في جبشيت؟ هذا ما يجيب عليه الشيخ راغب من خلال مذكراته حين يقول: «الإثنين 26 شوال عصراً كنت في بلدة الدوير وألقيت كلمة في حسينيتها حول ضرورة مواجهة الإحتلال. علمت أن (. .) الذي ينتمي إلى ما يسمى بجيش لبنان الحر أخذ الأستاذ ملحم الحاج إلى مركز الجيش المذكور بالحيلة بعد مشادة وشجار بين الأستاذ ملحم و(جاره) بسبب قطع التيار الكهربائي عن منزل الأول من قبل الثاني وعلمت أيضاً أن المختار هو الذي أخرج الأستاذ ملحم من السجن».

ويتابع الشيخ الحادثة فيقول:

«بعد صلاة المغرب والعشاء ذهبت مع جمع من المؤمنين إلى منزل الأستاذ ملحم الحاج تضامناً معه وأعلنت في بيته لزوم استنكار هذا العمل بمقاطعة الذين يتعاملون مع سعد حداد وجيشه وعدم التكلم معهم».

ولعل هذه الحادثة من جملة الأمور التي أيقظت الشعور عند الأهالي وخصوصاً المؤمنين منهم بضرورة مواجهة الإحتلال وعدم الركون للظلم مهما صغر أو كبر.

وهكذا كان، فبعد يومين من الحادثة الأولى أي في 28 شوال 1402 هـ. حصلت مواجهة مباشرة مع قوات الإحتلال. أيضاً برواية الشيخ الشهيد:

«هذه الليلة كان عندي السيد محمد ترحيني ـ أحد العلماء الأفاضل من بلدة عبا المجاورة ـ وإذ كنا جلوساً والأخ حسن جابر ارتفعت الأصوات في البلدة بالتكبير، نزلت إلى الحسينية فوجدت جمعاً غفيراً من الناس يملأ الطريق من المدرسة الرسمية وحتى الحسينية ـ مسافة 250 متراً تقريباً ـ وعلمت أن سبب التجمع هو أن جماعة سعد حداد تدخلوا في خلاف بين إثنين مما أدى إلى مشادة هدد بعدها جماعة حداد باستقدام قوات من خارج البلدة، تبين أن الشباب أقفلوا الطريق بالحجارة والإطارات المشتعلة، فكرت في دعوة الجميع إلى التجمع في الحسينية وحيث كنت أقوم بذلك، مرت آليتان للعدو الإسرائيلي فرميتا بالحجارة واستعد الجنود لإطلاق النار ولكن لم يفعلوا. وفي الحسينية حيث تجمع الناس، ألقيت كلمة قصيرة أعلنت فيها رفض التعامل مع إسرائيل وعملائها وأننا نقبل من يعود إلى صف الإسلام في نادي الحسين عليه السلام، بعد قليل وصل المختار وأعلن أنه قد أمر المسلحين بتسليم أسلحتهم وأنه بريء من أعمالهم وذهبت بعد ذلك إلى منزل المختار وأشدت بالوحدة القائمة في البلدة على طريق الإسلام».

هذا وتعتبر هذه المواجهة الشعبية من أوائل المواجهات والصدامات مع العدو الإسرائيلي حيث لم يكن يُسمع إلا ببعض العمليات العسكرية التي كان يقوم بها المجاهدون في سرية تامة.

وقد كانت من الأمور التي رفعت معنويات الأهالي أكثر إذ شعروا أن باستطاعتهم المواجهة معتمدين على إيمانهم العميق بالله سبحانه وتعالى ومتكلين على سواعدهم وعلى الحجارة.

ومنذ تلك الحادثة وضع العدو بلدة جبشيت ضمن الدائرة الحمراء في وقت أخذ يحس بالإرباك والحيرة، فقد أعلن بوسائل أن دخوله إلى لبنان بقصد ضمان سلامة «الجليل» كما ادعى، وها هو اليوم وبعد مضي عدة أشهر يعمل على تثبيت إحتلاله وترسيخه. ماذا يفعل؟ هل يمارس القمع ضد الأهالي؟ وتكون هذه إدانة له لأنه لا يستطيع الإدعاء بأن هذه الأرض هي أرضه؟ أم هل يترك الناس يتحركون في رفضه وقطع الطرقات عليه وعلى جنوده ويقف مكتوف الأيدي وهذا يعني أن الأرض ستتحول تحته إلى جحيم لا يطاق؟ ماذا يفعل؟ بعد عناء وتفكير وجد الحل. ما هو الحل؟ ـ نعم وجد طريقاً ثالثة: وذلك بدعم ما يسمى بجيش لبنان الحر ليقوم هذا الجيش بقمع الأهالي ويمهد له طريق السيطرة الكاملة على هذه الأرض وضمها إليه في الوقت المناسب.

لذلك أخذ يهدد بأن القرية التي لا تستجيب لدعوته بإنشاء ميليشيا من أبنائها سيلجأ لوضع ميليشيا فيها من خارجها وهو بالتالي

لن يكون مسؤولاً عما سيحصل من مشاكل وربما مجازر ضد أبناء هذه القرية.

لقد كان واضحاً أن هذا التهديد ما هو إلا حرب أعصاب أخذ العدو يمارسها بعدما وجد أن مشاريعه مرفوضة كوجود في عدد من قرى جبل عامل.

إذاً وضع جبشيت ضمن الدائرة الحمراء كان يعني من الناحية الأمنية رصد كامل طيلة الـ 24 ساعة لكل ما يجري فيها من تحركات ضد العدو. ومن الناحية النفسية كان يعني العمل على بث الإشاعات في القرية لإرباك الناس وزعزعة ثقتها بقيادتها وبالتالي لشل فعاليات أو إمكانية أية مواجهة في المستقبل.

وجدير بالذكر أن تشكيل «الحرس الوطني» كان مترافقاً مع تشكيل لجنة مؤلفة من عدة أشخاص يشرف عليها أحد ضباط مخابرات العدو حتى يستطيع أن يحركها كما يريد وفقاً لمصالحه وأطماعه وتكون بالتالي هذه اللجنة أداة قمع وسيطرة معنوية على الناس ليستطيع بواسطتها العدو أن يضمن عدم وجود معارضة أو مقاومة لمشاريعه.

وعل غرار قرى جبل عامل قامت في جبشيت لجنة وقد برر منتسبوها ذلك أننا نستطيع الاحتيال على العدو وردعه عن العدوان! ولمن أثبتت الأحداث التي حصلت لاحقاً فشل هذه الطروحات التي كانت تصدر غالباً عن خوف بعض الناس من المواجهة وعن ضعف ارتباطهم بالله سبحانه وتعالى، فكان الشيطان يزين لهم أعمالهم ليصدّهم عن السبيل.

ـ **موقفه من مأجوري «الحرس الوطني»:**

موقف الشيخ كان واضحاً جداً، رفض التعاون مع «الحرس الوطني» وحتى التكلم معهم ورفض الاعتراف بأية شرعية «للجنة»، وهنا يجب أن نسجل نقطة هامة تدل على وعيه وبعد نظره إذ أنه في الوقت الذي قال فيه بعدم شرعية «اللجنة» وعدم جواز الاعتراف بها لم يقع في الفخ الإسرائيلي ليفتح المعركة مع اللجنة ويترك الإحتلال. فيتحول الصراع من صراع مع العدو، إلى صراع بين الأهالي أنفسهم بين مؤيد للجنة وبين رافض لها، ويكون العدو قد حقق ما يصبو إليه من التناحر الداخلي ويقف منتصراً بعد ذلك.. خاصة إذا أدركنا أن قرى جبل عامل وحتى ما قبل الإحتلال مباشرة كانت تشهد الصراعات العائلية والانقسامات التي خلقّها المستعمر البغيض والإقطاع السياسي المرتبط به وكانت هذه الصراعات تأخذ أشكالاً سياسية وحزبية ولكن في عمقها كانت تأخذ شكل انقسامات عائلية وقبلية، لذلك ليس مصادفة أن تضم «اللجنة» أعضاء من العائلات الكبيرة في كل قرية أو حي.

ومن هنا وبحكم تجربته ومعايشته لأوضاع القرية والقرى المحيطة، وبحكم احتكاكه المباشر مع جميع الناس من مختلف الفئات الإجتماعية ومن مختلف الأعمار، كان يرى أن وجهة الصراع يجب أن تبقى باتجاه العدو الأساسي الذي هو إسرائيل. من هنا نفهم موقفه ودعواته المتكررة لعناصر «الحرس الوطني» لكي يتركوا صفوفه ويعلنوا التوبة ويعودوا إلى صف الإسلام في نادي الإمام الحسين عليه السلام. لم ييأس من إمكانية عودة هؤلاء الشباب الذين ضللهم العدو وأغراهم بعدة وسائل وقد كان لكل شاب منهم

مسألة تغريه. فمنهم من أغراه المال ومنهم من أغراه السلاح، والمواقف العنترية في الساحات. ومنهم من إلتجأ بحجة حماية نفسه لأن له سوابق في التنظيمات اليسارية أو الفلسطينية الملحة. والقليل منهم بسبب ارتباطه الخيالي بالعدو.

ـ لا حوار... لا مصافحة مع أعداء الله:

وفي وقت بدا فيه أن العدو أحكم سيطرته على الجنوب إلا من بعض العمليات الجهادية التي كانت تقض مضجعه وتجعله يعيش حالة من القلق والخوف وفي وقت لم يكن يُسمع فيه غير صوت بلاد الجنوب يصدح بالجهاد «حي على الجهاد» و﴿**قاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾، لم يكن يدوي وسط هذا الصمت المريب غير صوت الشيخ من على منابر جبل عامل رافضاً العدو بشتى أشكاله وبشتى صوره معلناً البيعة للإمام الخميني. داعياً الناس كل الناس إلى رفض العدو، إلى التصدي له وإلى عدم شراء بضائعه، معلناً مباركته للعمليات الجهادية التي كانت نوراً يسطع وسط هذه العتمة ـ ليل الإحتلال القاسي الذي رمى بكل ثقله على صدور الناس إلى حد الاختناق.

هنا بدأ العدو يفكر ماذا يعمل مع هذا الشيخ الرافض، مع هذا الشيخ الذي رفض مجرد المهادنة والسكوت على جرائمه. كل الناس صامتة في الجنوب الكبير والصغير الشاب والكهل، العالم والجاهل كل الناس حيرى لا يدرون ماذا يفعلون والعدو مرتاح لهذا الصمت، فقط صوت واحد كان يقض مضجعه ويمنعه من الشعور بنشوة النصر. ماذا يفعل؟ اكتشف وبحكم تجربته أن الحوار قد

يكون مدخلاً للتطبيع وهكذا كان. كيف يروي الشيخ هذه الحادثة؟ يقول: «الثلاثاء 10 ذي الحجة 1402 هـ عصر هذا اليوم جاءني الشيخ علي ضيا ومعه رجلان فجلست معهم على سطح منزلي نحتسي القهوة وإذ بسيارتين إسرائيليتين متجهتان نحو المنطقة، توقفتا على الطريق الكائنة شرق المنزل تقريباً نزل منهما أربعة أشخاص وقفز ثلاثة إلى قطعة الأرض التي يقع فيها المنزل مما ألجأوني إلى الصراخ في وجوههم «ماذا تريدون؟» فأجاب أحدهم بعد أن استفسر من زميله عن معنى كلمة ماذا تريد، بالتحية فلم يجبه أحد ثم قفزوا نحوي إلى سطح المنزل ومد أحدهم يده ليصافحني فلم أصافحه وسألته مستنكراً كيف تدخل منزلي بغير إذن؟ واشتد الجدل بيننا، وطلب إلي الجلوس معهم والحديث إليهم فرفضت، فسأل عن السبب، قلت لأنكم محتلون. وهكذا استمر الصراخ بيننا إلى أن أعرضت عنهم فاضطروا إلى مغادرة المنزل والجلوس على الطريق».

ثم يتابع الرواية فيقول:

«عند غروب الشمس توجهت مع الشيخ علي ضيا إلى حسينية جبشيت لأداء صلاة المغرب والعشاء جماعة، فوجدت ساحة الحسينية محتشدة حيث كان الناس قد تسامعوا أن الإسرائيليين قد توجهوا إلى منزلي، واصطف المؤمنون للصلاة وقال بعضهم أنه يجب أن نبقى جميعاً هنا لنواجه أية قوة تأتي، لأن اعتقال الشيخ يلزمهم أخذ الجميع إلى المعتقل. أديت الصلاة وطلبت من الناس الانصراف ثم انصرفت وذهبت إلى بعض البيوت ومن ثم إلى عبّا

حيث التقيت السيد محمد ترحيني وأخبرته بما جرى، ونمت عنده تلك الليلة».

وهكذا تبين للأعداء كما قالوا له بعد ذلك في المعتقل أنه عنيد وأصبحوا على يقين بأن جميع المحاولات التي بذلوها لمد جسور الحوار مع الشيخ قد فشلت وذهبت جهودهم أدراج الرياح.

وكما فهم الأعداء كذلك بات الشيخ على يقين بأنه سيكون من الآن فصاعداً ملاحقاً وبالتالي فعليه إعداد العدة لذلك وأخذ الحذر واليقظة.

ومنذ تلك الحادثة الشهيرة أصبحت تنقلات الشيخ أكثر حذراً، لم يعد يتواجد في منزله إلا قليلاً، لم يعد يعرف طعم النوم في هذا المنزل الحديث العهد به. وكان دائماً يقول كلمته المشهورة: «إذا اضطرّنا العدو سنأوي إلى الجبال والأحراش لنمارس من هناك حربنا ضده ولن نستسلم».

خلال هذه الفترة كان الشيخ يتردد إلى بيروت ليتابع نشاطاته فيها حيث كان يقوم بإعطاء محاضرة هنا ويشارك في مهرجان هناك ويلتقي إخوانه المؤمنين في الضاحية وفي بيروت الغربية حيث يشاركهم أفراحهم وأتراحهم كواحد منهم، كما أنه كان على اتصال دائم للتشاور مع سماحة السيد محمد حسين فضل الله وسماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين، يجلس مع أحدهما ويضعه بصورة الوضع القائم لأهله وإخوانه في جبل عامل ويصغي إلى إرشاداته وتوجيهاته ويعطي رأيه في كيفية مواجهة واقع الإحتلال

الإسرائيلي وكثيراً ما كان رأيه يلقى الاستحسان والمباركة من قبل سماحة السيد وسماحة الشيخ.

على أن بعض الأخوة كانوا يلحّون عليه بضرورة البقاء في بيروت وعدم الذهاب إلى الجنوب بحجة أن اليهود يطلبونه ولا داعي لأن يعرّض حياته للخطر. ولكنه كان يصرّ على موقفه بطريقته المحببة وغير الفجّة مؤكداً بأن موقعه الطبيعي بين أهله وإخوانه في الجنوب وليس له في بيروت من النشاطات ما تلزمه بالبقاء. رغم أنه كان يحن كثيراً لمتابعة دراسته الحوزية. لقد كان انقطاعه عن الدراسة حين وجد الفراغ يلف منطقته رغم وجود عدد من العلماء فإن طريقتهم التقليدية في العمل الرسالي لم تكن محببة عنده. لذلك كان بعيداً عن المجادلة والتصنع. ووجد أنه لا مفر له من التوجه والتفرغ للدعوة إلى الله ولو على حساب طموحه العلمي. وكان يصرح بذلك في أكثر من مناسبة. وهو يخبر عن هذا حين يقول: «الخميس 17 محرم /4 تشرين الثاني 1983. قبل الظهر قمت بزيارة مدرسة الشهيد الأول العلمية الكائنة في روضة الشهيدين، ومن ثم زرت السيد محمد حسين فضل الله وتحدثت معه بشأن قرار عودتي إلى جبشيت وكذلك بشأن الالتحاق بمدرسة الشهيد الأول طالباً ومدرّساً، وذكر لي أنه قد جرى تقدم بشأن فتح مدرسة إسلامية في صور لتخريج العلماء والمرشدين بالتعاون مع السيد هاشم معروف والشيخ عبد المنعم مهنا، وأبديت استعدادي للعمل في هذه المدرسة إن ساعدت الظروف على ذلك».

في هذه الأثناء كان العدو الصهيوني كعادته يمارس غطرسته على طول مساحة هذا الجبل وعرضه بحجة التفتيش عن رجال المقاومة والبحث عن السلاح المخبأ. فمن مداهمات للقرى إلى اعتقال للشباب إلى إقامة الحواجز الثابتة والمتنقلة إلى سيارات المخابرات المدنية التي كانت تجوب الشوارع والأحياء والأزقة، وأبرز معلم من معالم الاضطهاد الصهيوني كان معتقل أنصار الذي كان يضم في مرحلته الأولى أكثر من ستة آلاف معتقل يجمع بينهم الإسلام كعقيدة وانتماء، وكونهم يواجهون عدواً واحداً يمارس القهر والإذلال على الجميع.

إن معتقل أنصار لوحده يحتاج إلى الكثير من الصفحات حول هذه التجربة الغنيّة التي مرّ بها شعبنا المجاهد الذي استقى من ثورة أبي عبد الله الحسين عليه السلام دروساً في الرفض والجهاد.

إننا نذكر صرخات التكبير التي كانت تدوي من حناجر المعتقلين في أنصار والتي كانت تصل إلينا في جبشيت والقرى المحيطة. كانت الانتفاضات وتحركات الرفض تتواصل في أنصار، وكان جنود العدو يقفون مرتعدين خوفاً من تلك الصرخات المدويّة حتى أن أحد ضباط العدو كان يقول للمعتقلين، اطلبوا ما شئتم ولكن دعونا من صرخات التكبير! كانت صرخات «الله أكبر» تنزل عليهم نزول الصاعقة من السماء فيلجأون إلى إطلاق النار بشكل هستيري وعشوائي، وكان يسقط الجرحى والشهداء من إخواننا المعتقلين ذنبهم أنهم قالوا ربنا الله!

إن الشهداء إبراهيم خضرا ودرويش وشعيتو وإخوتهم كانوا

الشعلة التي أضاءت الطريق أمام بقية المجاهدين الذين ساروا على نفس الدرب وخطوا نفس الخطى.

وما زلنا نذكر جيداً كيف كان الشهيد السعيد الشيخ راغب يقف على منبر الإمام الحسين عليه السلام في جبشيت في خطبتي الجمعة أو في المناسبات الكثيرة ليخاطب معتقلي أنصار قائلاً أنتم في سجنكم الصغير ونحن في السجن الكبير وغداً ستصبحون أنتم المعتقِلون (بكسر القاف) والأعداء هو المعتقَلون (بفتح القاف).

ـ مداهمات قتالية لاعتقاله:

على أن سياسة الإرهاب والقمع التي كانت مترافقة مع عمليات المجاهدين الإسلاميين من شوارع صيدا إلى شوارع صور والنبطية إلى عمليات منطقة الزهراني وأبو الأسود إلى البقاع إلى كل المناطق التي كانت قابعة تحت الإحتلال. كانت سياسة الإرهاب والمداهمات مستمرة ومن جملة القرى كان لجبشيت النصيب الأوفر منهما، ومن جملة البيوت كان منزل الشهيد الشيخ حيث لم يكن يمر أسبوع تقريباً إلا ويداهم منزله لحجة التفتيش عن الشيخ بهدف اعتقاله. ومن جملة المداهمات العديدة «في 27 صفر 1403/ كانون الأول 1982. في الساعة الثانية بعد منتصف الليل داهم الإسرائيليون منزلي في جبشيت بحثاً عني، وأخذوا سلاح الصيد الموروث عن والدي الحاج أحمد حرب رحمه الله. وفي الصباح بلغني خبر مداهمة المنزل، فتوجهت إليه وبعد أن تناولت شيئاً من الطعام نزلت مع «مسلم» إلى الأرض الملحقة بالمنزل، وإذ بزوجتي تناديني وتقول أن الإسرائيليين قد حضروا وأنهم قرب منزل الأستاذ علي

حرب (يبعد حوالي 20 متر) فقفزت إلى حديقة منزل نزيه فحص ومن ثم إلى الحقول المجاورة إلى أن غادروا البلدة».

وهكذا كانوا يدخلون إلى منزله، يرعبون الأطفال والنساء ويبعثرون محتوياته بحجة البحث عن السلاح. وكانت فتيات مبرة السيدة زينب عليها السلام اللواتي سكنّ في منزل الشيخ عدة أشهر لعدم اكتمال بناء المبرّة، يتقاسمن الخوف مع أطفال وفتيات الشيخ حيث كان يدخل عليهم الجنود الإسرائيليون المدججين بالسلاح والعتاد إلى غرف نومهن ويرفعون عنهن الأغطية، في حين كان عدد آخر من الجنود منتشرين في أنحاء البيت وعلى الشرفة، وعدد آخر يطوقونه من جميع الجوانب، في حين لم تكن تسمع سوى صوت الأجهزة المحمولة على أكتاف الجنود وهم يتابعون مع قيادتهم عملية الاقتحام وكأنهم يخوضون معركة حقيقية مع المجاهدين.

كان التوتر يبدو بوضوح على قسمات وجوههم الحاقدة السوداء وكان الخوف يتسرب إليهم من صرخات التكبير التي كانت تنطلق من حناجر الفتيات اللواتي كنّ دون العاشرة. وكم كان الضابط يحاول تهدئة الموقف وإعطاء التطمينات بشرط أن تكف الفتيات عن التكبير والصراخ.

وفي كل مرة كان جنود العدو يجرّون أذيال الخيبة لأنهم لم يظفروا بالشيخ.

تقول زوجة الشيخ أن جنود العدو كانوا أحياناً يجلسون على سطح المنزل حتى الصباح بانتظار حضور الشيخ وكانوا يركلون السقف بجزماتهم العسكرية لإزعاج النساء والأطفال ليس إلا.

وجدير بالذكر أن الإحتلال كان يحاذر دخول القرية أثناء النهار بعد تجربته الأولى بواسطة آلياته العسكرية فقط، كان رجال المخابرات يتجولون في القرية بسياراتهم المدنية وبأسلحتهم المكشوفة أحياناً. وكانت النسوة عندما يشاهدون سيارة مخابرات يسرعن بإخبار الشباب الذين سرعان ما يختفون من الشوارع الرئيسية. وكان ضباط المخابرات منزعجين كثيراً من هذا الوضع فكانوا قليلاً ما ينجحون في القبض على أحد الأخوة نتيجة اليقظة والحذر التي تحلّى بها أهلنا جميعاً. حتى الأطفال كانوا يشاركون في مواجهة الإحتلال في مراقبة سيارات المخابرات.

ويروي الشيخ كما أبناء القرية الحادثة التي وقعت بين جنود العدو وأحد الفتيان في القرية فيقول: «في إحدى المرات جاءت دورية صهيونية في سيارتي جيب، التقت أحد الفتيان فاستوقفوه وسألوه عن أسمه فأجاب بصورة عفوية: عبد الله الماشي. فسألوه عن منزل علي حرب قال لا أدري، إذا أردتم اذهبوا إلى عند المختار. فلم يجدوا حيلة فعادوا من حيث أتوا».

لذلك كان الشيخ في النهار يمارس دوره المعتاد في القرية وفي المنطقة، وحين ذهابه إلى بيروت، وفي الليل كان له دور آخر. كان يرى أن هذا العدو لا يفهم غير لغة القوة لذلك كان يتابع عمليات المجاهدين الذين كانوا على اتصال دائم به. وهذه مسألة طبيعية أن يتصل المجاهد بقيادته ملتزماً برأيها منصاعاً لأوامرها كيف لا وهو يرى هذه القيادة الميدانية التي كانت تنتقل من قرية إلى

أخرى ومن موقع إلى آخر ومن منزل إلى منزل لتتابع وتقود معركة المصير مع هذا العدو الغاشم.

- زيارة الجمهورية الإسلامية للاستلهام:

وبما أنه أعلن المبايعة للإمام الخميني، باعتباره نائب الإمام (عج) وبما أن جمهورية الإسلام في إيران هي نواة جمهورية الإسلام العالمية الكبرى، لذلك كان من الطبيعي أن يتردد الشيخ راغب حرب إلى الجمهورية وأن يتصل بقيادته وقيادة الأمة الإسلامية. وكما كانت زياراته السابقة قبل الإحتلال زيارات عمل وتعاون وتبادل وجهات نظر مع قيادة الأمة والتزام بتعليمات تلك القيادة استمرت زياراته على نفس النسق بفارق واحد هو أن زياراته أثناء الإحتلال أصبح لها وقع آخر، لقد برز الشيخ راغب كقائد ميداني قدير أخذ يقود شعبه في جبل عامل نحو الحرية والكرامة. والعزة من خلال الالتزام بالإسلام كفكر وعقيدة ونهج حياة، والالتزام بأوامر القيادة الإسلامية الرشيدة المتمثلة بالإمام الخميني، لذلك أصبحت لقاءاته في الجمهورية تتم على أعلى المستويات مع قيادة الثورة وخاصة شخص الإمام حفظه الله.

في 9 ربيع الأول 1403 هـ/ كانون الثاني 1983 أخذ الشيخ يستعد لزيارة الجمهورية. يقول في مذكراته: «هذه الليلة شاركت في حضور إجتماع لجنة الصندوق الإسلامي للتنمية والقرض الحسن. وقد شاركنا الحضور الشيخ محمد مهدي شمس الدين. بعد الظهر توجهت إلى مطار بيروت للانتقال إلى دمشق مع جمع من المدعوين لحضور المؤتمر العالمي الأول لأئمة الجمعة والجماعة

الذي سيعقد في طهران ضمن أسبوع الوحدة الإسلامية، الذي يوافق مولد منقذ البشرية رسول الله ﷺ».

17 ربيع الأول: كان اللقاء في طهران في حسينية جمران بين الوفود المشاركة في المؤتمر وبين الإمام الخميني الذي ألقى كلمة في الحضور.

18 ربيع الأول: هذا اليوم كان من برنامج المؤتمر زيارة (قم) واللقاء بالمنتظري والمرعشي النجفي والكلبلكاني وأهم ما في الزيارة زيارة المكتبة العامة التابعة لآية الله المرعشي النجفي.

22 ربيع الأول: يوم جمعة ـ يتابع الشيخ عرضه لسير الزيارة بمناسبة مؤتمر أئمة الجمعة والجماعة الأول في طهران فيقول: «بعد تناول العشاء حيث كنا قد وصلنا لتونا من مطار مهرباد (حيث يبدو أنهم زاروا مقام الرضا عليه السلام ذهبت والشيخ علي كوراني إلى منزل السيد هاني فحص، ونمنا فيه، وعند الصباح عدنا إلى الفندق حيث انتقلنا مع من تبقى من المشاركين في المأتم.

وفي 8 آذار/ مارس العام 1983، تم اعتقاله، ولكن اعتصام الأهالي والضغوط الشعبية فرضت على الإحتلال إطلاقه بعد 17 يوماً من الاعتقال، وقال في حينها: «يجب أن يفهموا أنهم إذا أرادوا أن يمارسوا الاعتقال وسيلة لسكوتنا على إحتلالهم، فعليهم أن يفتحوا الآلاف من المعتقلات». وعندما شعر الإحتلال وعملاؤه بخطورة حرب وفعاليته، اغتالوه في 16 شباط/ فبراير العام 1984.

سليم الحص
(1929 - ...)
(محاولة اغتيال في العام 1984)

من شاب عانى الفقر في طفولته إلى أستاذ للإقتصاد في «الجامعة الأميركية» ساهم فعلياً في بناء النظام المصرفي اللبناني، الذي هو أساس النظام الإقتصادي اللبناني، إلى رئيس لحكومة لبنان أثناء الحرب وبعدها، يبقى الدكتور سليم الحص «ضمير لبنان» الحي حتى بعدما ترك السياسة إلى الحياة الوطنية.

عبارة شهيرة له لا تفارق أياً من غرف مكتبه «يبقى المسؤول قوياً إلى أن يطلب أمراً لنفسه»، صاحب العبارة الشهيرة «في لبنان الكثير من الحرية والقليل من الديمقراطية».

بهدوئه المعتاد قلّب الدكتور سليم الحص صفحات الماضي مستحضراً التفاصيل الدقيقة التي طبعت شخصيته المؤمنة دائماً وأبداً بالحوار والعلم والقيم الإنسانية والأخلاقية. مبدئي وصادق مع ذاته وأمين على قضية يؤمن بها، من إلغاء الطائفية السياسية في لبنان وتمسكه بوحدة البلد الوطنية إلى عدم التنكر لعروبتنا.

وُلِدتُ في العام 1929 وفقدت والدي عندما كنت أبلغ من العمر سبعة أشهر، وأنا أصغر أخوتي الأربعة، وكنا في حال ضيق شديد مادياً، وتحملت والدتي مسؤولياتنا وكانت إمكانياتنا محدودة، وبدأت أقصد مقاصد البنات ثم تسجلت في مقاصد الصبيان، وفي الحرب العالمية الثانية كان زوج خالتي قد أثرى من التجارة وأردت أن أدخل مدرسة الـ «IC» كي أتعلم الإنكليزية بعدما تعلمت الفرنسية في المقاصد.

فقصدت ابنة خالتي التي أصبحت فيما بعد زوجة النائب والوزير السابق عثمان الدنا، فانتقلت إلى الـ «IC»، وتدرجت إلى أن أصبحت في الثانوي، وفي تلك السنة ورثت جدتي لأمي مالاً وتعهدتني ودفعت أقساطي المدرسية، وأصبحت بعدها أتولى نفسي بنفسي وأطلب العمل بعدما انتقلت إلى «الجامعة الأميركية»، وكنت دائماً من المتفوقين في الجامعة، وأنا تخرجت العام 1952 بتفوق، ونظراً لتفوقي كنت أحصل دائماً على حسومات في الجامعة ومساعدات دراسية، ثم أعمل لأغطي الباقي. وأذكر أنني قصدت «الوست هول» في «الجامعة الأميركية» لأطلب عملاً فوجدت أنهم يطلبون عاملاً في جنائن الجامعة في الصيف لكن أحدهم سبقني إلى ذلك، وراجعت الإعلانات في الجامعة فوجدت أن هناك مسابقة لأحسن رواية ريفية، وكتبت مسرحية بعنوان «مطحنة حامد»، وفزت بالجائزة الثانية، أي 40 ليرة لبنانية.

وخلال سنوات التخصص حصلت على عمل كمساعد للأستاذ نظراً لتميزي في الدراسة، وبقيت على هذا المنوال حتى التخرج

عام 1952 حيث دعيت إلى مكتب أمين الصندوق في الجامعة وقيل لي أن لك مبلغاً متراكماً وطلبت العمل في أنابيب النفط في شركة «تابلاين» وعملت محاسباً هناك سنتين، وبعد سنتين جاءني عرض من غرفة الصناعة في بيروت كمراسل وانتقلت إلى هناك ثم تعرفت إلى زوجتي كانت تطبع الرسائل التي أعدها، وتسجلت في الماجستير وأنا أعمل، وأصبحت معيداً مساعداً في الجامعة وتركت غرفة التجارة وبدأت التعليم في «الجامعة الأميركية»، وأخذت الماجستير في العام 1955، بعد سنتين من التدريس حصلت على منحة الدكتوراه إلى الولايات المتحدة الأميركية من مؤسسة «روكفلر فونديشن» وعام 1959 توجهت إلى أميركا، والمؤسسة كانت سخية معي ومولت رحلتي مع زوجتي وابنتي بين واشنطن وإنديانا.

وعن انطباعه عن الشعب الأميركي خلال تواجده في أميركا يقول الدكتور الحص: الشعب طيب جداً فطري ويؤمن كثيراً بالحرية، ويحترم رأي الآخرين، وكنا في حوار دائم حول القضية الفلسطينية آنذاك وكنت ألقى إصغاء من المتحاورين.

- في الحكومة:

عدت برتبة أستاذ بعد نيلي الدكتوراه وترأست دائرة العلوم التجارية في «الجامعة الأميركية»، ثم جاءني عرض وأنا أستاذ في الجامعة للعمل خبيراً مالياً في الصندوق الكويتي الذي كان حديث النشأة في العام 1964 وطلبت إجازة غير مدفوعة من «الجامعة الأميركية» وذهبت إلى الكويت عامين مع زوجتي وابنتي، فدرست مشاريع إنمائية كثيرة في الدول العربية، ورئيس الصندوق الكويتي

آنذاك كان الشيخ جابر الصباح (رحمه الله) الذي أصبح فيما بعد أمير الكويت، عندما عدت عام 1966 انهار بنك «أنترا» وكان أعز أصدقائي المرحوم مدير عام المالية الدكتور سالم الذي استعان بي للبحث في قضية بنك «أنترا» والتقيت برئيس الجمهورية ورئيس الوزراء، وانفتحت أمامي آفاقاً جديدة، وضمن الحلول التي وضعت لأزمة بنك أنترا هو اقتراح مني لإنشاء لجنة لرقابة المصارف لدى «مصرف لبنان» لكنها مستقلة إدارياً عنه فعُينت أول رئيس لها.

بعدها تعرفت إلى الرئيس الياس سركيس كان حاكماً لمصرف لبنان وبقينا نعمل سوية على إصلاح الوضع المصرفي، وعمدنا إلى برنامج إصلاحي واسع جداً وتبادلنا الثقة والاحترام. وفي العام 1976 انتخب الرئيس سركيس رئيساً للجمهورية وقبل أوانه مع اشتداد الأزمة، وكنت أنتقل يومياً لملاقاة الرئيس سركيس، وفي أحد الأيام قال لي أريدك أن تتولى أي حقيبة في الحكومة فقلت له أريد أن أتولى وزارة شؤون الإعمار والإنماء، وعندما عجز عن تشكيل حكومة من الفعاليات توجه إلي بالقول أريدك أن تشكل حكومة من التكنوقراط من غير السياسيين، فشكّلت حكومة كان فيها سياسي واحد هو الوزير فؤاد بطرس. وفي العام 1978 طلب مني الاستقالة كي يشكل حكومة من الفعاليات السياسية، فاستقلت وأجرى مشاورات مع المجلس النيابي واختارني رئيساً لحكومة الفعاليات. في نهاية العام 1980 شعرت أن التوجه العام لم يعد مقنعاً لأن كان جهد الرئيس سركيس الإتيان بالشيخ بشير الجميل رئيساً للجمهورية فقلت للرئيس سركيس إنني لا أستطيع الاستمرار على هذا المنوال فاستقلت.

ـ الحرب:

وعن عودة الحرب إلى لبنان يقول الرئيس الحص: استبعدها جداً لأن اللبنانيين تعلموا درسهم من الحرب الماضية، وأعتقد راسخاً أن ليس بين اللبنانيين من يريد العودة إلى الاقتتال مع وجود الحزازات السياسية والطائفية والمذهبية لكن ليس بين اللبنانيين من هم يريدون العودة إلى الاقتتال ومن بينهم القادة السياسيين.

الأحزاب:

وعن تعايشه القسري مع الأحزاب والميليشيات يقول الحص: كنا دائماً في مماحكة يومية وعانيت الأمرين وخلال فترة الأربع سنوات في حكم الرئيس الياس سركيس كان لدي مشكلة مع كل الرفاق من كل الجهات وكان لدي مشكلة مع القوات الوطنية، مع مطالبهم المتكررة، ولكن كان لدي مشكلة حقيقية وأكبر بكثير مع «القوات اللبنانية» و«حزب الكتائب» و«الوطنيين الأحرار»، لم أكن أؤمن بمنطق السلاح على الإطلاق، وكنت أمقت السلاح واستخدام العنف وأحاول أن أجد حلولاً عن طريق الحوار وطرح المشاريع، وأذكر أنه خلال عهد الرئيس سركيس كانت هناك محاولات لتأليف حكومات إتحاد وطني فشلت جميعها، ثم في العام 1979 حضّرت مشروعاً وفاقياً سمي بالمبادئ الـ 14 وعرضها الرئيس سركيس بحضور الوزير فؤاد بطرس، وأتينا بكل أفرقاء النزاع ووقعوا عليها دون أي نفع يذكر.

وأذكر بهذه المناسبة أنني حضّرت، عندما سُميت رئيساً للحكومة للمرة الأولى مشروع البيان الوزراي ولم أنس أنني أوردت

فيه عبارة تقول أنه يجب العمل على إلغاء الطائفية السياسية في الإدارة والقضاء والجيش. واعترض الوزير فؤاد بطرس على أساس أن المبدأ جيد لكن تطبيقه صعب.

واقترح الرئيس سركيس آنذاك أن يشطب هذه العبارة في النصوص ونحاول تطبيقها فالأفضل لنا أن نطبق شيئاً لم نتعهد به من أن نتعهد بشيء لا نستطيع تطبيقه.

ومررنا بتجارب مريرة في هذا الصدد، فكان مشروع مرسوم بتعيين قضاة ووزير العدل كان يومها فؤاد بطرس وجاءني بمشروع قانون لتعيين 11 قاض نجحوا في المعهد معظمهم من المسيحيين والأقلية سنّة، فوقعت على المرسوم رغم ذلك، وبقي المرسوم في درج الرئيس سركيس بضعة أيام وعندما زرته قال لي سيشكل لك الأمر مشكلة ومع إصراري عليه وقّعه، وكان المرسوم الوحيد في تلك الفترة الذي لا يعتمد على الطائفية، وبعد فترة جاء موضوع الجيش قيل نريد فتح باب الاستقالات وجاءنا المئات من الاستقالات ووزير الدفاع كان يومها الوزير بطرس وكان ثلثا الجيش آنذاك ضباط مسيحيين والثلث مسلمين فكان المستقيلون من المسيحيين أكثر من المسلمين فاقترح أن يكون عدد المستقيلين من المسيحيين بقدر المسلمين فطالبت بتوازن الثلثين والثلث. ومسائل إدارية أخرى كثيرة لم تكن تؤمن بإلغاء الطائفية في الإدارات.

ـ محاولة اغتيال:

تعرض الدكتور سليم الحص لمحاولة اغتيال صبيحة عيد الفطر عام 1984 بسيارة مفخخة عندما كان متوجهاً في موكب رسمي إلى

منزل المفتي الشيخ حسن خالد في الروشة. وعن الجهة التي وراء عملية الاغتيال يقول الرئيس الحص:

عملية الاغتيال التي تعرضت لها سمعت من هو الجاني على لسان نائب الرئيس السوري السابق عبد الحليم خدام، عندما اغتيل الرئيس كرامي العام 1984 كنت وزيراً في حكومته ويوم الاغتيال كان لنا لقاء إسلامي واسع وطلب مني أن أتولى رئاسة الحكومة مباشرة لأن رئيس الجمهورية أمين الجميل آنذاك كان طرفاً في النزاع، وقبلت أن أتولى بالوكالة فاعترض الأستاذ حسن الرفاعي الفقيه في الدستور وقال لا يشارك أحد ميتاً، لكنني اعتبرتها مسألة إنسانية، وطلب من رئيس المجلس النيابي حسين الحسيني أن يبلغ الرئيس الجميل بإصدار مرسوم بتسميتي رئيساً للوزراء بالوكالة فلبى الرئيس الجميل.

وفي اليوم التالي توجهنا إلى طرابلس للمشاركة في المأتم وكان هناك السيد عبد الحليم خدام، وكان يستشيط غيظاً، لأننا لم نشاورهم في الموضوع من قبل، ووجه كلامه إلى المفتي: «لِم العجلة؟» فقلت له «يا أبو جمال إن الرئيس أمين الجميل طرف في النزاع فيجب أن يكون هناك شريكاً»، وتوجه إلي بالقول «عندما تأتي إلى سورية في المرة المقبلة ذكرني كي أقول لك من دبّر محاولة الاغتيال». وبعد أسبوعين توجهت إلى سورية للقاء الرئيس حافظ الأسد مع الرئيس حسين الحسيني، وتوقفنا عند الرئيس خدام فذكرته بما قاله لي فأجاب: «إيلي حبيقة كان في الشام وسآتي به كي يخبرك» قلت له «أنا بغنى أن أصافح إيلي حبيقة فقل لي من».

فقال «العملية قامت بإشراف إيلي حبيقة مع العميد سيمون قسيس رئيس الشعبة الثانية في استخبارات الجيش ومعهم الدكتور جميل نعمة مدير عام الأمن العام». وعندما عدت إلى بيروت كتبت مذكرة للقضاء الذي من خلال المدعي العام دعا إيلي حبيقة الذي كان يومها وزيراً، فقال له دعني أشاور فريقي وبعد أيام قال لا أريد أن أتكلم وانتهى الموضوع، ومنذ ذلك الحين لم يستمر التحقيق، وقال لي خدام أيضاً أنهم اجتمعوا عند شخص أصبح اليوم وطنياً هو ميشال المر، وبعد نحو شهرين جاء المر إلى بيتي في زيارة ونفى الموضوع، ثم استمعت بعد فترة إلى الوزير الياس المر الذي نفى الأمر كذلك قائلاً إن إجتماع هؤلاء كان عند والدي ولكن ليس للتحريض على اغتيالك لأنهم عادوا واجتمعوا عند إيلي حبيقة لهذا الغرض.

ـ كتابات وحياة سياسية:

بعد سقوطي في الانتخابات العام 2000 أعلنت أنني انتقلت من حيز العمل السياسي إلى حيز العمل الوطني، فالسياسي يعمل من أجل هدف معين، وبين 1992 والـ 2000 كنت رئيساً للوزراء، وبعدما شنت علي حملة هائلة وظفت فيها إمكانات مالية هائلة تركت العمل السياسي من أجل العمل الوطني، وأعلنت أنني انتقلت من الحيز السياسي إلى الوطني، بمعنى أنني سأتابع العمل في مجال السياسة ما عدا طلب المنصب، وأنا في العمل الوطني أمارس السياسة من الباب العريض جداً، وأنا أمارس السياسة من خلال تأسيس ما يسمى منبر الوحدة الوطنية (القوة الثالثة) وحاولنا التقريب

بين فريقين متنازعين أخيراً وطرحنا مبادرات كثيرة، خصوصاً لجهة القرار 1559، ثم طرح موضوع الرئاسي وطرحنا مبادرة للرئيس لحود وقلنا له أنه عليك الاستعداد للتنحي ضمن إطار مبادرة لإنقاذ الوطن.

كما أصدرت حتى الآن 17 كتاباً حملت العناوين التالية:

- «The development of Lebanon's financial markets» (1974).
- «نافذة على المستقبل» (1981).
- «لبنان المعاناة والسلم» بالإنكليزية (1982).
- «لبنان على المفترق» (1983).
- «نقاط على الحروف» (1987).
- «حرب الضحايا على الضحايا» (1988).
- «على طريق الجمهورية الجديدة» (1991).
- «عهد القرار والهوى» (1991).
- «زمن الأمل والخيبة» (1992).
- «ذكريات وعبر» (1994).
- «للحقيقة والتاريخ»، تجارب الحكم ما بين 1998/ 2000 (2001).
- «محطات وطنية وقومية» (2002).
- «نحن والطائفية» (2003).
- «عصارة العمر» (2004).
- «صوت بلا صدى» (2005).

ـ «تعالوا إلى كلمة سواء» (2006).

ـ خبرة وعبر:

بعد خبرة كبيرة في السياسة، ما هي العبر التي استقيتها من هذه الرحلة الطويلة مع السياسة؟

هناك عبرة رفعتها فوق رأسي وهي: يبقى المسؤول قوياً إلى أن يطلب أمراً لنفسه، وعندما سمعت مجموعة من النواب يقولون أنهم أُجبروا من سورية على التمديد للحود تعجبت من الأمر، وفي إحدى الكتب جمعت مقالات عنوانها «بيني وبين سورية» وأظهرت فيها كيف كانت العلاقة بيننا وكيف لم أرغم على شيء طيلة حياتي.

ـ سليم الحص في سطور:

ولد الدكتور سليم أحمد الحص في منطقة حوض ولاية بيروت سنة 1929 حيث نشأة أسلافه، وتعلم في مدارس المقاصد مراحل دراسته الإبتدائية والمتوسطة والثانوية ثم انتقل إلى «الجامعة الأميركية» في رأس بيروت ليكمل دراسته في كلية الإقتصاد والعلوم السياسية، ثم سافر إلى الولايات المتحدة الأميركية ليستكمل دراساته العليا بنفس التخصص وذلك في جامعة أنديانا، فنال شهادة الدكتوراه ثم عاد إلى بيروت ليعين أستاذاً جامعياً مساعداً سنة 1964 ثم مستشاراً للصندوق الكويتي للتنمية العربية، ثم مديراً عاماً ورئيساً لمجلس إدارة المصرف الوطني للإتحاد الصناعي والسياحي. وبعد انتهاء حرب السنتين في لبنان 1975 ـ 1976، ـ إثر دخول قوات

الردع العربية لإنهاء الصراع الداخلي هناك - تم تكليفه بتأليف حكومة وحدة وطنية سنة 1976 فلعب دوراً بارزاً في المحافظة على سعر الليرة اللبنانية آنذاك. وفي سنة 1987 تم تكليفه مرة أخرى برئاسة مجلس الوزراء بالوكالة نيابة عن رئيس الحكومة المغدور رشيد كرامي، وكانت تلك الفترة من أصعب مراحل الحرب الأهلية في لبنان وخصوصاً بيروت، حيث تنحر الأحزاب والطوائف في حرب ضروس تدور رحاها في أحياء العاصمة وأزقتها يومياً. وكان الحص جريئاً مهذباً خلوقاً يكره الميليشيات وزعماءها ويؤمن بالحوار والعلم والقيم الإنسانية والأخلاقية ولا يهوى الطائفية والفئوية والمناطقية والحزبية، لذلك حافظ على بيروت ووحدتها الداخلية جغرافياً في تلك الفترة العصيبة، وقد استعان بما يملك من إمكانيات وعلاقات محلية وإقليمية ودولية لتثبيت ذلك. وقد تعرض خلال تلك الفترة لمحاولة اغتيال وتهديد وانتقاد ولكنه استمر في نهج سياسته المبدئية ولم يرضخ لكافة الضغوطات التي مورست عليه. وبعد انتهاء الحرب اللبنانية ترشح الحص عن بيروت ففاز ولائحته بأغلب مقاعد المدينة برلمانياً وأصبح أكثر من أي وقت مرجعاً سياسياً كبيراً وهاماً لأبناء العاصمة، بالإضافة إلى تعيينه في مركز دولي هام، وهو ممثل البنك الدولي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وذلك سنة 1992.

وفي انتخابات سنة 1996 أخفق الحص سياسياً بعد أن فازت لائحة قرار بيروت والتي كان يترأسها ابن صيدا ومرشّح بيروت آنذاك رئيس الحكومة الشيخ رفيق الحريري، ولم ينل الحص إلا مقعده في البرلمان ومقعد لحليفه النائب السابق محمد يوسف

بيضون، لينتقل الحص بعدها إلى جهة المعارضة، ويبدأ صراعه السياسي مع عدوه التاريخي في مضمار الزعامة وهو رفيق الحريري، وقد تخلل ذلك الصراع انتخابه رئيساً للحكومة سنة 1998 في عهد الرئيس إميل لحود والتي استمرت زهاء السنتين خسر الحص في تلك الفترة الكثير من رصيده السياسي والإقتصادي بعد أن فشلت حكومته برفع المعاناة عن كاهل المواطن إجتماعياً جراء استلامها حقائب وزارية مثقلة بالديون والفساد الإداري والمشاكل السياسية والإحتلال الإسرائيلي وضربه الدائم للبنية التحتية اللبنانية بشكل شبه يومي، بالإضافة إلى صعوبات الإنفاق مما اضطره إلى إتباع سياسة تقشف إقتصادية. ولكن رغم كل العوامل والظروف الصعبة التي مرت بها البلاد آنذاك نجحت حكومته في المحافظة على سعر صرف العملة المحلية رغم مراهنة الكثيرين على فشلها في ذلك.

وكان الإنجاز الأكبر لها هو تحرير البلاد من المغتصب الإسرائيلي بيد المقاومة الإسلامية اللبنانية ممثلة بـ «حزب الله» و«حركة أمل»، ولكن رغم ذلك خسر الحص معركته الانتخابية اللاحقة سنة 2000 بفوز ساحق لجميع مرشحي لوائح الشيخ رفيق الحريري رغم رئاسته لمجلس الوزراء وتشكيله للائحة كانت تضم ثلاث وزراء وبشن التلفزيون الرسمي حملة عدائية كبيرة استعملها سليم الحص لمصلحته الشخصية.

ولكن حسم المعركة عدوه التقليدي سياسياً رفيق الحريري بماكينة انتخابية تجاوز عدد العاملين فيها ألفي عنصر وقوة إعلامية

وإعلانية ومالية لم يستطع الحص مجاراتها. وقد شكر الحص بيروت وأبناءها وتعهد لهم بالمضي قدماً على نهجه ومبدئه بالمحافظة على المدينة التي تعني له الكثير. وللرئيس الدكتور سليم الحص العديد من الندوات والمحاضرات والمؤتمرات بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من المؤلفات والمقالات السياسية والإقتصادية.

ـ من مقالات سليم الحص:

ـ دفاعاً عن العروبة:

حفزني إلى تسطير هذه الخواطر الدكتور محمد غانم الرميحي، المفكر الكويتي المعروف، في ما كتب في صحيفة «الحياة» في 5/ 1/ 2005 تحت عنوان «ظلام القومية». يقول الدكتور الرميحي في مقاله: «باسم الدين أو القومية ارتكبت حماقات ضخمة، إنها أكثر من جرائم بل حماقات سوداء، فقد أصبحت القومية تشكل عبئاً من جانبين: الأول على تطور «الدولة» العربية والثاني الوقوف أمام العولمة باتصال العرب مع العالم الحديث». هذا الحكم الذي أطلقه يستوجب وضع بعض النقاط على بعض الحروف دفاعاً عن العروبة، وأنا من المؤمنين بها.

إذا ارتكبت «حماقات ضخمة» باسم الدين والقومية، فهذا لا يضير الدين أو القومية في شيء. فالأحمق مسؤول عن حماقاته، والمجرم عن جرائمه، والمرتكب عن ارتكاباته. فلا تبعة على الدين أو القومية، وإلا لجاز أخذ الكثرة بجريرة القلة، وحمّلت القيم والمبادئ والشرائع تبعات المتجاوزين والخارجين عليها. فكما أن

ممارسات الصليبيين في القرون الوسطى لا تدين المسيحية، وممارسة الصهاينة في القرن العشرين لا تدين اليهودية، وممارسة الجند الأميركيين في أفغانستان والعراق وقبل ذلك في كوريا وفيتنام لا تدين الديمقراطية، فإن من يرتكبون «الحماقات الضخمة» اليوم باسم القومية والإسلام لا يدينون العروبة أو الإسلام.

باسم الحرية والديمقراطية ترتكب الدولة العظمى، أميركا، أبشع الجرائم في حق الإنسانية في العراق وفي أفغانستان حيث تقتل الأطفال والنساء والشيوخ والعزّل من الشباب في سياق ما تسميه حرباً على الإرهاب. وهي ترتكب مثل هذه الكبائر يومياً في دعمها المطلق لإسرائيل في عدوانها الهمجي على شعب فلسطين. فعل يستتبع ذلك إدانة لقيم الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان التي تتذرع بها الدولة العظمى في اعتداءاتها؟ هل تدان العولمة التي تقود أميركا مسيرتها على ما تسببت به وتتسبب الدولة العظمى في عملياتها العسكرية منذ منتصف القرن العشرين؟ فلا نجورنّ على الدين أو القومية. ما أخطر التعميم إنطلاقاً من الجزئيات.

الكاتب يخلط، على ما يتراءى لنا، بين الرسالة والعصبية. جوهر المواطنة رسالة في خدمة الوطن، وجوهر القومية كما جوهر الدين رسالة في خدمة الإنسانية. الرسالات تتكامل وتتفاعل، أما العصبيات فتتصارع فتنزع كل منها إلى إلغاء الأخرى. المواطنة رسالة، أما الانعزالية القطرية فهي عصبية. العروبة رسالة. أما العنصرية الإثنية فعصبية. والدين رسالة، أما المذهبية والطائفية فعصبية. من الطبيعي أن ندين القطرية لا الوطنية، والعنصرية

لا القومية، والطائفية لا الدين.

يقع الكاتب في شيء من الالتباس إذ يتحدث عن الدولة العربية، وهو يقصد الدولة القطرية في العالم العربي. فهو إذ ينعتها بالعربية، إنما يعترف ضمناً بالهوية العربية، وهو إذ يسلّم بواقع الدول العربية في حدودها القائمة إنما يتبنى ضمناً حيثيات منشأ تلك الكيانات، أي أنه يسلّم بنهاية قرارات اتخذها المستعمر البريطاني أو الفرنسي في القرنين التاسع عشر والعشرين، كما يسلّم بقدر فرضته إتفاقات بين المستعمرين على تقسيم منطقتنا، ولعل أهمها إتفاق سايكس بيكو، وقرار تقسيم فلسطين في الأمم المتحدة. إن الكيانات التي يدعو مناهضو القومية ضمناً إلى تكريسها هي نتاج قرارات المستعمرين والمستكبرين. فلماذا نسلم بقرارات هؤلاء في حقنا ولا تكون لنا قراراتنا في صنع مصيرنا؟ ثم هل صحيح أن القومية عقبة في طريق العولمة؟ إذا نظرنا إلى العروبة بأنها رسالة في خدمة الإنسانية، حكمها في ذلك في نهاية التحليل حكم المواطنة والدين، فكيف تكون عائقاً للعولمة؟ إلى ذلك، ألا نسمع يومياً تبريرات للعنف الذي تمارسه الدولة العظمى باسم الدفاع عن الأمن القومي في أميركا وتحت راية الذود عن مصالحها العليا؟ ألا يدل ذلك على تميّز وطني أو قومي أميركي؟ ألا يصح ذلك أيضاً على سائر دول الغرب التي تتصدر حركة العولمة؟ لماذا إذاً نتنازل عن قوميتنا ويتمسك رواد العولمة بهوياتهم القومية؟ الانبهار بالغرب كثيراً ما يعمي بصيرتنا.

أما التذرع بوجود أقليات دينية أو عنصرية داخل المجتمع

العربي لتسخيف مقولة القومية العربية، فما أيسر دحضه. التعددية الإثنية والدينية في أميركا لم تمنع الأميركيين من التشبث بأميركيتهم والمفاخرة بها، وكذلك التعددية في بريطانيا وفرنسا وإسبانيا والهند والصين وروسيا وسائر مجتمعات العالم. ووجود أقلية الباسك في إسبانيا لم يلغِ الهوية الإسبانية. وكذلك يجب أن يكون وجود الأكراد والأرمن والبربر وخلافهم في بعض المجتمعات العربية.

إذا كانت الأقليات في المجتمعات العربية طموحات لإقامة كياناتهم المستقلة، وإذا توافرت مقومات الحياة لمثل هذه الكيانات، فيجب ألا تكون العروبة حائلاً بينهم وبين تحقيق طموحاتهم. أما إذا لم يكن ثمة شيء من ذلك، فالأقليات تبقى من صلب مجتمعاتنا، لهؤلاء ما لسواهم من الحقوق، وعليهم ما على سواهم من الواجبات، كما في سائر المجتمعات التعددية الأكثر تقدماً. وكان من أعلام التاريخ العربي الذين نعتز بهم من كانوا في أصولهم من غير العرب، من أمثال صلاح الدين الأيوبي وطارق بن زياد. وكذلك الأمر بين فلاسفة العرب ومفكريهم وشعرائهم. فالاستثناء يثبت القاعدة ولا يدحضها.

قيل أن القومية كانت حائلاً دون التنمية إذ آلت إلى النظر إلى الدولة القطرية على أنها كيان مؤقت، فلم تعد تنفذ فيها برامج طويلة الأمد، هذا منطق عقيم ومضلل. كل الدول العربية تسعى اليوم إلى تنمية إقتصاداتها بشتى الوسائل المتاحة. وإذا كانت قصرت عن تحقيق كل أهدافها الإنمائية، فلا يجوز أن ننحي باللائمة جوراً

على فكرة القومية. فالسبب هو عجز المسؤول العربي، وربما، في حالات كثيرة، فساده. وهذا عائد إلى حد بعيد إلى فقدان آليات المساءلة والمحاسبة في الأنظمة العربية السائدة نظراً لهزال الممارسة الديمقراطية أو انعدامها. إذا كان هذا هو الواقع، فليكن مطلبنا إشاعة الحريات وتفعيل الديمقراطية في بلداننا العربية، وليس جلد النفس والتثريب على قوميتنا.

أما التذرع بخلافات ناشبة بين الحكام العرب وبمشاريع وحدوية فشلت في السابق، كما بين مصر وسورية، أو بين بعث العراق وبعث سورية، أو بين دول الخليج، فحبله قصير. الخلافات والصراعات هي بين أنظمة لا ديمقراطية، لا علاقة لها بإرادة الشعوب. وإذا كنا نطمح إلى إتحاد عربي في يوم من الأيام، فنحن لا نرى سبيلاً إليه إلا عبر الإصلاح الديمقراطي في شتى الأقطار العربية، بحيث يأتي الإتحاد، ولو بعد أجيال، نتاجاً لإرادة شعبية جامعة. كما كان الإتحاد الأوروبي، وليس بناء على أمزجة الحكام العرب التي تبقى خاضعة لعصف الأهواء والنزوات والمصالح الذاتية أو الرضوخ إلى إرادات قوى خارجية. في معايير العصر الحديث، للأسف الشديد، الحاكم الناجح في عالمنا العربي هو ذاك الذي يحسن قراءة ما تريده الدولة العظمى ويعمل بموجبه. والواقع الرديء يجب ألا يحجب رؤية الغد الأبعد. فمصير الأمم لا تقرره حسابات أسابيع أو أشهر أو حتى سنوات معدودات. هذه تركيا تحلم بالانضمام إلى الإتحاد الأوروبي بموجب محادثات يقدر لها أن تستغرق عشر سنوات وربما خمس عشرة سنة.

كان بعض الحكام العرب هم الذين أساؤوا أيما إساءة إلى مسيرتنا القومية، في مقدمهم السفاح الطاغية صدام حسين الذي افتعل حرباً فاجرة ضد الكويت وأخرى ضد إيران، ومنهم من هرول إلى التوقيع منفرداً على ما سمي سلاماً مع عدو الأمة فحفر في جسمنا القومي جروحاً عميقة. إننا نلعن هؤلاء، ولكننا لا نفكر بقوميتنا. ويبقى الرهان في تقرير مصيرنا معقوداً على إرادتنا وإرادة الأجيال المقبلة. ونرفض إحتلال أرضنا في كل الأحوال.

الإتحاد الأوروبي كان أعظم مشروع إنمائي في القرن العشرين. ونحن العرب لا بد لنا من السير على طريق مماثلة، توصلاً إلى إتحاد مماثل. نحن أولى بالإتحاد من الأوروبيين. فما يجمع بيننا من لغة وثقافة وتاريخ ومصالح أعظم كثيراً مما يجمع بين الأوروبيين. وفي كنف حال التشرذم التي تسود ساحتنا العربية اليوم، بفعل سياسات حكامنا كما بفعل استهدافنا من الصهيونية العالمية وكذلك من قوى دولية كبرى لها مآرب ومصالح في منطقتنا وثرواتنا، فإن تعذر تحقيق حلم الإتحاد اليوم يجب ألا يدفعنا إلى التخلي عن هذا الحلم. إن لم يتحقق في أيامنا، فلا بد من أن يتحقق على أيدي أجيال مقبلة. والطريق إلى تحقيق هذا الحلم إنما يمر بالإصلاح الديمقراطي.

ما أسهل التذرع بواقع أليم نعيشه لنعلن يأسنا. وما أحوجنا إلى قيادة تاريخية تتحرى واقعنا الأليم لتذلّله وتتخطاه وتقود المسيرة إلى مستقبل أفضل[1].

---

(1) عن «الحياة» اللندنية، الخامس من كانون الثاني/يناير 2005.

ـ يا حبذا لو استقالت الحكومة اللبنانية غداة استشهاد الرئيس رفيق الحريري:

يا حبذا لو استقالت الحكومة اللبنانية غداة استشهاد الرئيس رفيق الحريري رحمه الله. لو فعلت لكانت وفّرت الكثير على نفسها وعلى البلاد والعباد بفعل ما جرى من تظاهرات وإضرابات وحملات. قيمة القرار، أي قرار، ليست في مضمونه فحسب بل كذلك في توقيته.

إن ما يصنع التاريخ بأحداثه وفظائعه ومآسيه قصور في الحدس أو التقدير أو الرؤية أو ربما الرؤيا. لو أحسن قادة الرأي التقدير والقرار في لبنان هل كان شيء من الخطوب التي حلّت بنا في تاريخنا الحديث؟

لو لم يكن التجديد للرئيس بشارة الخوري في عام 1949 خلافاً للدستور لما كانت أزمة عام 1952 التي أطاحت به وهزّت البلاد. أما كان بالإمكان تفادي هذه الأزمة بارتقاب مُسبّباتها.

لو لم يكن طموح الرئيس كميل شمعون إلى التمديد عام 1958، ولولا اصطفاف القيادات السياسية على جبهتين، إحداهما تدين بالولاء للرئيس جمال عبد الناصر وحركة عدم الانحياز، والأخرى ترتبط بحلف بغداد الموالي للمعسكر الأميركي الغربي، لما نشبت أزمة دامية في ذلك العام انتهت بشعار «لا غالب ولا مغلوب». أما كان بالإمكان الإتفاق على قدر «لا غالب ولا مغلوب». قبل نشوب الأزمة وتفادياً لها؟

وعصفت بلبنان أزمة مدمرة متمادية استمرت خمسة عشر عاماً،

ما بين 1975 و1990، وانتهت بصيغة وفاقية أعلنت إثر مؤتمر الطائف عام 1989. أما كان بإمكان أولئك النواب أنفسهم، الذين تلاقوا في الطائف، التلاقي قبل اندلاع الأزمة، في عام 1975 مثلاً، في عاصمة لبنان بيروت، على مثل ما عادوا فاتفقوا عليه في الطائف بعد محنة لم تُبقِ ولم تذر؟ أما كنا وفرنا كل ما أُهدر من دماء وزهق من أرواح وتبدد من أرزاق وممتلكات وما شاع بين الناس من عذاب وشقاء، ناهيك بالأحقاد والضغائن والحفائظ، وما كان من شروخ وطنية؟ ما الذي كان يمنع أولئك النواب، لو توافرت الرؤية والرؤيا، من استباق الأزمة بحلٍّ لها على غرار ما توصلوا إليه بعد خمسة عشر عاماً.

الجواب ببساطة: هذه هي سنّة الحياة، وهذه طبيعة البشر، التي لم تصل يوماً إلى مرتبة الكمال. لا بل هذا واقع المجتمعات، ولولا هذا الواقع لما كان تاريخ.

وما يُقال عن لبنان يمكن أن يُقال عن أزمات العالم أجمع. كانت ثورات إستقلال في الهند والباكستان والجزائر وسوريا ولبنان، وكانت أزمة حريات في جنوبي أفريقيا، وكانت حروب وأزمات دولية خطيرة في كوبا وفيتنام وكوسوفو والشيشان وكانت حرب أميركا على العراق، كلّها آلت إلى تسويات مُعيّنة. أما كان بالإمكان اجتراع تلك التسويات من دون تعريض العالم إلى ما تعرّض له من توتُّر وما دفعته شعوب من أثمان غالية من دماء أبنائها وأرواحهم وهنائهم، قبل انفجار تلك الأزمات أو الحروب؟ كون ذلك لم يتم هو شاهد على غياب الرؤية والرؤيا وسوء الحدس والتقدير لدى

قادة العالم الذين يتشدّقون بالقيم الحضارية والإنسانية ويبشرون بالحرية والديمقراطية فلا يبدر عنهم إلا ما يشهد العالم من ظلم ومآس ومعاناة.

وتبقى قضية فلسطين شهادة بليغة على قصور وتقصير، حتى لا نقول سوء نوايا، المتحكمين بالقرار الدولي. هذه القضية كانت سبباً لقلق واضطراب ومآس وفواجع لا توصف داخل فلسطين كما على صعيد المنطقة العربية برمتها، وكذلك على صعيد العالم في ما كان لها من تداعيات في حالات كثيرة. هذه القضية ستنتهي في يوم من الأيام. تلك الحصيلة التي سنصل إليها في يوم من الأيام، أليس بالإمكان اجتراحها اليوم قبل الغد تداركاً لما يتولّد عن استمرار الأزمة من أخطار وخطوب وأحداث يدفع ثمنها غالياً شعب فلسطين وسائر شعوب المنطقة وحتى شعب إسرائيل، فضلاً عما يترتب من تداعيات على العالم أجمع. ما الذي منع ذلك على امتداد أكثر من نصف قرن مضى، وما الذي يمنع ذلك اليوم وغداً؟ هل هو غياب الرؤية والرؤيا في غُرف القرار في العالم؟ أم هو سوء التقدير والحدس؟ أم هو سوء النوايا؟ أم هو طغيان مصالح الدول الآنية والمادية على مصالح البشرية وعلى أي اعتبار لقيم إنسانية أو حضارية؟

ربما كان الجواب في كل ذلك معاً. لعل هذا واقع الحياة، ولولاه لما كان تاريخ؟ ويا حبذا لو لم يكن التاريخ كما نعهد. يا حبذا لو كان التاريخ سجلاً لنضال الشعوب من أجل حياة أفضل، من أجل رفاه الإنسان، وحقوقه كافة.

هذه التأملات تدفعنا إلى وقفة أمام ما نشهد هذه الأيام في لبنان. ثمة شرخ وطني عميق أخذ يذرّ قرنه مع التمديد لرئيس الجمهورية ثم صدور القرار 1559 عن مجلس الأمن. لم تكن هناك أية مبادرة من جانب المسؤولين أو من جانب قادة الرأي في المجتمع لتدارك الأسوأ، فراح الشرخ يزداد عمقاً. ثم كانت الفاجعة باغتيال المغفور له الرئيس رفيق الحريري، فصبّت مزيداً من الزيت على النار، واتخذت حركة المعارضة من الحدث الجلل مادة للتصعيد بل المزايدة السياسية، فبلغت حمّى الانقسام في البلد أقصاها وباتت تُهدّد وحدة الشعب وبالتالي الوطن في الصميم. هذا مع العلم أن الجريمة المُنكرة ما كانت ولن تكون محل خلاف، سواء في رفضها أو استنكارها أو الإصرار على التحقيق فيها توصلاً إلى جلاء الحقيقة والاقتصاص من الجُناة.

هذه الأزمة سوف تنتهي في يومٍ من الأيام بصيغ توافقية معيّنة. أليس بين العقلاء من قادة الرأي في لبنان من يملك قدراً من حسن التقدير والحدس، ومن الرؤية والرؤيا، ومن الحس بالمسؤولية الوطنية، فيستبقوا مزيداً من التدهور والتأزُّم والمعاناة، ويقطعوا الطريق على تفاقم الأخطار التي تهدد المصير، بالمبادرة إلى وصل ما انقطع بين الأفرقاء، واجتراح صيغة توافقية مرحلية تُنقذ الوحدة الوطنية من خطر الانهيار، وتفتح آفاق التوافق على رؤى مستقبلية تُوطّد أسباب الاستقرار في كنف عيشٍ مشترك معزز بالحرية والعدالة والمساواة وسائر حقوق الإنسان في وطنه.

حالة التأزم تشتد احتداماً يومياً في الشارع. علام؟ الموالاة

تعتصم بإتفاق الطائف. وقد أعلن نواب المعارضة بعد لقاء لهم في المختارة مؤخراً أنهم يلتزمون سقف الطائف. فماذا بقي من أسباب الخلاف المبدئي؟

مسألة الوجود العسكري السوري تعالج بمنطق إتفاق الطائف. أما إصرار البعض على أن إعادة انتشار القوات السورية في البقاع يجب أن تقترن بإعلان العزم على الانسحاب النهائي، فالرد عليه بمنطق الطائف يكون بالدعوة إلى عقد إتفاق بين الدولتين الشقيقتين يحدد ثلاثة أمور: حجم القوة المتبقية في البقاع بعد إتمام عملية إعادة الانتشار، وطبيعة العلاقة التي ستكون بينها وبين مؤسسات الدولة في البقاع، ومدة بقائها، على أن تكون هذه المدة ضمناً قابلة للتمديد بإتفاق الدولتين ما دامت حالة الحرب مع إسرائيل قائمة. هذا نص وارد في إتفاق الطائف ولو أنه مهمل.

أما القرار 1559 فينبغي التعاطي معه بموقف لبناني موحد إنطلاقاً من موجب احترام كل القرارات الصادرة عن الشرعية الدولية، ونحن لنا مصلحة إستراتيجية في تنفيذها جميعاً.

ونحن نسأل الذين يتظاهرون يومياً لتنفيذ القرار 1559: ألا يهمهم تنفيذ القرار 194 الذي يحفظ للاجئين الفلسطينيين حقهم في العودة إلى ديارهم؟ أليسوا ضد التوطين؟ فلماذا إذن لا يتظاهرون لتنفيذ القرار 194، واستطراداً القرار 242 والقرار 425، كما يتظاهرون لتنفيذ القرار 1559؟[1]

---

(1) الخميس 3 آذار/مارس 2005.

ـ الدولة الأمنية زرع وحصاد:

تعوّدنا في حياتنا السياسية اختصار قضايانا بكلمة أو بعنوان. كنا في عهد الإنتداب الفرنسي نختصر قضيتنا بالاستعمار. وكذلك خلال الحقبة التي عايشنا فيها الثورة الجزائرية، كانت القضية هي الاستعمار الفرنسي. وخلال الثورة الهندية كان الحديث يروج عن الاستعمار البريطاني. أما إبّان سنوات الحرب الباردة، خلال سنوات الصدام بين المعسكر الرأسمالي بزعامة الولايات المتحدة الأميركية والمعسكر الشيوعي الإشتراكي بزعامة الإتحاد السوفياتي، فكانت قضية الشعوب المستضعفة تختصر بالامبريالية الأميركية. وكان الرد عليها في عالمنا العربي باسم قضية اختصرت بشعار عدم الانحياز بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر. وما زالت حركة عدم الانحياز حيّة حتى اليوم، تذكّرنا بها مؤتمرات دورية لدول تنتحل صفة عدم الانحياز.

معظم دولنا العربية اليوم منخرطة اسمياً في حركة عدم الانحياز، وهي تكاد تكون جميعاً هاجعة عملياً تحت المظلة الأميركية في السياسة الدولية، أي مستكينة في كنف ما كان يسمى في يوم من الأيام الامبريالية الأميركية. وما أوفر الذرائع والمبررات: إنها الليبرالية، أو الديمقراطية، أو الحرية، أو مكافحة الإرهاب الدولي. العنوان يُفصَّل على قياس الدول والمناطق والظروف. في كل الأحوال، فالقوة العظمى التي كانت تسمى امبريالية أمست هي الملاذ والقدوة والمثال الذي يحتذى.

أما في بلدنا الصغير لبنان، فقد قررنا فجأة، منذ بضعة أشهر تحديداً منذ التمديد لرئيس الجمهورية وصدور القرار 1559 أن نختصر قضيّتنا بعنوان «الدولة الأمنية». فجأة علت الأصوات المنددة بهيمنة الأجهزة الأمنية اللبنانية والسورية على مراكز القرار في الدولة، وتدخلاتها غير المشروعة في كل شاردة وواردة، خلافاً لكل الأنظمة والقوانين والأعراف، ومن دون التورّع عن الاعتداء على الحريات الفردية والعامة وكذلك على الحقوق والسلطات والصلاحيات على كل مستوى وفي كل مجال. وكثيراً ما يذكّرنا المندّدون بهذه الظاهرة بأنها تعود في واقع الحال إلى عام 1990، أي إلى مستهل عهد الطائف، وأحياناً يذكروننا بأن هذه الظاهرة لازمت في حقيقة الأمر حياتنا العامة منذ الإستقلال، وليس بيننا من نسي الدور الفاجر الذي كانت أجهزة الاستخبارات، وبخاصة ما يسمى «الشعبة الثانية» في وزارة الدفاع، تلعبه في الحياة السياسية، وقد بلغ هذا الدور ذروته في عهد الرئيس فؤاد شهاب، واستمر منذ ذلك الحين. والمعروف أن حكومة الرئيس صائب سلام بادرت في السبعينيات إلى تسريح كبار ضباط «الشعبة الثانية» جميعاً في عمليات اعتُبرت في حينه بطولية، ولكن هؤلاء ما لبثوا، بعد بضع سنوات، أن عادوا جميعاً إلى مراكزهم، مع الاحتفاظ بكل حقوقهم وإمتيازاتهم، بموجب أحكام من المحكمة العسكرية، ومن ثم بقرارات من مجلس شورى الدولة وقرارات من حكومات لاحقة.

هكذا أُحبطت انتفاضة الرئيس صائب سلام على حكم الأجهزة. ويقال أننا نعيش اليوم، منذ التمديد للرئيس إميل لحود وصدور

القرار 1559، حالة انقلاب متجدد على حكم الأجهزة الأمنية ولكن، هذه المرة، مقروناً بحركة رفض شعبية عارمة بلغت ذروتها إثر جريمة اغتيال المغفور له الرئيس رفيق الحريري، التي اتُّهمت أجهزة الأمن إن لم يكن بارتكابها مباشرة فبالمسؤولية عنها إهمالاً أو تقاعساً أو تقصيراً أو ربما، بحسب بعض الظنون، تواطؤاً. وهناك من يعتقد أن جريمة الاغتيال ما كان بالإمكان تنفيذها، حتى ولو كان المدبّر جهازاً أمنياً دولياً أو حتى صهيونياً، من دون اختراق لأجهزة الأمن اللبنانية والسورية.

ومع أن الدولة الأمنية كانت ماثلة في كل الأوقات، وإن بدرجات متفاوتة، منذ الإستقلال، إلا أن العلامة الفارقة لهذه الظاهرة في الوقت الحاضر هي إلباسها كلياً للوجود العسكري السوري، الذي تلازم ودوراً سافراً لجهاز الأمن العسكري السوري في الشؤون الداخلية اللبنانية. ومع خروج القوات السورية من لبنان تحت ضغط أميركي دولي، ومعها أجهزة الاستخبارات، أخذ الهجوم ينصبّ في شكل متزايد على أجهزة الأمن اللبنانية، التي بات يقال إن قياداتها كانت صنيعة أجهزة الأمن السورية، وإنها كانت شريكة تلك الأجهزة في كل ممارساتها المنكرة. وجاء تقرير لجنة تقصّي الحقائق الدولية في جريمة اغتيال الرئيس الحريري ليعزّز هذه الحملة في ما تضمّن من انتقادات عنيفة، بلغت حدود الإدانة الصريحة لأداء الأجهزة اللبنانية في التعاطي مع الجريمة المروّعة. لا مراء في أن الواقع الرديء هو امتداد لماض رديء. لذا، فبعد أن تهدأ العاصفة وينجلي الغبار، فإن محاكمة الحاضر سوف تجرّ حتماً إلى محاكمة الماضي. وفي محاكمة الماضي سوف تطرح جملة

تساؤلات وملاحظات لن تسلم من تداعياتها الطبقة السياسية عموماً، والطبقة الحاكمة خصوصاً.

نجوم المعارضة في الوقت الحاضر، وهم الذين يتصدّرون الحملة الشعواء على أجهزة الأمن، هم أنفسهم الذين كانوا نجوم الحكم، أرباب السلطة، لسنوات وسنوات من الزمن، فكانوا إما من الذين أسهموا مباشرة في رعاية تلك الأجهزة وتهيئة ظروف نموها، أو من الذين سكتوا عن عربدات الأجهزة وهم في مواقع المسؤولية ولعبوا دور الشاهد على تعاظم شأوها، أو من الذين استفادوا من ممارسات تلك الأجهزة وقطفوا من ثمارها وعبّوا من مَعينها واحتموا بها لا بل استقووا بها في ما انتزعوا من أدوار ومواقع في الحياة العامة. هؤلاء، هم أنفسهم اليوم، الذين يسجلون بطولات في التصدي للأجهزة ويتبارون في التنديد بها وبتجاوزاتها، ويحتكرون الفضيلة في التبرّؤ منها ومن رجسها. هذه الأصوات المدوّية التي تصمّ آذاننا اليوم، أين كانت قبل بضعة أشهر، قبل التمديد والقرار 1559؟

نكاد نجزم بأن أحداً من المنادين اليوم بالإطاحة بالقيادات الأمنية لا يجرؤ على المطالبة بمحاكمتهم. ذلك لأننا نستطيع ان نتصور قادة الأجهزة الأمنية في قفص الاتهام، يدافعون عن أنفسهم بالهجوم المعاكس على مهاجميهم فيفضحون ما حصدوا من مكاسب من أنشطة الأجهزة وما كان لهم من باع في تعزيز شأن تلك الأجهزة ودورها. من لم يكن داعماً للأجهزة طوال تلك السنوات راعياً لها، منتفعاً من خدماتها، شريكاً لها في كثير مما كانت

تجني، فليرشق تلك الأجهزة بحجر. الأبرياء من السياسيين هم القلة القليلة.

كانت لي شخصياً تجارب متشعّبة مع تدخلات الأجهزة، دوّنتها في مجموعة الكتب التي سطّرتها عن تجاربي في الحكم منذ عام 1976. كانت علاقتي دوماً متوترة مع الأجهزة، ولا أذكر أنني رضخت يوماً لإرادتها، فدفعت الثمن غير مرة في حياتي السياسية منذ عام 1976 وحتى عام 2000، عندما توّجت حياتي السياسية بسقوطي في الانتخابات النيابية، فكنت أول رئيس للوزراء في لبنان يسقط في انتخابات نيابية وهو في سدّة الرئاسة.

إنني أردد القول: إن في لبنان الكثير من الحرية وإنما القليل من الديمقراطية. إن غياب الديمقراطية في لبنان له أكثر من دليل، لعل أبرزها هو فقدان المساءلة والمحاسبة في الحياة العامة. فالناخب في بلادنا لا يحاسب النائب، والنائب لا يحاسب الحكومة، والحكومة لا تحاسب الإدارة، أما القضاء فلطالما شلّت السياسة يده في أداء دوره كاملاً في المساءلة والمحاسبة.

لو كان في لبنان الحد الأدنى من الديمقراطية، مع القدر الحيوي من المساءلة والمحاسبة، لما واجه لبنان أزمة وطنية كالتي يواجه اليوم، ولخضع المسؤول، حتى في الأجهزة الأمنية، للمحاسبة، لا بل لخضع السياسيون، بمن فيهم الحكّام، للمحاسبة على ما كان لهم من يد في تفاقم ظاهرة الدولة الأمنية وما لازمها من تجاوزات الأجهزة وعربداتها في حياتنا العامة.

إن محكمة التاريخ لا ترحم. سوف ننعم بفيء الديمقراطية

الصحيحة في يوم من الأيام. طموح الشعب حاضراً هو قدره مستقبلاً. هذا إذا توفرت الإرادة. فهذه سُنة تطوّر الأمم. وشعبنا الحي لا تعوزه الإرادة. ويوم تكتمل مقوّمات الديمقراطية الفاعلة بين ظهرانينا، لن يكون قادة الأمن وحدهم قيد المحاكمة، بل ستكون معهم الطبقة السياسية في مجملها. فالكل شريك في أداء، أو بالأحرى سوء أداء نظامنا، وبالتالي حياتنا العامة.

قد نرى في الدولة الأمنية سبباً لسوء حالنا اليوم، ولكن علينا ألا ننس أن الدولة الأمنية إنما هي نتيجة أيضاً، إنها حصيلة تراكمات الماضي. فالمسؤول عن الماضي مسؤول عن الحاضر. إن بعض الذين يلاحقون الأجهزة اليوم، سيلاحقهم التاريخ على ماضيهم في يوم من الأيام(1).

- لبنان والفوضى الخلاقة:

يتحدث المسؤولون الأميركيون عما يسمّونه «الفوضى الخلاقة» في الشرق الأوسط، بمعنى نشوء حال من القلاقل والاضطراب والنزاعات تكون هي المقدمة لإعادة ترتيب المنطقة سياسياً وإقتصادياً، وربما جغرافياً، على قياس ما تُفصّل الإدارة الأميركية لأقطار هذه المنطقة.

وما تضمر الإدارة الأميركية للمنطقة بعضه واضح وبعضه يبقى خفياً. الواضح منه هو مشروع الشرق الأوسط الأكبر، الذي يضمّ في منظومة واحدة، غير محددة المعالم، جميع دول منطقة الشرق

(1) «جريدة السفير» 31/ 3/ 2005.

الأوسط، بما فيها المشرق العربي، أي دول الطوق المحيطة بإسرائيل والخليج العربي، إلى العراق وربما ليبيا، وكذلك دول غير عربية من مثل تركيا وإيران وربما قبرص وأفغانستان، ومعها بالطبع إسرائيل. أما الهدف المعلن فهو ربط دول المنطقة في إطار نظام إقليمي جديد يُطلق، بحسب ما يُقال، حركة إصلاح سياسي واسع ينشر ألوية الحريات العامة والديمقراطية وسائر حقوق الإنسان في مجتمعات المنطقة، كما يفترض أن يطلق حركة تنمية زاخرة إقتصادياً وإجتماعياً وثقافياً تنهض بمجتمعات المنطقة من حال الفقر والتخلّف والاضطراب التي تواجهها.

وأما الهدف الحقيقي، الذي يُستقرأ من سياسات الدولة العظمى وممارساتها ومشاريعها في المنطقة، فهو مزدوج: فمن جهة يُراد القضاء نهائياً على مفهوم العروبة، ومن جهة ثانية وضع المنطقة برمّتها تحت مظلّة السطوة الإسرائيلية.

فالعروبة، بما هي قوة دفع نحو التحرر والوحدة بين شعوب الأمة العربية، كانت وما تزال تشكّل هاجساً للصهيونية وإسرائيل. ففي صلب مفهوم العروبة أن قضية فلسطين ليست مجرّد قضية وطنية لشعب تلك الأرض وإنما هي قضية العرب المركزية. فهي إن اقتصرت على الشعب الفلسطيني فإن تصفيتها ستكون ميسورة المنال بقهر هذا الشعب وتشريده وسحق مقاومته، علماً أن مقاومة الشعب الفلسطيني لغاصب أرضه وحقوقه لا يمكن أن تكون طويلة النفس من دون عمق عربي يساندها ويناصرها ويرفدها. وقد شكّلت ظاهرة الرئيس جمال عبد الناصر مفصلاً في تنمية هاجس الغرب عموماً،

وأميركا خصوصاً، حيال الخطر الذي يمكن أن تشكله العروبة على مصير الكيان الصهيوني. والمعروف أن جمال عبد الناصر ذهب بعيداً في شهر سلاح العروبة في وجه المشروع الصهيوني، فكانت الوحدة المصرية ـ السورية وكانت محاولة لاستيعاب اليمن وليبيا وكانت الحملات السياسية والإعلامية لضبط سياسات الدول العربية على إيقاع المواجهة مع المشروع الصهيوني. هكذا جعل الرئيس عبد الناصر من العروبة عقدة في التفكير الغربي إزاء المنطقة، وأضحى القضاء على العروبة مطلباً صهيونياً. والضعف المطبق الذي حلّ بجامعة الدول العربية خلال السنوات الأخيرة قد يكون من ثمار هذا الواقع.

أما إخضاع المنطقة للسطوة الصهيونية فمطلب أميركي بقدر ما هو مطلب إسرائيلي. فقد بات من المسلّمات في وعي كل عربي أن الإستراتيجية الأميركية في المنطقة لا تختلف في شيء، سواء في الجوهر أم في المظهر، عن المشروع الإسرائيلي الصهيوني. من هنا كان الدور الأميركي المشؤوم في جرّ مصر والأردن إلى عقد تسوية مع إسرائيل على حساب الحق العربي، ومن هنا كان إحتلال أميركا للعراق، ومن هنا ما يتعرّض له لبنان وسوريا من ضغوط هذه الأيام تتمحور على تصفية المقاومة اللبنانية وقطع العلاقة بين سوريا وبين حركة «حماس» وحركة «الجهاد الإسلامي» علماً أن الحركتين تحتفظان بمكاتب لهما في دمشق.

أما طريق الوصول إلى إخضاع المنطقة للسطوة الصهيونية فيمر بالضرورة، على ما يبدو، بشرذمة الشعوب العربية وتفتيتها، بحيث

تبقى إسرائيل هي الكيان المتماسك الوحيد في المنطقة، وتبقى تالياً هي الأقوى والأقدر على التحكّم بمسار المنطقة بأسرها ومصيرها بما يخدم مآربها ومشاريعها التوسعية ويوطد كيانها ويحصنه. هكذا نجد تفسيراً لما تتعرّض له المنطقة من ضغوط هذه الأيام، بما في ذلك ما يُثار في العراق من فتن عنصرية ومذهبية، وما تتعرّض له سوريا من مضايقات أميركية شديدة، وما يتعرض له الشعب الفلسطيني من اعتداءات وتهديدات من جانب إسرائيل، وما تثيره الإدارة الأميركية في وجه مصر والمملكة العربية السعودية ودول عربية أخرى من قضايا تتعلق بالحريات والديمقراطيات تحت عنوان الإصلاح السياسي.

في العام 1996 وضعت في أميركا ورقة سياسية بعنوان «الاختراق النظيف»، صاغتها لجنة برئاسة ديك تشيني الذي عاد فيما بعد ليشغل منصب نائب الرئيس الأميركي في عهد الرئيس جورج دبليو بوش، وقد رسمت الورقة مخططاً (سيناريو) لإثارة الاضطراب والقلاقل في المنطقة بتسلسل محدّد يبدأ بالعراق ويمر بسوريا ولبنان وينتهي بإيران، ويتناول في طريقه «حزب الله» تحديداً. ويبدو وكأنما هذا المخطط موضوع حالياً موضع التنفيذ كما تنبئ التطورات والأحداث التي تشهدها المنطقة.

إنها إرهاصات «الفوضى الخلاقة» بأسطع تجلياتها.

وكل المؤشرات توحي أن لبنان ربما أضحى هدفاً مباشراً من أهداف هذه اللعبة الجهنمية، فأخذت تدبّ في أوصاله معالم «الفوضى الخلاقة». ولعل مسلسل جرائم الاغتيال المنكرة التي

وقعت فيه خلال الآونة الأخيرة هو من إفرازات هذا الواقع. ومن حقنا أن نتساءل ما إذا كان اغتيال المغفور له الرئيس رفيق الحريري ومعه الدكتور باسل فليحان يأتي في هذا السياق؟ وكذلك اغتيال الصحافي والمفكّر سمير قصير وأخيراً أمين عام الحزب الشيوعي السابق المناضل جورج حاوي، وكذلك مسلسل التفجيرات الليلية التي استهدفت في مرحلة من المراحل منشآت تجارية وسياحية إلى الشرق والشمال من العاصمة بيروت.

لا بل من حقّنا أن نتساءل كذلك ما إذا كانت أجواء التوتر والانقسام التي رافقت جولات الانتخابات النيابية مؤخراً تندرج في هذا السياق، علماً بأن من مسبّبات عدم الارتياح السائد قانون انتخاب فرضه في واقع الحال موقف من أميركا وفرنسا أملى التزام موعد محدد للانتخابات النيابية، فلم يعد ثمة متسعٌ للبحث في قانون انتخاب جديد. وهل يأتي في هذا السياق أيضاً ما جاء في القرار الدولي 1559 من مطالبة بنزع سلاح المقاومة؟ مع العلم أن هذه المسألة تشكّل مادة للخلاف الحادّ بين اللبنانيين يتعذّر التكهّن بأبعاده.

وهل ستأتي في هذا السياق أيضاً يا تُرى محاولات من أميركا لفرض بعض جدول أعمالها في المنطقة مما لا قبل للبنان بتحمّل مغبّته، من مثل طرح موضوع الصلح المنفرد مع إسرائيل ومن ثم تطبيع العلاقات مع إسرائيل وربما توطين اللاجئين الفلسطينيين في لبنان. يخشى أن تُستغل في هذا السبيل دعوى استعادة السيادة فيُقال إن لبنان لم يعد معنياً بمقولة وحدة المسارين اللبناني

والسوري أو تلازمهما، وأن على لبنان تالياً السير في الطريق الذي يحفظ مصالحه الذاتية من دون الالتفات إلى سوريا. فلمَ إذن لا يسلك لبنان الطريق الذي سلكته من قبل مصر في كامب دايفيد والأردن في وادي عربة؟ من يدري، لعل وراء الأكمة مشروع 17 أيار جديداً!

ثمّة اقتناع سائد بين اللبنانيين هذه الأيام أن بلدهم خرج فعلياً من تحت مظلّة الوصاية السورية إلى تحت مظلة الوصاية الأميركية. وثمّة تخوّف من أن يترتب على ذلك تحوّل لبنان إلى مختبر للمشروع الأميركي المُعدّ للمنطقة، أو على الأقل تحوّله إلى منصّة تنطلق منها أميركا لتنفيذ مشاريعها في المنطقة.

والسؤال المطروح بعد الانتخابات النيابية: هل ستكون السلطة، في جناحيها الاشتراعي والإجرائي، على مستوى التحديات التي تحبل بها المرحلة المقبلة في ضوء كل هذه المعطيات؟ الجواب سيكون في أداء مجلس النواب عند إنطلاقه، خصوصاً في مواجهة استحقاق تأليف حكومة جديدة، وبتّ مسألة سلاح المقاومة، هذا ناهيك بالاصطفافات السياسية بين شتى الكتل النيابية التي سترسم صورة المجلس وربما تحدّد مدى فعاليته وإنتاجيته.

يبقى السؤال: ماذا يفعل لبنان، لا بل ماذا يفعل العرب، في التصدّي لمشروع «الفوضى الخلاقة» الذي يُنفّذ في منطقتهم؟ الجواب: لا شيء. إنهم يُحسنون الإصغاء إلى المسؤولين الأميركيين يحاضرون أمامهم في الإصلاح والقيم الحضارية والإنسانية. فيتسابقون على مسايرة الدولة العظمى في سياساتها،

حتى في فلسطين والعراق، حيث مواقفها العدائية للأمة وقضاياها. أما جامعة الدول العربية فهي في غيبوبة(1).

- محظور الكلام.. مذهبياً وطائفياً:

أنا المواطن المسلم أُخاطب اليوم أخي المواطن المسيحي، من وحي ما سمعتُ من رفيقة حياتي، فأقول: بكل بساطة، «أُريد أن أعيش معك يا أخي في وطنٍ واحد».

أَراني اليوم أتفوّه بكلام لم أكن أرضاه لنفسي في يومٍ من الأيام.

أنا مسلم. أنا مُؤمِن، والحمد لله، ألتزِم فرائض الإسلام الخمس. أدّيتُ فريضَة الحجّ ثلاث مرات وأدّيتُ العمرة مرّات لا تُحصى. أسعى جاهِداً أن أكون أميناً على القِيَم الإسلامية، والإسلام دعوة للتقوى والصلاح والصِدق والأمانة والإحسان، مع الإدراك بأني إنسان غير معصوم عن الخطأ، وإن كنت، والحمد لله، لا أشعر بأنني ارتكبتُ يوماً خطيئة. مع ذلك أجد راحة في استغفار الله رب العالمين كلما خلوت إلى نفسي.

والمذاهب في نظري ومفهومي من البِدع الدخيلة على الإسلام. الكتاب واحد، والرسالة واحدة، والرسول الأكرم واحد. مع ذلك تشظّى المسلمون مذاهب، بين سنّي وشيعي وعَلوِي ودرزي، وتفرّع السنّة مذاهب بين حنفي وشافعي وحنبلي ووهابي وما إلى ذلك. والمذاهب تشعّبت طُرقاً: وما أكثر أصحاب الطرق. وفي العصر

---

(1) الأحد 26 حزيران/يونيو 2005.

الحديث تنابتت الحركات الأصولية على ألوانها إنطلاقاً من اجتهادات متفاوتة، ونشطت في كل مكان، وبرز تيار تكفيري وأخذ يصدر الأحكام المدمّرة يمنة ويسرة فكان أن خلّف صورة سلبية مضللة عن الإسلام تتنافى مع ما يتّسم به في جوهره من تسامح وانفتاح. وما الديمقراطية إلا ترجمة عصرية للشورى في الإسلام.

أراني بكل بساطة غير مَعني بكل ذلك. لا أفهم لِمَ لا يكون الجامع، كما يوحي اسمه، جامِعاً، أي واحداً، يمارس الفرد فيه عِبادَة ربه بصرف النظر عن هويته المذهبيّة أياً تكن. لماذا لا يُصلي السنّي والشيعي في مسجد واحد؟ ولماذا لا يخاطبهم إمام واحد؟ ألا يلتقون جميعاً في الجامع المركزي سنوياً، حول الكعبة الكريمة في مكّة المكرمة؟ فلماذا لا يلتقون ظهر يوم الجمعة من كل أسبوع في مسجد مشترك؟ أنا من الذين يأنسون صدقية الرأي الشرعي في علماء فقهاء مثل المغفور لهما عبد الله العلايلي وصبحي الصالح من أهل السنّة والمغفور له الشيخ محمد مهدي شمس الدين والسيد محمد حسين فضل الله أطال الله عمره، من الشيعة.

نقول هذا ونتطلّع إلى ما يجري على ساحة العراق من نزاعات وصدامات مذهبية مفتعلة مروّعة. نتساءل مع مَن يتساءل: علامَ التذابُح والتناحُر؟ علامَ كل هذه الجرائم التي تُرتكب يومياً في حق الإنسانية باسم الدِين والله في ما الدين واحد والله واحد؟ علامَ كل هذا التمادي والفجور لا بل الجنون؟ لم يكن ذلك إلاّ في ظل الإحتلال، والوقيعة نهجه.

أنا سنّي في المذهب السياسي. فالمذهبية هي العلامة الفارقة

في الحياة السياسية في لبنان. وكنت أرى في السنّة السياسية رأس حربة للوطنية في لبنان وللقومية في الأمة العربية. السنّة السياسية على ما أعهدها مرادفة لالتزام وحدة لبنان المجتمع والوطن والدولة، والسنّة من الفئات اللبنانية النادرة التي تجد لها حضوراً بشرياً ملحوظاً في المحافظات اللبنانية الخمس. إنهم كثرة في العاصمة، وهم ذوو حضور وازِن في الشمال والجنوب والبقاع، وماثلون بفعالية في الجبل. فوحدة لبنان بالنسبة إليهم معطى طبيعي وحيوي لا بل هي مصلحة ومصير. وهُم على المستوى القومي كانوا شارع جمال عبد الناصر الصاخب، وكانوا ولا يزالون درع القضية الفلسطينية في وجه كل ما يُحاك ضِدها إقليمياً ودولياً، وحِصناً لفكرة العروبة وما ترمُز إليه من حُلم التضامن والتكامل بين العرب لا بل ومشروع إتحاد بينهم في يومٍ من الأيام.

وأقف اليوم مَشدوهاً أمام ما يصدر أحياناً عن بعض هؤلاء وبعض قياداتهم حول العروبة وإسرائيل والعلاقة مع سوريا. ولا أجد تعليلاً لما هو في منزلة المروق، من باب تعزية النفس وليس إقناعها، سوى أن ما نسمع ليس مواقف أو توجهات بل مجرد انفعالات وردات فعل لن تلبث أن تتلاشى فيعود المؤمن إلى إيمانه ويعود الأصيل إلى أصالته في الموقف والمعتقد.

هناك من يتهم سوريا بقتل الرئيس الشهيد رفيق الحريري، رحمه الله، ويبني على هذا الحكم مواقف وتصورات. العجب هو القطع بالاتهام قبل انتهاء التحقيق الدولي وتحديد المسؤوليات على الوجه القانوني. هذا لا يعني تبرئة أي سوري سلفاً من قريبٍ

أو بعيد. ولكنه يعني أنه، في حال ثبت ضلوع مواطن أو مسؤول سوري أو أكثر في الجريمة النكراء، فإن المدانين يجب أن يلاحقوا وينالوا ما يستحقون من عقاب.

كان بين المشتبه فيهم حتى اليوم مسؤولون أمنيون لبنانيون، تم توقيفهم ولا يزالون قيد المساءلة، ولكن لبنان الدولة لم تُتهم ولا للحظة واحدة بالجريمة المنكرة. فلماذا تتهم سوريا الدولة سلفاً قبل أن ينجز التحقيق وإن كان ثمة احتمال أن يكون مسؤولون معينون متهمين بالضلوع في الجريمة النكراء؟ ثم أين مصلحة لبنان الإستراتيجية، وهل يجوز لنا أن نتناساها؟ ثمة شبه إجماع على التمسك بعروبة لبنان، وقد حسمت قومية لبنان في إتفاق الطائف الذي قضى بعروبته انتماءً وهويةً. فكيف تستقيم عروبة لبنان من دون أطيب العلاقات وأسلمها مع سوريا التي تشغل أكثر من ثمانين في المائة من حدود لبنان البرية؟ وهذا لا يكون بالطبع إلا في إطار الاحترام المتبادل لسيادة الدولتين وكرامة الشعبين وحرية البلدين. هل نقفز في عروبتنا فوق دمشق إلى بغداد أو القاهرة أو الرياض أو أي عاصمة عربية أخرى؟ وهل ندع فجور ممارسات أجهزة الاستخبارات في مرحلة من المراحل أن تخرب العلاقات بين البلدين الشقيقين نهائياً؟

أنا مسلم سنّي، ولكن هل ينسيني هذا الواقع أنني لبناني أولاً وآخراً؟ وإذا سلمت بلبنانيتي، كما يجب بالطبع أن أفعل، فهل يصرفني نَسبي الإسلامي، ولا أقول السنّي، عن واجباتي تجاه وطني، وبالتالي تجاه سائر أبناء الشعب اللبناني وفئاته. فمن موقعي

لبنانياً ألست مسؤولاً عن أخي المواطن المسيحي تماماً كما أنا مسؤول عن أخي المواطن المسلم؟

أليس المسيحي والمسلم أخوين شريكين في المواطنة اللبنانية؟ فكيف يجوز التمييز أو المفاضلة بين أخٍ وأخ في العائلة اللبنانية الواحدة؟ أنا لبناني بقدر التزامي معاني المواطنة اللبنانية الحقة ومترتباتها. فأنا لبناني عربي وأعتز بلبنانيتي وعروبتي.

أمّا التمايُز الديني بين مسلم ومسيحي فشأن لا يفسد في الودّ قضيّة بين أبناء الشعب الواحد أو الأمة الواحدة من قريب أو بعيد، اللهمّ إلا عند ذَوِي المآرب المبيتة وذوي العصبيات العمياء.

ولنعد إلى الكلام الطائفي المحظور. إنّ المسلم مُلزَم دينياً باحترام المسيحي في حرية مُعتقده:

ألم يقل الله تعالى في كتابه الكريم: **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نُشرِك به شيئاً﴾**. [سورة آل عمران ـ ٦٤].

وجاء في كتاب الله الكريم: **﴿قولوا آمَنّا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيّون من ربّهم لا نُفرّق بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون﴾**. [سورة البقرة ـ ١٣٦].

كما جاء في كتابه الكريم: **﴿ولتجدنّ أقربهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى﴾**. [سورة المائدة ـ ٨٢].

ولا يسعني، وأنا مسلم من لبنان، إلاّ أن أُلَمِّح إلى تجربتي

الشخصية الحميمة في هذا الصدد: تزوّجت من سيدة مسيحية من بلدة دير القمر، أحببتها حُباً جماً. واحتفظتْ هي بعقيدتها الدينية طوال حياتنا الزوجية السعيدة التي دامت أكثر من ثلاثة عقود من الزمن، ولم يكن في الأمر أدنى إشكال أو مشكلة. وما كان هذا خروجاً على الإسلام من قريبٍ أو بعيد (فلقد كانت إحدى زوجات الرسول الأكرم قبطيّة). وقبل أشهر من وفاتها، رحمها الله، وكانت على فراش المرض العضال في حالٍ من المعاناة الشديدة، توجّهَتْ إليَّ بكلمة مقتضبة تنمّ عن تصميم قاطع قائلةً: «أريد أن أعتنق الإسلام». فسألتها للتو: «لِمَ تُقرّرين ذلك الآن؟ هل أنتِ مقتنعة بما تقولين؟» وعندما أكّدتْ عزمها، كرّرتُ السؤال: «هل أنتِ واثقة بما تطلبين»؟ فأفحمتني، لا بل سحقتني، ببساطة الجواب: «صمّمتُ على أن أُدفن في قبرٍ واحد مَعَك».

وأنا اليوم ما زلت على موعد مع الغائبة.

وأنا المواطن المسلم أُخاطب اليوم أخي المواطن المسيحي، من وحي ما سمعتُ من رفيقة حياتي، فأقول: بكل بساطَة، «أُريد أن أعيش معك يا أخي في وطنٍ واحد».

لذا اعتنق الديمقراطية التوافقية، فهي سبيلنا إلى العيش الكريم الرغيد الهانئ، الذي تزهر في فيئه ملكات شعبنا المهدرة وتتفجر طاقات أمتنا الزاخرة[1].

---

(1) الأربعاء 8 آذار/ مارس 2006.

أنديرا غاندي

(1917 - 1984)

في 31 تشرين الأول/أكتوبر عام 1984 تم اغتيال أنديرا غاندي رئيسة وزراء الهند على يد اثنين من حراس الأمن التابعين لها كانا عضوين في طائفة السيخ الدينية التي كثر الاحتكاك بينها وبين حكومة غاندي.

وأنديرا غاندي هي أول امرأة تتولى منصب رئاسة الوزارة في الهند. تولت رئاسة الوزارة ما بين عامي 1966 و1977، كما تولتها أيضاً عام 1980 وحتى وفاتها. كانت أنديرا الابنة الوحيدة لجواهر لال نهرو، الذي كان أول رئيس لوزراء الهند بين عامي 1947 و1964 وكانت مستشارة لأبيها خلال فترة رئاسته.

انتخبت غاندي لأول مرة للبرلمان عام 1964، كانت وزيرة للإعلام منذ العام 1964 وحتى أصبحت رئيسة للوزارة عام 1966 بموت لال في هادور شاستري.

ولدت أنديرا بريادار شيني نهرو في 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1917 في مدينة الله أباد التي كانت آنذاك مركزاً إدارياً وثقافياً هاماً في عائلة أرستقراطية عريقة في السياسة، فقد كانت الابنة الوحيدة

لجواهر لال نهرو وحفيدة ميتيلال نهرو، ذلك المحامي الوطني الذي عم صيته كل ولايات الهند وكان من أبرز صانعي الإستقلال الهندي، عاشت منذ نعومة أظافرها في جو عائلي تطغى عليه الاهتمامات الوطنية والنضال ضد الإنجليز. وقد بلغ اندماجها في هذا الجو حد حرقها كل لعبها وأشيائها المستوردة تنفيذاً لتعاليم المهاتما غاندي بضرورة مقاطعة البضائع الأجنبية. وإلى جانب نشأتها الوطنية العائلية فقد تلقت تربية متنوعة وعميقة، إذ درست في سانتينيكيتان، المعهد الذي أسسه الشاعر الكبير طاغور، ثم في سويسرا حيث تعرفت على الثقافة الفرنسية، وأخيراً في «أكسفورد».

تعرفت أثناء إقامتها في بريطانيا على كريشنا مينون العضو النافذ آنذاك في الرابطة الهندية من أجل الإستقلال وعلى فيروز غاندي أحد زعماء الحركة الوطنية الهندية الذي قدر لها أن تتزوجه عام 1942 وترزق منه ولدين ذكرين هما سنجاي وراجيف غاندي.

اعتقلتها السلطات البريطانية هي وزوجها عام 1942 بتهمة التخريب ومناهضة السياسة الاستعمارية فقضيا في السجن 13 شهراً، وعندما انتزعت الهند إستقلالها في 15 آب/أغسطس عام 1947 وتجزأت شبه القارة الهندية، كانت أنديرا تعمل تحت قيادة المهاتما غاندي وتبذل كل جهودها لاحتواء بذور الفتنة الطائفية بين الهنود والمسلمين. وبعد اغتيال المهاتما غاندي وتسلم والدها جواهر لال نهرو منصب رئيس وزراء الهند أصبحت المساعدة الرئيسية له وبمثابة مديرة لمكتبه ترافقه في كل جولاته الداخلية وفي رحلاته

التاريخية إلى كل من الإتحاد السوفييتي والصين والولايات المتحدة الأميركية وإندونيسيا.

كرست أنديرا غاندي معظم حياتها لترسيخ وحدة الهند الوطنية وإخراجها من قمقم التقاليد البالية والانقسامات الإجتماعية المولدة للعنف والتخلف. كما عرفت كيف تحافظ على إستقلال الهند في عالم يتميز بهيمنة الكبار على كل تفاصيل العلاقات الدولية، وهكذا فقد كانت حليفاً صعباً للسوفييت وخصماً عنيداً للأميركيين وعدواً لدوداً لباكستان، ولكنها في الوقت نفسه عرفت كيف تتمسك بحركة عدم الانحياز وتقيم علاقات حميمة مع العالم العربي وترفض باستمرار مبدأ الاعتراف بإسرائيل. ولقد بلغ من حرصها على وحدة الهند الوطنية، أنها عندما دخلت في صراع دموي مع زعماء السيخ المتطرفين والانفصاليين، رفضت طرد حراسها السيخ من الخدمة حتى لا يؤخذ البريء بجناية المذنب فكان أن سقطت قتيلة برصاص هؤلاء الحراس أنفسهم الذين غلبوا انتماءاتهم الطائفية على واجباتهم القومية.

- سبب اغتيال أنديرا غاندي:

ظاهرة الاغتيال السياسي ليست جديدة، بل تعود إلى عصور ما قبل التاريخ، ورغم أنها تقع في جميع دول العالم دون استثناء مع اختلاف أسبابها من حادثة إلى أخرى، إلا أن هناك حوادث اغتيالات تعرض لها قادة وزعماء بعد توقيعهم لمعاهدات سلام وضعت نهاية لصراعات مأساوية، ومن أبرز هؤلاء الرؤساء أنديرا غاندي.

جاءت جريمة اغتيال أنديرا غاندي عندما طالب حزب أكالي دال السيخي بمنح الحكم الذاتي لإقليم البنجاب في ثمانينات القرن العشرين. حاولت رئيسة الوزراء أنديرا غاندي إضعاف شعبية حزب أكالي دال في الإقليم بتشجيع المنافس الرئيسي له وسط السيخ وهو الواعظ الأصولي السيخي سنج بندرانوال.

وسرعان ما انفلت بندرانوال من سيطرة أنديرا غاندي عندما بدأ أنصاره في شن هجمات إرهابية ضد الهندوس في البنجاب. واضطر الجيش الهندي إلى اقتحام المعبد الذهبي في 5 حزيران/يونيو عام 1984 وتم قتل ألف شخص من السيخ من ضمنهم زعيمهم بندرانوال. وكانت إحدى نتائج هذه الأحداث اغتيال رئيسة الوزراء أنديرا غاندي.

مصطفى سعد
(... ـ 2005)
(محاولة اغتيال في العام 1985)

ـ مسيرة نضال:

بعد صراع طويل مع المرض، غيب الموت يوم الخميس 25 تموز/يوليو عام 2005 مصطفى سعد، المناضل اللبناني الأصيل والمقاوم العربي الكبير، الناصري المتواضع والقومي الأبي والفلسطيني القلب والحب، واللبناني الانتماء والموت والحياة. رجل العقيدة ثورة وجهاد ووفاء وانتماء للعروبة المتوهجة كشمس الحرية المشعة فوق وطننا العربي الكبير المبتلي بما فيه وما لديه من حراس يعملون على إقلاق شعوبهم وراحة أعدائهم.

أراد القدر للمهندس الشاب أن يتولى مسؤولياته السياسية والنقابية والحزبية مبكراً بعدما غيب الموت والده المجاهد النقابي والبرلماني اللبناني الكبير القائد الناصري معروف سعد، والمعروف عنه دفاعه الشديد وتبنيه الدائم لقضايا البحارة والصيادين. حتى أن

الناس العاديين كانوا يلقبونه بأبي الصيادين. اغتيل معروف سعد في شباط/فبراير من العام 1975 برصاص المجرمين القتلة من أعداء وحدة لبنان وعروبته ومن تجار البر والبحر في لبنان، وبمقتله كانت شرارة بداية الحرب الأهلية التي عصفت بلبنان ودمرته. وكانت عملية الاغتيال مقدمة لاغتيال عروبة لبنان عبر تفجر الحرب الأهلية التي زعزعت بنيان ذاك البلد الصغير وقضت على ازدهاره ومكانته في المنطقة.

في هكذا أجواء وجد أبو معروف نفسه في موقع أبيه الشهيد، قائداً لصيدا قلعة المقاومة وعرين العروبة الملتهب، فعمل على قيادة فقراء وبحارة صيدا ورجالات والده الذين انتخبوه أميناً عاماً لـ «التنظيم الشعبي الناصري».

وكذلك عبر قيادته للمدينة الأبية وللمجلس السياسي للحركة الوطنية اللبنانية في الجنوب عام 1975 أيضاً.

ثم تسلم أبو معروف قيادة القوات المشتركة اللبنانية الفلسطينية في جنوب لبنان بعد الاجتياح سنة 1978. هكذا كان أبو معروف رجلاً عملياً ومناضلاً مخلصاً لا يجيد الخداع أو التفذلك والكذب والدجل واستغلال الكلمات لأجل مصالح التنظيمات والأحزاب والفصائل والحركات. كانت كلماته تعبر عن نفسها ببساطتها وقربها لقلوب الفقراء والبؤساء وبحارة صيدا وصياديها. كانت كلماته تجد صداها القومي والثوري في قلوب أبناء الجنوب والمخيمات الفلسطينية المحاصرة بالفقر وتضييق

الخناق غير المبرر والحواجز التي لا تجلب أمناً لا للمخيمات ولا لجوارها بل على العكس من ذلك، فهي تزيد من الفصل والانعزالية وتنشر التفرقة والكراهية بين أبناء الأمة العربية الواحدة والقضية الواحدة. هكذا كان أبو معروف يقول علناً ما في باله وما في فكره، رجلاً لا يعرف الدجل ولا يقبل بغير مواقف الرجال التي تليق بأبناء الرجال. فهو رجل مناضل ووالده كان من قبله رجلاً كبيراً وقائداً جليلاً ومناضلاً قاتل مع جمال عبد الناصر دفاعاً عن فلسطين والأمة العربية في الجليل وعند الحدود مع لبنان في اللواء العربي، في المالكية.

هكذا تربى مصطفى سعد وهكذا كان حتى وافته المنية بعد صراع طويل مع المرض العضال. كان يردد شعارات المقاومة التي كان له شرف تأسيسها ومن ثم قيادتها في رحلة الجهاد والعمل المقاوم، حيث شنت العمليات والهجمات القوية ضد الإحتلال الصهيوني في الجنوب اللبناني. وكانت تلك المقاومة باسلة وصلبة وفعالة وقوية، توحدت فيها البنادق الشريفة التي واجهت الأعداء بقناعات قومية وعربية ووحدوية وتقدمية استطاعت إلحاق الخسائر الجسيمة بالإحتلال وعملائه.

لم يكتف أبو معروف بذلك، ورغم الممارسات التعسفية والتحقيقات المهينة والقاسية التي تعرض لها عند الإحتلال، إلا أنه واصل العمل من أجل استمرارية المقاومة وحماية عروبة لبنان ونصرة الشعب الفلسطيني ورفع راية تنظيف لبنان من

عملاء الإحتلال وأزلامه من أشباه الرجال. كما أنه أعلن موقفه الأبي والشريف والقوي الذي أعلن فيه رفضه المطلق لإتفاقية 17 أيار/مايو عام 1983 المذلة بين الصهاينة المحتلين والدولة اللبنانية.

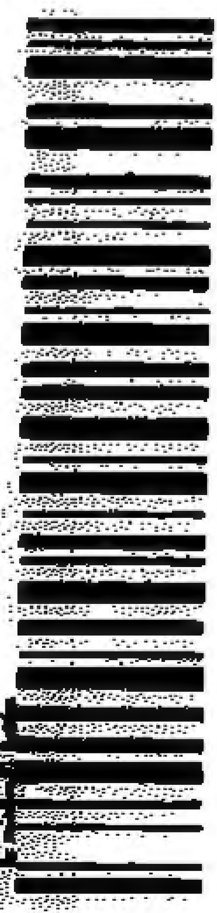
أسس سنة 1985 «جيش التحرير الشعبي» قوات الشهيد معروف سعد، حيث شارك هذا الجيش في معارك شرسة وعنيفة وقوية ضد الإحتلال في شرق صيدا وعلى محور كفرفالوس لبعا عين المير وكذلك في الجنوب اللبناني بشكل عام. وبناء على مواقفه هذه وقيادته للنضال الوطني اللبناني ضد الإحتلال في الجنوب، قام الصهاينة بمحاولة اغتياله عبر وضع سيارة مفخخة بالمتفجرات أمام منزله في صيدا يوم 21 ـ 1 ـ 1985، وأدى انفجارها إلى مصرع ابنته ناتاشا وإصابته وزوجته بإصابات بليغة أفقدته بصره وأطفأت نور عينيه لكنها لم تطفئ نور الثورة وشعلة الجهاد المتوهجة في قلبه. بعد العملية الحاقدة غدت صيدا بكل طاقاتها الوطنية والقومية والتقدمية تبايعه على قيادة المقاومة ومن ثم قيادة المدينة في مرحلة التغيير والوفاق الوطني وإعادة البناء بعد إتفاق الطائف بين أطراف النزاع في لبنان. فانتخب نائباً عن محافظة الجنوب قضاء صيدا كمرشح مستقل في دورتي 1992 و1996، كما أعيد انتخابه سنة 2000 واستطاع الإنتصار بالتصويت والاقتراع على معارضيه وحساده كما كان انتصر سابقاً بالبندقية المقاتلة على الأعداء وأعوانهم.

لقد كان لأبي معروف دوراً هاماً وريادياً في إنهاء حرب

المخيمات التي استمرت طويلاً بين حركة أمل والمخيمات الفلسطينية، حيث استضاف المحادثات في منزله ومارس دور الوسيط النزيه الذي كان الطرفان يحترمان رأيه ووساطته. كما لعب نفس الدور وأدت وساطته إلى إطلاق سراح بعض المخطوفين الأجانب في لبنان أواسط الثمانينات وبداية التسعينات. كما أنه نال عدة أوسمة رفيعة جداً من رؤساء سوريا وليبيا وفلسطين والجزائر وذلك تقديراً لدوره القومي الكبير في محاربة الصهيونية والانعزالية وفي تكريس عروبة لبنان وانتمائه الأبي وغير القابل للتغيير من ناحية القضية الفلسطينية، فكان أبو معروف محبوباً في المخيمات الفلسطينية كما كل أبطال فلسطين الذين يفخر بهم الشعب الفلسطيني. ويوم هبت الأصوات المعادية في الجوار لتلفق الدعايات والأكاذيب بحق الفلسطينيين وقف مصطفى سعد ليقول بالفم الملآن: إن الذين اغتالوا القضاة الأربعة في صيدا كان هدفهم منع القاضي حسن عثمان من إصدار القرار الظني في محاولة اغتياله والذي كان سيتضمن أسماء عسكريين لبنانيين متورطين بهذه القضية. وقف أبو معروف وقال كلمته الجريئة والشجاعة رغم حالة العداء الهستيري التي كانت تحيط يومها بالمخيمات الفلسطينية، حيث كان ولا زال الكثيرون يعتبرون المخيمات بؤر أمنية خارجة عن القانون. لكن هذه البؤر لا زالت منذ 1948 وحتى يومنا هذا محرومة من أبسط الحقوق المدنية بحجج واهية وتحت شعارات غريبة عجيبة، منها كي لا تميل دفة ميزان المذاهب اللبنانية لصالح فئة من الفئات اللبنانية التي تمثل نوعية سكان لبنان وانتمائهم

الطائفي. لكن أبو معروف كان يقول لهم علينا السماح للفلسطيني أن يعيش بكرامة وحرية ومساواة مع أخيه اللبناني ولكي نضمن استمرار صموده وتمسكه بحق العودة إلى فلسطين، هذا الحق الذي يوجد الآن في مهب الريح بفعل سياسة التضييق والتيئيس التي يتبعها العالم العربي في التعامل مع اللاجئ الفلسطيني.

الفهرس



مركز الشرق الأوسط الثقافي